Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

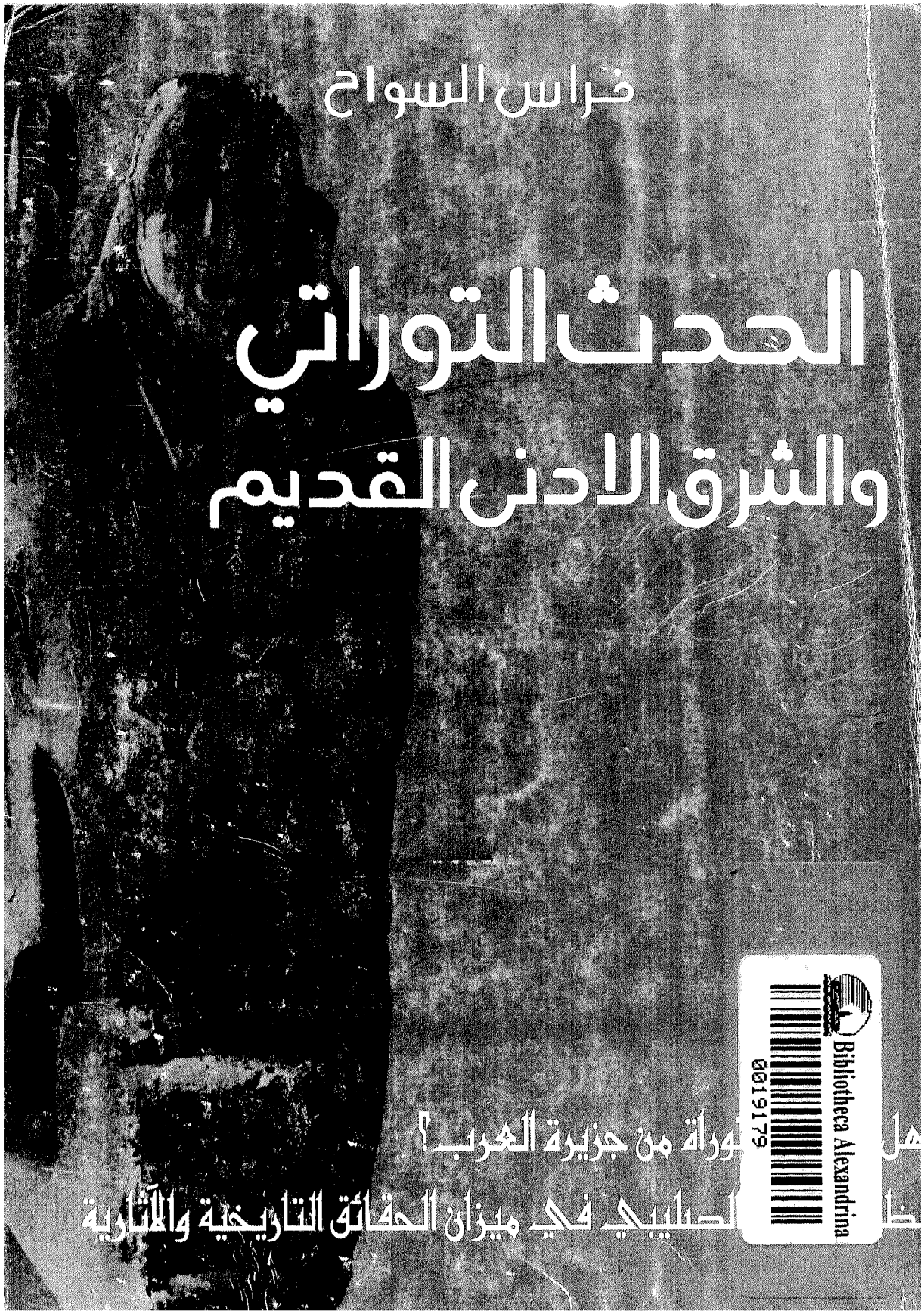

فراس السواح

الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

هل ... توراة من جزيرة العرب؟

... الصليبي في ميزان الحقائق التاريخية والآثارية

Bibliotheca Alexandrina
0019179

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحدث التوراتي والشرق الادنى القديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
* تأليف : فراس السواح
* الطبعة الثالثة
* الناشر : دار علاء الدين
دمشق : ص.ب: ٣٠٥٩٨
هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١
تلكس : ٤١٢٥٤٥
فاكس : ٢٣١٧١٥٩
* التنضيد الضوئي : دار علاء الدين
* الإخراج الفني : ناضر شهاب الدين
* جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
٢٠٠٠ / ٢ / ١٩٩٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فراس السواح

الحدث التوراتي
والشرق الأدنى القديم

نظرية كمال الصليبي
في ميزان الحقائق التاريخية والآثارية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

لقد غدا من نافلة القول اليوم التحدث عن صحة المرويات التوراتية من الناحية التاريخية ، أو المجادلة في إمكانية اعتمادها مرجعاً على هذه الدرجة من المصداقية أم تلك . ذلك أن المعلومات التاريخية والأركيولوجية التي توفرت لدى الباحثين خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، قد أظهرت بجلاء الطابع غير التاريخي لهذه المرويات ، وعدم اتساقها مع تاريخ فلسطين وبقية مناطق الشرق الأدنى القديم خلال معظم الفترة التي تغطيها الأسفار التوراتية . ولقد بدأت ملامح هذا المأزق التاريخي لكتاب التوراة تتوضح منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر ، عندما حاول بعض الباحثين المرموقين من أمثال E.Meyer و Gunkel ، ومنذ ذلك الوقت المبكر ، بأن الأسفار التوراتية ليست تاريخاً موثقاً يمكن الركون إليه ، وأن مصدرها الرئيسي هو الحكايا الشعبية والملاحم والقصص البطولي ، مما كان متداولاً شفاهة في فلسطين والمناطق المجاورة زمن تحرير أسفار الكتاب . ورغم أن هذا الاتجاه التحرري المبكر قد جرى تعطيله من قبل مدرسة «علم الآثار التوراتي» التي أخذت أفكارها بالانتظام فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ بتأثير العلامة وليم فوكسويل أولبرايت في أمريكا ، ومارست سلطة قوية على الدراسات التوراتية حتى ستينيات القرن العشرين ، إلا أن ما أفاضته التنقيبات الأركيولوجية الحديدة في فلسطين خلال العقدين الأخيرين على وجه الخصوص ، لم يترك من الباحثين الجادين مَن يناقش في صحة الخبر التوراتي ، إلا بقية متعتة من تلامدة أولبرايت تجمعها مجلة «علم الآثار التوراتي» الأمريكية التي يرئس تحريرها الصهيوني المعروف هيرشل شانكس .

من هنا ، فقد كان من المستغرب أن يأتي الهجوم المضاد على الاتجاه الجديد المتحرر من اللاهوت التوراتي من قبل مؤرخ عربي هو الدكتور كمال الصليبي ، لا من أية جهة علمية رصينة في الغرب . لقد أدرك الدكتور الصليبي أن الدفاع عن تاريخية التوراة وفق المعطيات العلمية الراهنة هو مسألة خاسرة ، فقام بالتفافة بارعة على المشكلة برمتها ونقل مسرح الحدث التوراتي في فلسطين إلى منطقة غرب شبه الجزيرة العربية . وبذلك تمت حماية المرويات التوراتية من أية مقارنة جدية مع وقائع علم الآثار وعلم التاريخ ، لأن المنطقة الجديدة للتوراة مجهولة تماماً من الناحية التاريخية والأركيولوجية ، ولم يضرب فيها المنقبون حتى الآن معولاً واحداً . وهو إذ يكرر عبر فصول كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بأن المرويات التوراتية قد وقعت بحذافيرها وكما سجلها أحبار اليهود ، فإنه ينطلق من موقع آمن من هجوم علم الآثار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلم التاريخ . كما عمد الدكتور الصليبي إلى حماية نظريته بسور دفاعي آخر عندما تجاهل كلية مناهج البحث التاريخي ولجأ إلى المنهج اللغوي المقارن ، مظهراً براعة فائقة في قراءة النصوص العبرية التوراتية وتأويلها ، وبراعة لاتقل عنها في دراسة وتحليل أسماء المواقع في منطقة غرب شبه الجزيرة العربية ومطابقتها على أسماء المواقع التوراتية .

إن المشكلة التي خلّفها وراءه الدكتور الصليبي لا تكمن في محتوى نظريته بالدرجة الأولى ، بل في المنهج غير التاريخي الذي طبقه على مسألة تاريخية في غاية الحساسية . ذلك أن المقولات غير المدعمة علمياً تصدر عن مؤرخ مرموق ، يمكن أن تقود إلى مزالق ومتاهات أكثر مما توصل إلى حقائق تساهم في النهضة التي يشهدها علم التاريخ وعلم الآثار اليوم في هذه المنطقة من العالم . وقد ساعدت هذه المقولات بالفعل بعض المؤلفين المتأثرين بالدكتور الصليبي على تجاهل المنهج التاريخي لصالح التبرير والرؤية الانفعالية والايديولوجية لأحداث التاريخ .

إن مايلي من صفحات هذا الكتاب هو حوار علمي هادىء ، يستند إلى الحقائق التاريخية والآثارية في مقابل المنهج اللغوي الأحادي لكمال الصليبي ، وفي مقابل المواقف الانفعالية والايديولوجية التي يصدر عنها آخرون . ويتوجب عليَّ أن ألفت نظر القارىء الكريم ، منذ البداية ، إلى أن التوكيد على منطقة فلسطين كمسرح للحدث التوراتي لا يتضمن الاقرار بتاريخية هذا الحدث . ذلك أن محرري التوراة الذين عكفوا على تدوين أسفاره منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، كانوا يهدفون إلى التأصيل للديانة اليهودية التي أخذت ملامحها بالتوضح عقب عودة بقية سبي يهوذا من بابل ، وابتكار جذور للمعتقد التوراتي تضرب في تاريخ فلسطين القديم . وقد عمدوا في سبيل ذلك إلى الاستفادة من كل ما وقع تحت أيديهم من أخبار مملكتي إسرائيل ويهوذا ، (وهما مملكتان فلسطينيتان محليتان لم تعرفا قط الديانة اليهودية) وفسروا هذه الأخبار بما يتلاءم والايديولوجية التوراتية . إضافة إلى استخدامهم لمادة قصصية شعبية شائعة في المنطقة تروي أحداثاً معرقة في القِدم ويحتلط فيها التاريخ بالخرافة ، وصاغوا من كل ذلك رواية مضطربة مليئة بالفجوات والثغرات . كما أريد أن ألفت النظر أيضاً إلى مسألة تتعلق بأهداف هدا الكتاب ، فنحن لسنا معنيين حقاً بموطن التوراة ولا نعير كبير اهتمام للتاريخ اليهودي ، ولكننا معنيون بالدرجة الأولى بترسيخ أصول منهج علمي في دراسة تاريخ هذه المنطقة . من هنا ينبغي أن يفهم هذا الكتاب باعتباره أطروحة في الدفاع عن المنهج ، لا وقوفاً إلى جانب هذه الفكرة أو تلك .

فـراس الســواح

١٩٩٧ / ١ / ١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدخل:
أطروحات كمال الصليبي ونتائجها

لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، يقول المؤلف. فبينما كان يبحث عن أسماء الأماكن ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، فوجيء، بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠ كيلومتر وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كيلومتر: تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز. (انظر خريطة الصليبي رقم ١ في آخر كتابنا). وكان أول ما تنبه إليه أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبين له أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهنه، أو جلها، مازال موجوداً فيها، وأن الخريطة التي نستخلصها من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء من ناحية أسماء الأماكن أو من ناحية القرائن أو الاحداثيات، تتطابق تماماً مع خريطة هذه الأرض. وهي، كما يرى، حقيقة ذات أهمية أولية، نظراً لأنه لم يثبت بعد، في رأيه، تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع الخريطة التي اعتبرت حتى الآن أنها كانت بلاد التوراة. وبما أنه لم يستطع العثور على مثل هذا التجمع لاسماء الأمكنة التوراتية، في صيغتها الأصلية عادة، في أي جزء آخر من الشرق القديم، فقد قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه: فاليهودية لم تولد في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار بني اسرائيل كما روي في التوراة، كان هناك، في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر*.

وبما أن التوراة عبارة عن نصوص بالغة القدم كتبت أصلاً بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط، ولأن لغة هذه النصوص قد خرجت عن إطار الاستعمال العام من زمن يعود إلى ما قبل القرن السادس والخامس قبل الميلاد، أي إلى ما بعد استكمال نصوص التوراة، فانه لا يمكن لأحد ان يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب الذي تكلمها. وهذا بغض النظر عن مسائل أخرى كثيرة تتعلق بالتهجئة والصرف والنحو. ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يتوجب على الباحث إما أن يتبع تقليد العبرية المتأخرة، أو أن يسعى إلى الارشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حية مثل العربية والسريانية التي هي صيغة مستمرة من الآرامية القديمة. وعلى العموم فان من الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها لغة مجهولة عملياً، ويجب تفكيك رموزها من جديد بدلاً من معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار فيما عدا بعض الغوامض.

إلا أنه بفضل الأمانة العلمية الدقيقة التي تحلى بها «المسّوريون» وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية فيما بين القرن السادس والتاسع الميلاديين، فان النص المكتوب بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل الينا من القدم دون أن يمس تقريباً، رغم أن ادخال الحركات والضوابط عليه، بصورة اعتباطية في احيان كثيرة، قد غير اعراب الجمل وحور المعاني، وأدخل على النص التوراتي تحريفات

---

* ـ نحاول في هذا العرض الموجز والوافي لنظرية الصليبي اعتماد كلام المؤلف بحرفيته ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وهو مأخوذ من مقدمته ومن الفصلين الأول والثاني من الترجمة العربية الصادرة عن مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت ١٩٨٥. وقد أعدنا ترتيب التسلسل في أفكار المؤلف بطريقة رأيناها أفضل لاعطاء صورة واضحة ووافية عن نظريته في هذا الحيز الضيق، دون أن تغفل، على ما نعتقد، فكرة أساسية واحدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هي أضخم بكثير مما يتصوره علماء التوراة. ذلك أن عمل الماسوريين قد بدأ بعد مضي ألف سنة على الوقت الذي كانت فيه العبرية لغة حية ومتداولة. ومن هنا وصلتنا أسماء الأمكنة التوراتية بنصها العبري غير المصوت دون أن يطالها تحريف أو تبديل. أما اسماء الأماكن في غرب شبه الجزيرة العربية فقد شهدت بعض التغيير في اطاري علم الأصوات وعلم التشكل الكلامي بعد حوالي ثلاثة آلاف سنة فصلت بين الصيغ التوراتية لهذه الأسماء ومثائلها القائمة اليوم. وفي اطار التغييرات اللغوية التاريخية تبدو هذه الفترة الزمنية طويلة جداً، ولابد أنها استوعبت أكثر من تغير لغوي واحد جرى في بلاد الشرق القديم. ولكن المدهش فعلاً هو أن هذه الأسماء بقيت، في أكثرها، قابلة للتمييز الفوري في زيها العربي الراهن.

ولا يمكن معرفة الكيفية التي كانت تلفظ بها أسماء الاماكن التوراتية. وإذا أراد الباحث أن يقارن بين الصيغتين المكتوبتين لهذه الأسماء، بالعبرية التوراتية وبالعربية الحديثة، فعليه أن يأخذ في الاعتبار طبيعة الأبجدية السامية. هذه الأبجدية كانت تقتصر في الأصل على ٢٢ حرفاً ساكناً، بما فيها الوقفه الحنجريه، أي الهمزة، التي تعتبر في اللغات السامية حرفاً ساكناً، والحرفين شبه الصوتيين الواو والياء. ولكن النطق بهذه اللغات كان يعتمد حروفاً أكثر من هذه الحروف منذ البداية. وفي العبرية المتأخرة أضيف حرف ساكن جديد إلى الأبجدية الأصلية بتنقيط الحرف المسمى سين، فصار يمكن تصويته كسين أو كشين. والعربية التي استعارت من شقيقاتها الساميات كتابتها استخدمت هي أيضاً الأبجدية ذات الأحرف الـ ٢٢ الأصلية في البداية، ومع مرور الزمن، أدخلت عليها لا أقل من ستة أحرف جديدة باضافة النقط إلى ستة أحرف كانت موجودة في الأصل. ولا شك أن الأمر نفسه كان ينطبق على العبرية في زمانها حيث عرفت لغة النطق عدة أحرف ساكنة لم تكتب بأحرف مستقلة إلا في وقت متأخر. ولا بد أن الناطقين بالعبرية، شأنهم شأن الناطقين بالعربية، كانوا يعون العلاقة بين أحرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النطق وأحـرف الكتـابة هذه عن طريق الحدس. ولا يستبعد إطلاقاً أن يكون المتكلمـون بالعـبـرية في القدم قد تلفظوا بأحرف ساكنة لم يكتبوها، مثل الذال والضـاد والظـاء. وبنـاء على هذا فلابـد أن اللفـظ العـبري القـديم لأسـماء الأماكن التوراتية في غرب شبه الجزيرة العربية، كان أقرب إلى اللفظ العربي الحالي. والدراسة الميدانية للطريقة التي تلفظ بها هذه الأسماء اليوم قد تساعد كثيراً على فهم طبيعة الفونولوجيا العبرية القديمة التي لم يكشف سرها بعد.

ولكي يستطيـع البـاحث أن يتعـرف على الأسـماء التوراتية القديمة في صيغتها العربية الحديثة، لا بد له من تتبع عملية القلب والاستبدال في الجذر المشـترك بين اللغتـين العبرية والعربية، وهي ظاهرة مشهودة كثيراً في اللغات السـاميـة (زوج ـ جوز)، وكـذلـك عمليـة تحولات الأحـرف. فالأبجـديتان تشتركان في ٢٢ حرفاً، وتنفرد العربية بستة أحرف هي: ث، خ، ذ، ض، ظ، غ. وهناك جذور كثيرة مشتركة بين العبرية التوراتية والعربية، وذلك دون تغير في الأحرف في بعض الأحيان، ومع تحول في الأحرف في أحيان أخرى. والتحولات في الأحرف التي يقرها علماء اللغات السامية بين اللغتين هي الآتية:

ء ← و، ي
ج ← غ، ق
د ← ذ، ز
وأحياناً ض، ظ
و ← ء، ي
ز ← ذ، ص
ض، ظ
ح ← خ
ط ← ت
ي ← ء، و

ك ← خ، ق
م (خصوصاً في لاحقة جمع المذكر).
← ن (خصوصاً في لاحقة جمع المذكر)
ن ← م
ع ← غ
ف ← ث
ص ← س، ض، ز، ظ
ق ← ج، غ، ك
ش ← س، ث
س ← ش
ت ← ث، ط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلاحظ من المقابلة بين أسماء الأماكن التوراتية، وتلك الموجودة إلى اليوم في غرب شبه الجزيرة العربية أن معظم هذه الأسماء قد تعرب في اللفظ وليس في المعنى. ولذلك فان التغيير في معظم هذه الأسماء قد تم اما عن طريق قلب الأحرف، أوعن طريق تغيير الأحرف شبه الصوتية (ء، و، ي) دون الأحرف الصحيحة. ولم يتعرب من هذه الأحرف في أكثر الأحيان إلا الأحرف العبرية التي تقابل الأحرف العربية الإضافية (ث، خ، ذ، ض، ظ، غ)، والميم عندما تكون لاحقة المذكر العبرية، فتنقلب نوناً في العربية. ومن ناحية أخرى هناك أسماء أماكن عبرية ما زالت موجودة اليوم بشكل مترجم لا بشكل معرب، مثل «شعلبيم» والتي هي اليوم «الثعالب» في صفة جمع التكسير العربي بدلاً من جمع المذكر في الاسم التوراتي. ويلاحظ أيضاً أن حرف اللام في الأماكن التوراتية، مهما كان موضعه في التركيب، كثيراً ما ينقلب إلى «أل» التعريف في الاسم المعرب، فالاسم «جلعد» يصبح «الجعد» و«لمعله» يصبح «المعلاة». أضف أن اداة التعريف العبرية وهي الهاء تنقلب إلى أداة التعريف العربية في معظم الأحيان. وهناك أيضاً اسماء الأماكن التوراتية على وزن «يفعل» و«تفعل» التي تتحول إلى العربية على وزن «فعل» و«فعله». فالاسم التوراتي «يقطن» يصبح في شكله الحالي «قطن». والاسم «تعنك» يصبح «عنقه».

والمقابلة بين الألفاظ في اللغات السامية تكون بمقابلة التركيب الاساسي لهذه الألفاظ بين لغة وأخرى دون النظر إلى اللواحق وأحرف العلة عندما تكون هذه معتمدة فقط للتصويت. فاسم المكان التوراتي «شمرون» هو في الأصل «شمرن» بدون تصويت، يقابله في العربية اسم المكان «شمران» الذي هو أيضاً «شمرن». و«شبعه» التوراتية هي في الأساس «شبع» يقابلها في العربية اسم «الشباعه» الذي هو أيضاً «شبع».

اعتماداً على هذا المنهج في مقابلة الأسماء، عثر المؤلف على كامل الأرض التوراتية في غرب العربية. ولكي نعطي فكرة عن هذه الأرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التوراتية التي وجدها كمال الصليبي، لا بد من ايراد بعض الأمثلة عن أسماء الأماكن التوراتية التي عثر عليها هناك باسمائها كما يقول، لنوضح بشكل تطبيقي كيفية استخدامه لمنهجه. وسنقوم فيما يلي بتقسيم الأمثلة العشوائية التي أخذناها من الكتاب إلى زمرتين. في الأولى أمثلة عن مقابلات تؤدي إلى نتيجة فيها نظر، وفي الثانية أمثلة عن مقابلات جاءت نتيجة عمليات معقدة من القلب والاستبدال لا يمكن تصور حصولها إلا نظرياً.

الزمرة الأولى

جرار «جرر»	القرارة (ص ١٠١).
كنعان «كنعن»	القناع (ص ١٠٢).
غزه «غز»	آل عزه (ص ١٠٠).
صيدون «صيدن»	آل زيدان (ص ٩٩).
صور «صر»	زور الوادعه (ص ٣٤).
جبيل «جبل»	القابل (ص ٣٥)
قادش «قدش»	عين قديس (ص ٩٣).
سدوم «سدم»	دامس (ص ٩٩).
عموره «عمره»	الغمر (ص ٩٩)
مجدو «مجد»	مقدي (ص ١١٩).
يافو «يف»	وفيه (ص ١٢٠).

الزمرة الثانية

نتينيم «نتين»	طناطن (ص ١٦١).
طباعوت «طبعوت»	العثابيات (ص ١٦١).
برقوس «برقس»	الكرباس (ص ١٦٤)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هسوفرت «هـ سفرت»	رصفه (ص ١٦٥).
أدونيقام «ء د ـ نيقم»	القائم (ص ١٦٨).
فرعوش «فرعش»	الجعافر (ص ١٧٠).
مغبيش «مجبيش»	مشاجيب (ص ١٧٢).
زكاي «زكي»	الضيق (ص ١٧٣).
نفتوحيم «نفتحيم»	المفاتيح (٢٤٩).
فتر وسيم «فترسيم»	الشرفات (ص ٢٥٠).
كفتوريم «كفتريم»	الرفقات (ص ٢٥٠).
عقرون «عقرون»	الجرعان (ص ٢٥٣).
أورشليم «اورشليم»	آل شريم (ص ١٨٣).

إضافة إلى هاتين الزمرتين هناك زمرة ثالثة لا تحتوي على الكثير من الكلمات. فعندما لا يجد المؤلف موقعاً مقابلاً للإسم التوراتي، يعمد إلى الجمع بين اسمين لموقعين متجاورين. فكركميش، الموقع المعروف تاريخياً على الفرات في الشمال السوري يجده في القريتين المتجاورتين «القر» و «القماشه» في منطقة الطائف (ص ٣٧)، وكأحد البدائل المقترحة لأورشليم يضع القريتين المتجاورتين «أروي» و «آل سلام» قرب النماص (ص ١٨٣).

وإذا كان من الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها العبرية لغة مجهولة يجب تفكيك رموزها من جديد، كما يقول المؤلف، فانه ينظر إلى النص التوراتي بأحرفه الساكنة ويقرؤه بعيداً عن التصويت التقليدي، مخالفاً في قراءته الخاصة للأمثلة التي يقدمها، ليس فقط النص المسّوري العبري المحرك، وهو النص العبري الكامل الوحيد، بل كل الترجمات التي وضعت للكتاب منذ الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية التي تمت أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. ثم يضيف إلى ذلك وجهات نظر خاصة جداً في نحو وصرف اللغة العبرية لم يقل بها أحد من علماء التوراة قديمهم وحديثهم، ويعمد إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استنباط معان جديدة لبعض الكلمات العبرية استناداً إلى اللغة العربية أو الآرامية. وسنورد مثالاً على ذلك من قراءته لقصة ابراهيم وملكي صادق في سفر التكوين: ١٤ التي عالجها في فصله الثاني عشر.

هل كان هناك حقاً، في أي مكان، ملك ـ كاهن معاصر لابراهيم يدعى «ملكي صادق»؟ هكذا يتساءل المؤلف في مطلع فصله الموسوم: «ملكي صادق وآلهة السراة» ثم يتابع: هذا ما يعتقده اليهود والمسيحيون بناءً على قراءتهم المغلوطة للتوراة، سواء في نصها المسّوري المحرك، أو في الترجمات القديمة والحديثة. والواقع ان التوراة العبرية، بنصها الأصلي غير المحرك، لا تذكر ملكاً ـ كاهناً بهذا الاسم. صحيح أنه قد وردت في نصين توراتيين بنيةٌ من الأحرف الساكنة التي تقرأ «ملكي صدق» (التكوين ١٤: ١٨ والمزامير ١١٠: ٤)، لكن هذه البنية في كلتا الحالتين، ليست اسماً لشخص. والواقع هو أن «ملكي صدق» في التكوين ١٤: ١٨ ليست اسم علم بل تعبير اصطلاحي يفيد معنى الطعام. والنص الكامل في التكوين ١٤: ١٨ يقرأ بأحرفه الساكنة كما يلي: «و ـ ملكي صدق ملك شلم هو صيء لحم و ـ يين و ـ هو ـ كهن ل ـ ء ل عليون». وقد جرى تصويت هذا النص تقليدياً لكي يؤدي المعنى التالي: «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي».

لكن «ملكي» في هذا الاطار، يتابع المؤلف، ليست لفظة «ملك» بمعنى «الملِك» مضافة إلى ضمير المتكلم، بل هي جمع «ملك» صيغة تقليص للفظة «ملوك» بمعنى «لقمة» أو «ملء الفم»، وهي اشتقاق من جذر فعلي وارد في العربية دون العبرية هو «ء لك» (ألَك، أي علك أو مضغ) ومن مشتقات هذا الجذر بالعربية* عبارة «ألوك صدق» أي ما يؤكل وهو الطعام.

---

* ـ هكذا وردت في الترجمة العربية للكتاب. ونعتقد بوقوع خطأ مطبعي لأن المقصود هنا «العبرية» وليس «العربية».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا يصبح المعنى الصحيح لنص التكوين ١٤ : ١٨ كما يلي «وملك شلم أخرج ألوك صدق (أي طعاماً)، خبزاً وخمراً وكان كاهناً لـ ء ل عليون».

هذا الإكتشاف المذهل، كما يصفه المؤلف، والذي جاء نتيجة مقابلة الأسماء، قد قاده إلى تقديم الأطروحة الرئيسية لكتابه. ففي دراسته تنقلب الأمور رأساً على عقب. وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة ومناقشة صحتها التاريخية، فانه يأخذ تاريخيتها كمسلمة ويناقش جغرافيتها. فمن بين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بني اسرائيل كانوا وحدهم المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً. وعليه فليس هناك أدنى شك بأن اسلاف الاسرائيليين كانوا ذات يوم قوماً قبلياً وقع في الأسر وأجبر على العمل والسخرة في مكان يسمى «مصريم»، لم يكن بالضرورة مصر، وأنهم خرجوا من هناك برعاية قائد يسمى موسى نظمهم في مجتمع ديني وأعطاهم الشريعة، وأنهم عبروا نقطة معينة تسمى «هـ - يردن» ليست بالضرورة نهر الأردن ليستقروا في أرض كانت لهم عليها أخيراً السيطرة السياسية، وهي ليست من حيث المبدأ فلسطين. وبعد عصر القضاة والمملكة الموحدة تحت راية شاول فداود فسليمان، تابع التاريخ الاسرائيلي مساره كما ذكرت التوراة العبرية أنه فعل.

ولكن افتراض أن كل هذا التاريخ حصل في فلسطين، ودراسة النصوص التوراتية على هذا الأساس، سيؤدي إلى الابقاء على بحر من الأسئلة بلا جواب. وإذا نقلت جغرافيا التوراة من فلسطين إلى غرب شبه الجزيرة العربية، لا تبقى هناك أية صعوبة. وتصبح الصورة التاريخية العامة للتوراة العبرية، التي هي الوحيدة التي تروي القصة الكاملة لأحد شعوب الشرق الأدنى القديم، مفتاح اللغز لكل الأحاجي الغامضة لتاريخ الشرق القديم، بدلاً من أن تكون هي نفسها الأحجية، وهي بعيدة كل البعد عن كونها ذلك.

أما لماذا كانت نصوص التوراة بمثابة اللغز في تاريخ الشرق القديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيرجع، كما يرى المؤلف، إلى ان الدراسات والأبحاث الضخمة التي انتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال المائة سنة الأخيرة، تلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة. ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فان جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات، والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وان بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأرخت، في حين أنه لم يعثر في أي مكان كان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة إلى أي حد بالتاريخ التوراتي. واكثر من ذلك، فان التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة، وليس بين هذه أكثر من قلة قليلة تماثلت لغوياً مع أسماء أمكنة في فلسطين. وحتى في هذه الحالة فان الاحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية.

ومع أنه قد جرى التحقيق في كامل ميدان التاريخ القديم للشرق الأدنى بعمق، وبالعلاقة مع دراسة التوراة العبرية، فان هذا التاريخ، في الموقع الذي هو فيه حالياً، ما زال مليئاً بألغاز عدم اليقين، مثله مثل علم التوراة الحديث. وسجلات مصر والعراق القديمة، التي قرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتي أخذت تلميحاتها الطبوغرافية تقليدياً على أنها تتعلق بفلسطين والشام ومصر والعراق، أجبرت على اعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين. والحملات المصرية والآشورية التي فهمت على أنها كانت موجهة ضد فلسطين وبلاد الشام، كانت في الواقع موجهة نحو غرب شبه الجزيرة العربية. وأخبار هذه الحملات إذا قرئت في نصوصها الأصلية، لا من خلال الترجمات التي وضعت لها حتى الآن، سوف تساعد في كشف حقيقة مجريات الأحداث في الشرق القديم.

كل هذا لا يعني في رأي المؤلف، أن اليهود لم يكن لهم أي وجود في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلسطين خارج غرب شبه الجزيرة العربية في أيام التوراة، بل جل ما يعني هو أن التوراة هي بالدرجة الأولى سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية في زمن بني اسرائيل. وفي غياب السجلات الضرورية لا بد من التكهن بكيفية استقرار اليهودية في وقت مبكر في فلسطين. وهنا يقول الصليبي أنه سيغامر بتفسير يقدمه.

فأولاً: يرى الصليبي أن بني اسرائيل قد طوروا في منطقة عسير منذ مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ديانة قادرة على اجتذاب المهتدين إليها من خارج موقعها الأصلي، خصوصاً وأنها كانت ديانة ذات كتاب طورها أناس قادرون على القراءة والكتابة. والمرجح أن الانتشار المبكر لليهودية من موطنها الأصلي إلى فلسطين وبقاع أخرى في الشمال اتبع مسار القوافل التجارية، لأن منطقة عسير كانت نقطة تقاطع الخطوط التجارية الرئيسية في ذلك الزمن.

ثانياً: بسبب مواردها الطبيعية وموقعها التجاري كان غرب شبه الجزيرة العربية محطاً لأنظار الفاتحين. وبعد كل هجوم شامل من ناحية مصر أو بلاد الرافدين، كانت موجات جديدة من المهاجرين تتجه نحو جنوب بلاد الشام.

ثالثاً: كان للحروب التي نشبت بين ملوك «يهوذا» وملوك «اسرائيل» والتي لم تتوقف منذ انهيار مملكة سليمان الموحدة، أكبر الأثر في دفع الهجرات نحو فلسطين. كما كانت هذه الهجرات تتعزز بالغزوات الخارجية.

رابعاً: في عام ٧٢١ ق.م قام الملك الآشوري صارغون الثاني بتصفية مملكة اسرائيل واستاق الأعيان من سكانها أسرى إلى بلاد فارس. ثم في العام ٥٨٦ ق.م قضى الملك البابلي نبوخذ نصر على مملكة يهوذا واقتاد الألوف من رعاياها إلى بابل. ويبدو أن وجوداً يهودياً، قوياً كان قد قام خلال هذه المرحلة في فلسطين، فلما ساءت أحوال الاسرائيليين في غرب شبه الجزيرة العربية صار اليهود هناك يتوسمون الخير في أرض الاستيطان الجديدة.

خامساً: بعد انهيار الدولة البابلية الجديدة على يد الفرس الذين كانوا يميلون إلى مصادقة اليهود، سمحوا لهم بالعودة فرجع منهم حوالي ٤٠ ألفاً مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عائلاتهم إلى غرب شبه الجزيرة العربية وفي نيتهم اعادة بناء مجتمعهم هناك. غير أن الوضع الدولي الجديد كان قد غير مسالك التجارة من الجنوب إلى الشمال مما أدى فجأة بشبه الجزيرة العربية وشبكاتها التجارية إلى الركود الاقتصادي.

سادساً: عندما عاد المنفيون إلى بلادهم وجدوا كل ما حولهم خراباً وفقراً، ولم تكن الأوضاع العامة في شبه الجزيرة العربية تسمح لهم باعادة بناء مجتمع متوازن اقتصادياً واجتماعياً. ويبدو أنهم أخفقوا في اعادة الروح إلى دولة ماتت وعفا عليها الزمن. وأما ما تلا ذلك فلا يمكن اكتشافه إلا بالتكهن، لأن الرواية التاريخية للتوراة تتلاشى وتنتهي عند هذه النقطة وينتهي معها تاريخ بني اسرائيل الذين زالوا من الوجود كشعب. أما اليهودية كدين فاستمرت. ويحتمل أن يكون معظم العائدين في المرحلة الأخمينية قد رجعوا إلى بلاد فارس والعراق. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً وحتى تدمير الرومان لأورشليم الفلسطينية عام ٧٠ ميلادية تركز التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين. وقبل أن يمر وقت طويل كانت أصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت غياهب النسيان.

سابعاً: منذ بدايات استيطانهم في فلسطين قادمين من غرب شبه الجزيرة العربية، أطلق اليهود على مستوطناتهم التي أحدثوها وعلى مستوطنات بائدة أحيوها أسماء مدنهم القديمة في موطنهم الأصلي. وفعلت مثلهم الشعوب التي جاورتهم هناك والتي هاجرت أيضاً إلى فلسطين وبلاد الشام مثل الفلستيين والكنعانيين والآراميين والموآبيين.

ثامناً: من العوامل التي ساعدت على طمس ذكرى الماضي اليهودي، ما يتعلق بالتطورات السياسية في غرب شبه الجزيرة العربية وفي فلسطين بعد انقراض بني اسرائيل. ففي غرب شبه الجزيرة العربية، أدى الضعف التدريجي الذي أصاب الامبراطورية الأخمينية إلى نشوء كيانات سياسية جديدة، مثل دولة معين التي قامت في المنطقة ذاتها التي شهدت قبلاً قيام مملكة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسرائيليين. وقد تشتت يهود شبه الجزيرة العربية بين هذه الكيانات المحلية. أمـا في فلسطـين فقـد رسمت فتـوحـات الاسكنـدر عام ٣٣٠ ق.م نهايـة الامـبراطـورية الفارسية، وبعد موته واقامة المملكة السلوقية في سورية ومملكة البطالسة في مصر، خضعت فلسطين للسلوقيين بعد نزاع عليها مع البطالسة. وخـلال القـرن الثـاني قبـل الميـلاد، اغتنم اليهـود فرصة استمرار النزاع على فلسطـين بين السلوقيـين والبطالسة فقاموا بثورة ناجحة حوالي سنة ١٤٠ ق م، وتمكن قادة هذه الثـورة من الحشمـونيـين الكهنـة من السيطـرة على أورشليم وتوسيع رقعة الأراضي اليهودية في فلسطين. وكان يهود العالم قد اعتادوا على النظـر إلى هيكـل أورشليم الفلسطينيـة على أنـه قدسهم الـرئيسي، على ما يبـدو، فاعتـبر الحشمـونيـون أنفسهم الـورثـة الشـرعيـين لاسرائيل القديمة واستمرت مملكتهم حتى مجيء الرومان الذين أنهوا استقلالهم.

وبغض النظر عما كانه الاسم الأصلي لأورشليم الفلسطينية في الحقيقة، فمن المؤكد انه قد تم الاعتراف بها كأورشليم داود وسليمان الأصلية، وذلك في أيام الحشمونيين، إن لم يكن أبكر. وفي ذلك الوقت كان قد تم أيضاً اعتبار فلسطـين بأنهـا هي الأرض الأصليـة لشعب اسرائيل البائد وللتوراة العبرية. وكان المسرح الجغرافي للروايات التوراتية قد أصبح يفهم على أنه يضم بشكل رئيسي بلاد الشرق الأدنى الشمالية، وليس غرب شبه الجزيرة العربية.

نتائج اطروحات الصليبي:

بعـد هذا العـرض المـوجـز والـوافي للأطـروحات الرئيسية لنظرية كمال الصليبي، نريد أن نبسط عدداً من النتائج الخطيرة التي توصلنا اليها النظرية. ونحن معنيـون بهذه النتـائـج وحـريصون على مناقشتها أكثر من حرصنا على مناقشة مسألة أصل التوراة وتاريخ قدماء الاسرائيليين. وإذا كان لحوارنا المقبل عبر صفحات هذا الكتاب أن يتركز حول مسرح الحدث التوراتي، فذلك من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجل المسألة الرئيسية التي أثارت نظرية الصليبي الشكوك حولها، وأعني تاريخ الشرق الأدنى القديم، برمته، وخصوصاً خلال النصف الثاني من الألف الثاني، وكامل الألف الأول قبل الميلاد.

أولاً: إن النقاش الدائر داخل حلقات علماء التوارة والتاريخ والآثار حول مصادقية التوراة ككتاب تاريخي، يمكن الركون إلى معلوماته المتعلقة بأحداث الشرق القديم، وهو نقاش لم يحسم بعد، قد حسمه كمال الصليبي لصالح كتاب التوراة الذي اعتبره كتاباً تاريخياً موثوقاً في جميع تفاصيله. فالاسرائيليون من بين جميع شعوب الشرق القديم كانوا وحدهم المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره (ص ٥٣). ولم يأت هذا الحسم لصالح المسائل التي صمتت عنها وثائق الشرق القديم وأوردها كتاب التوراة، بل تعدى ذلك إلى التشكيك في مصداقية كل وثائق الشرق القديم لصالح النصوص التاريخية التوراتية.

ثانياً: تضع نظرية كمال الصليبي تاريخ منطقة الشرق القديم على أرضية مهتزة، لأنه يرى أن السجلات التاريخية للمنطقة قد قرئت حتى الآن بشكل مغلوط، وأجبرت على اعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين (ص ٥١ ـ ٥٢). وبذلك يسقط المؤلف من اعتباره كل الجهود المضنية لعلماء اللغات القديمة، التي بذلت خلال أكثر من قرن ونصف بكل دقة ودأب المناهج العلمية الحديثة، ويضرب صفحاً عن شبكة المعلومات المتماسكة التي وصل اليها علم التاريخ استناداً إلى وثائق الشرق القديم المكتوبة. وبذلك يخرج كتاب التوراة من دائرة الشكوك لتدخل إليها ألواح الشرق القديم.

ثالثاً: أسقط المؤلف من حسابه كل نتائج علم الآثار في فلسطين وبلاد الشام، وكل شبكة المعلومات المتماسكة والمتقاطعة مع شبكة المعلومات التاريخية، التي رسمتها بدقة أجيال متعاقبة من علماء الآثار خلال قرن ونصف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القـرن، وذلـك لضـالح معلوماته المتحصلة عن طريق مقابلة أسماء الأماكن. وهو يرى «أن الدراسة اللغوية لأسماء الأماكن هي ضرب من علم الآثار» (ص ١٨) بل تتفـوق عليـه أحيـانـاً [«لأن الاكتشافات الأثرية اكتشافات خرساء مالم تتضمن كتـابـات منقـوشه، في حين أن أسماء الأماكن ناطقة، لا تخبرنا بما هي فحسب بل تخبرنـا أيضـاً بكيفيـة نطقهـا الفعلي وبمعناها وباللغة أو نوع اللغة التي انبثقت عنهـا. وفي غيـاب الكتـابـات والنقوش تبقى الاكتشافات الأثرية صعبـة التفسـير، وإلى درجـة تجعـل الجـدل بين علماء الآثـار حول المغـزى التـاريخي لاكتشـافـات معينـة كثيراً مايتدنى إلى مستوى الضغائن الشخصية»] (ص ٦٠). وهكـذا تتحـول كل انتصارات علم الآثار الحديث إلى معلومات متناقضة، عند المؤلف، تهبط إلى مستوى الضغائن الشخصية.

رابعـاً: نادراً ما استخـدم المؤلف تعبـير «علماء تاريخ» أو «علماء آثار»، وغـالبـاً ما استخـدم تعبير «الباحثين التوراتيين» أو «علماء التوراة» وكأن تاريخ الشـرق القـديم قد كتبـه الباحثون التوراتيون، وآثاره قد نبشها علماء التوراة. وهـذه صورة غير مطـابقـة للواقـع تماماً، ففي مجال تاريخ وآثار الشرق القديم اليـوم، هنـاك تصنيف دقيق جداً يفـرق بين البـاحثين الموضوعيين ونتائجهم، وعلماء التوراة والمؤرخين والآثاريين الدائرين في فلكهم. وانه لمن الظلم لنتائج علمي التاريخ والآثار في حقل الشرق القديم أن تدمغ بهذا الشكل التعسفي.

خامساً: يرسم كتاب الصليبي خارطة سياسية وبشرية فريدة من نوعها لبـلاد الشـام وغرب العربية. فبعد أن نقل مسرح الحدث التوراتي إلى غرب العربية، كان عليه أن ينقل معه كل مواطن الشعوب التي تشابكت أخبارها في الرواية التوراتية. وبما أن هذه الشعوب موجودة تاريخياً وآثارياً باسمائها ومواطنها في منطقـة مصـر والهـلال الخصيب، فقـد عمـل على ايجـاد مثـائلها في غرب العـربيـة. فالكنعـانيـون موجـودون في فلسطـين والساحل السوري وأيضاً في عسـير وغـرب العـربيـة، ومـدنهم تحمل الأسماء ذاتها هنا وهناك. والآراميون موجودون في بلاد الشام الداخلية وأيضاً في غرب العربية ومدنهم تحمل الأسماء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذاتها، وكذلك الفلستيون بمدنهم الخمس الرئيسية القائمة على الجهة البحرية من فلسطين، وفي أماكن متفرقة من غرب العربية، ومثلهم الأمورين والموآبيون والعمونيون وغيرهم. حتى لكأنها مرآة عاكسة وضعت عند خطٍ ما في شمالي شبه الجزيرة العربية تلقي بصورة بلاد الشام نحو غرب العربية، لتخلق هناك طيفاً لا نظنه إلا وهماً لا سند له.

سادساً: غير أن تلك الصورة المعكوسة تغدو هي الأصل وفق نظرية المؤلف، ونصوص الشرق القديم يجب اعادة دراستها من جديد في نصوصها الأصلية، لتظهر بما لا يدع مجالاً للشك بأنها كانت سجلات لوقائع جرت في غرب العربية لا في بلاد الشام. كل ذلك يخلق معضلة تاريخية لم يحدد المؤلف أبعادها ولم يعن بتقديم مفتاح واحد لحلها: فإذا كانت سجلات مصر وبلاد الرافدين (خصوصاً آشور) معنية بتاريخ غرب العربية، فأين الوثائق المعنية ببلاد الشام وهي الجار الأقرب سواء بالنسبة لمصر أم لآشور؟ وأين تاريخ بلاد الشام في أخبار الوثائق القديمة التي تتقاطع فوقها دون أن تحفل بها؟ ان النتيجة التي لم ينتبه اليها المؤلف، لمثل هذا الطرح، هي تغييب تاريخ بلاد الشام وابراز تاريخ بني اسرائيل.

هذه النتائج هي موضوع حوارنا مع كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» عبر الصفحات المقبلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حول المنهج

سوف يعتمد منهجنا في هذا الكتاب، أساساً، على مناقشة النتائج لا على الدخول في جدل عقيم حول الوسائل. ففيما يتعلق بكل مسألة من المسائل الرئيسية التي أثارها كمال الصليبي، سوف نفترض الصحة في منهجه ووسائله، حتى نتوصل إلى نتائج معاكسة نستمدها من البينة التاريخية والبينة الأركيولوجية والبينة النصية المستمدة من كتاب التوراة ذاته ومن مواضع غير مختلف على قراءتها. أي ان هذا الكتاب سيكون بمثابة الفصل المفقود في كتاب الصليبي، الذي يعني باختبار النتائج المتحصلة وفق منهج مقابلة أسماء المواقع، ومقاطعتها مع النتائج المتحصلة باستخدام منهج مغاير.

ففي حالة بارزة هي حالة مدينة «صور» الوارد ذكرها مراراً في التوراة، يصل الصليبي إلى نتيجة مفادها أن صور التوراتية ليست هي «صور» الفينيقية الواقعة على الساحل السوري، بل هي الواحة المسماة اليوم «زور» أو «زور الوادعه» في منطقة نجران بمحاذاة بلاد «يام» المجاورة للصحراء العربية الداخلية، وسفن صور التي تروي عنها التوراة كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة لا سفن تمخر البحر (ص ٣٤ ـ ٣٥). إن امتحاننا لهذه المسألة لن يبتدىء بمجادلة المؤلف في نوعية القلب والاستبدال التي طرأت على الاسم التوراتي ولا في الطريقة التي قرأ بها كلمة «سفن» بالعبرية، وما إلى ذلك من وسائل منهجه، بل بالتعامل مع النتيجة مباشرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا كانت وثائق وادي الرافدين التاريخية هي سجلات لأحداث جرت في غرب العربية، كما يؤكد المؤلف، فاننا واجدون فيها ولا شك ما يؤيد صحة نتائجه حول مدينة صور التوراتية. وهنا نبدأ في اجراء التقاطع الأول للنتيجة مع البينات التاريخية، فنأخذ في التفتيش عن صور في وثائق وادي الرافدين، فإذا تبين لنا أن صور، أينما وردت في تلك الوثائق، هي مدينة بحرية وأنها تتألف من قسمين واحد يقع على جزيرة قرب الشاطيء والآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الأول الذي يشير إلى «صور» المدينة الفينيقية على الساحل السوري لا الى «زور» الصحراوية في غرب العربية. ثم ننتقل بعد ذلك إلى اجراء التقاطع الآثاري، فإذا كانت الاكتشافات الأركيولوجية في موقع صور الفينيقية تؤكد ان المدينة القديمة كانت مؤلفة من قسمين واحد في البحر وآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الثاني. أخيراً يبقى أن نجد في نصوص التوراة ما يؤكد هذا أوذاك. فإذا قرأنا في سفر حزقيال: ٢٦ عن صور ما يلي: [كيف بدت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم]، وفي سفر زكريا: ٩ [.. وقد بنت صور لنفسها حصناً وكومت الفضة كالتراب والذهب كطين الأسواق. هوذا الرب يمتلكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار]، ثم اتفقت معظم المواضع التي ورد فيها ذكر صور مع ما ورد في سفري حزقيال وزكريا من وصف لمدينة بحرية، نكون قد حصلنا على الدليل الثالث وتوصلنا إلى نتيجة مدعمة علمياً تناقض نتيجة كمال الصليبي، التي تبدو عقب ذلك معلقة في الفراغ وفي حاجة إلى دفوع جديدة يقدمها صاحب النظرية، خارج منهجه في مقارنة أسماء المواقع والأمكنة.

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب: واحد يعنى بتقديم البينة التاريخية وآخر بتقديم البينة الآثارية (الأركيولوجية) وثالث بتقديم البينة النصية. ولغرض تعميم الفائدة على جميع شرائح القراء، فقد حاولنا أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نصوغ حوارنا بطريقة نعرض من خلالها، بشكل سلس ومتتابع، إلى المفاصل الرئيسية في تاريخ الشرق القديم وبعضاً من أهم معضلاته واشكالاته. وغامرنا بكل حذر علمي في ابداء وجهات نظر شخصية نبقيها مفتوحة للمناقشة والتعديل، لما قد نتعلمه من الزملاء الباحثين السباقين في هذا الميدان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

البيئة التاريخية
وشائق الشرق القديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل حملة نابليون على مصر، كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم مستمدة من المصادر الاغريقية والرومانية (المصادر الكلاسيكية)، إضافة إلى ما تضمنه كتاب التوراة من أخبار متفرقة. ولم تكن هذه المصادر موثوقة بما فيه الكفاية، لأن تدوينها لم يعتمد المنهج العلمي في التدقيق والتمحيص وتقصي الحقائق، كما هو شأن علم التاريخ الحديث، بل اعتمد الأخبار المنقولة والقصص المتداولة والمشاهدات الشخصية العابرة، وتداخلت فيها الأهواء الشخصية للمؤلفين. ولكن التنقيبات الأركيولوجية في المنطقة التي افتتحتها حملة نابليون، وما نتج عنها من حل رموز الكتابات الشرقية وفهم لغاتها، قد وصلتنا بالحضارات القديمة مباشرة من دون وسيط، وأمدتنا بحقائق لا يمكن الشك بصحتها. وقد تكونت لدينا الآن وبعد أكثر من قرن ونصف من بذل الجهود المتضافرة لعلماء الآثار والتاريخ واللغات القديمة، صورة واضحة عن تاريخ وحضارات بلاد الشرق القديم. وبشكل خاص، لعبت الوثائق التاريخية التي دونتها تلك الشعوب عن أحداث زمنها دوراً أساسياً في معرفتنا بها وبحضاراتها ومجريات تاريخها وتاريخ الشعوب التي احتكت بها.

لقد حُلت منذ زمن، الكتابات الهير وغليفية المصرية والحثية، والمسمارية. السومرية والأكادية والآشورية والأوغاريتية، والأبجدية الكنعانية والآرامية، وفهمت لغاتها، وقرئت نصوصها وصححت قراءاتها مراراً وتكراراً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من قبل علماء كرسوا حياتهم لهذه الغاية، وبنت أجيال من المختصين عملها على انجاز من سبقها وطورته وفق المستجدات والمستحدثات، حتى صارت قراءتنا لنصوص الشرق القديم إلى حالة من الاستقرار لا يطاله نقض جذري، رغم بقائها منفتحة على التعديل والتنقيح مما يطال الغوامض والاشكالات الطفيفة من دون الأساسيات. من هنا، فنحن نرى أنه من التعميم الظالم أن تتهم كل هذه الجهود بالانطلاق من وجهة نظر توراتية والسير في ركاب علماء التوراة، لأن الواقع في معظم جوانبه هو عكس ذلك تماماً. فلقد كان اكتشاف رقم سومر وبابل وآشور وماري وأوغاريت، بداية لظهور اتجاه علمي جديد في نقد كتاب التوراة وتمحيصه بمنهج منفتح بعيد عن التعامل مع التوراة ككتاب مقدس يجسد كلمة الاله الموحاة، وتمت اعادة النظر في مجمل معطياته التاريخية والادبية والدينية على ضوء النصوص المكتشفة.

من هنا فنحن ننظر إلى دعوة كمال الصليبي إلى اعادة النظر بقراءات وثائق الشرق القديم بكثير من التردد والحذر، خصوصاً وانه لم يبين ولو بمثال واحد موضع الخطأ في قراءة أي نص آشوري أو بابلي أو مصري، ولم يبين لنا أي منهج جديد نستبدله بالمناهج القائمة في قراءة هذه النصوص. نستثني من ذلك نصاً فلسطينياً من بضعة أسطر مكتوباً بالكنعانية الفلسطينية (المدعوة خطأ بالعبرية المبكرة) ينقد فيه قراءة العالم التوراتي والأركيولوجي واختصاصي اللغات السامية المعروف وليم. ف. ألبرايت (انظر الصفحات من ٣١٣ إلى ٣١٤)، وهو الشخصية البارزة في المدرسة التوراتية في مجال تاريخ وآثار ولغويات فلسطين. وفيما عدا ذلك فهو لا ينبي عن تكرار القول بأن علينا أن نعيد قراءة سجلات مصر وبلاد الرافدين بلغاتها الأصلية من دون الترجمات التي وضعت لها حتى الآن، وذلك من غير أن يقدم نموذجاً نقدياً واحداً، سواء أكان هذا النموذج من نتاجه أم من نتاج غيره من الباحثين.

ولما كانت سجلات الشرق القديم، التي تعتبر احدى ركائز علم التاريخ الحديث، مجهولة لدى غالبية قراء كتاب كمال الصليبي، وحبيسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتب الاختصاصية جداً، فاننا سنعمد في هذا الباب من كتابنا إلى ايراد عدد كاف منها في حدود موضوعنا المطروح، ونختبر أطروحات المؤلف الرئيسية على محك المعلومات الثابتة التي تقدمها، مركزين بشكل خاص على سجلات الحملات المصرية والآشورية وما تضمنته من معلومات طبوغرافية وجغرافية، مع اجراء التقاطعات بين هذه المعلومات ونتائج التنقيب الأركيولوجي الحديث في المنطقة.

وكما أشرنا سابقاً، فان جهدنا لن يكون منصباً على تاريخ بني اسرائيل، بل على تاريخ أرض كنعان، وبلاد الشام عموماً. ذلك أن الاسرائيليين ما شكلوا يوماً قوة سياسية يعتد بها، ولا قدموا اسهاماً حضارياً يمكن وصفه بالاسهام الاسرائيلي المتميز بخصائص واضحة، بل عاشوا طيلة تاريخهم القصير تحت مظلة كنعان الوارفة.

فبعد مملكة داود وسليمان الموحدة التي لم تدم أكثر من خمسين سنة إبان القرن العاشر قبل الميلاد، والتي بسطت سلطتها السياسية لفترة مؤقتة على كامل أرض كنعان الفلسطينية (انظر خريطتنا رقم ١) انقسمت السلطة السياسية إلى مملكتين، مملكة اسرائيل في الشمال تبعها عشرة أسباط، ومملكة يهوذا في الجنوب وتبعها سبط واحد اضافة إلى سبط يهوذا (انظر خريطتنا رقم ٢). لم تدم حياة مملكة اسرائيل، التي عاشت كمملكة كنعانية في ديانتها وشتى مظاهر حضارتها، اكثر من قرنين من الزمان، إذ تم محوها من الخارطة بشرياً وسياسياً على يد الآشوريين عام ٧٢٠ ق.م، وحملت أسباطها العشرة إلى المنفى حيث ضاعت إلى الأبد، ولم يعد أحد من المنفيين قط، على ما تؤكده الرواية التوراتية. وقد أحل الآشوريون في الأرض سكاناً جدداً من مناطق بلاد الشام المقهورة الأخرى، على ما تذكره الرواية التوراتية وتؤكده السجلات الآشورية التي تذكر بالتفصيل المناطق التي جرى ترحيل السكان منها إلى اسرائيل. أما مملكة يهوذا فاستمرت بعد دمار مملكة اسرائيل قرابة قرن من الزمان إلى أن دمرها «نبوخذ نصر» البابلي واقتاد جل أهلها إلى المنفى (عام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٨٧ق.م). ولم يعد من هؤلاء المنفيين سوى قلة قليلة أيام «قورش» الفارسي الـذي قضى على المملكـة البـابليـة الجـديـدة عام ٥٣٩ق.م، وقـد حاول العـائـدون تشكيـل دولة صغيرة جداً في أورشليم وجوارها لم تتجاوز مساحتها سدس مسـاحـة فلسطين الاجمالية (انظر خريطتنا رقم ٣). وبعد ذلك تدخل فلسطـين تحت الحكم اليـونـاني فالروماني، ويتم الافناء النهائي للقلة اليهودية عام ٧٠ ميلادية عقب ثورة قامت بها على السلطة الرومانية.

فالـوجـود السيـاسي للاسرائيليين، إذن، لم يستمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف القـرن في أرض كنعـان التي يضـرب تاريخها الطويل في مطالع التاريخ ابـان الألف الـرابع قبل الميلاد. ومأثرتهم الثقافية الوحيدة كانت كتاب التوراة الذي بدأ أحبار اليهود بتحريره، نقلاً عن وثائق متفرقة وروايات متناقلة، إبان الأسـر البـابـلي وأنهـوا عملهم بعد العودة من السبي. وهذه المأثرة الوحيدة هي في الـواقـع ظاهـرة ثقافية لا يمكن فهمها ودراستها إلا في السياق العام للحضارة الكنعانية اجمالاً، واعتبارها انجازاً من انجازاتها تم على يد فئة لم تزد عن كونها فئة كنعانية في شتى مناحي حياتها وثقافتها.

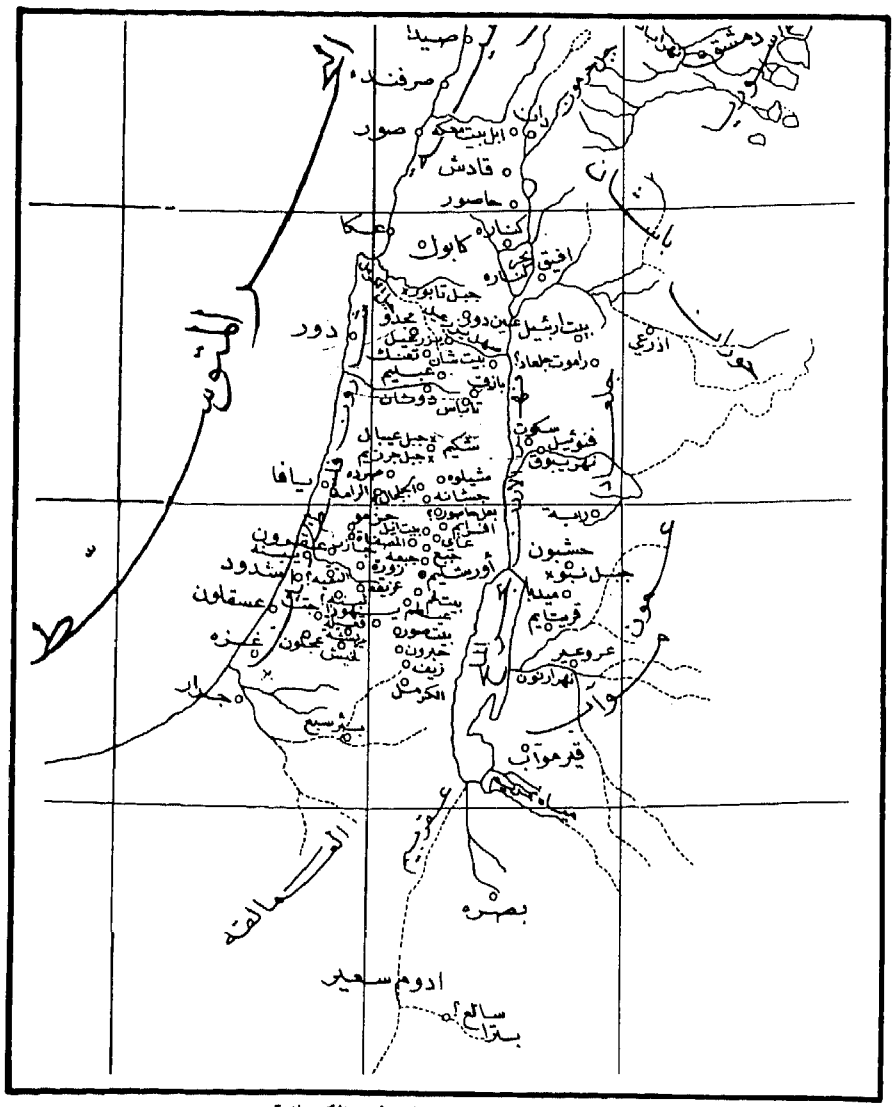

الخارطة رقم (١) ـ فلسطين الكنعانية

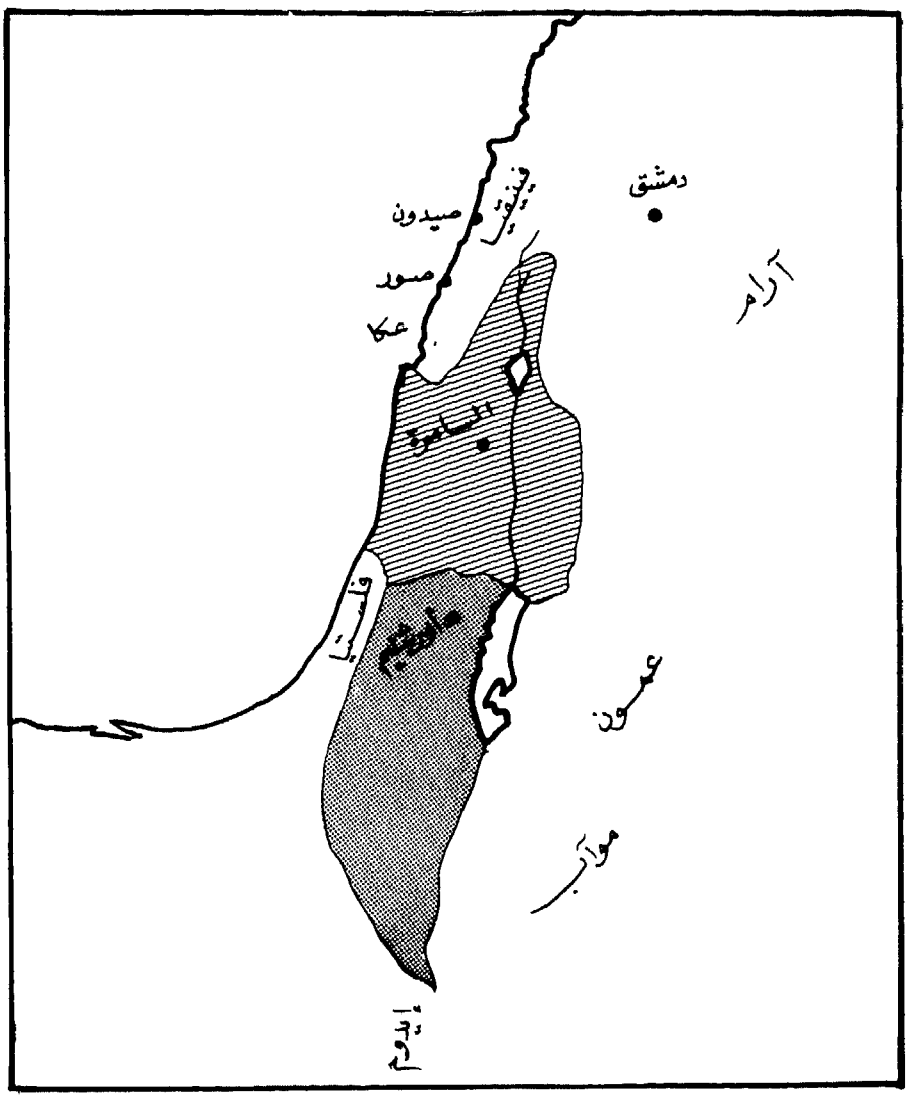

الخارطة رقم (٢) ـ مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا

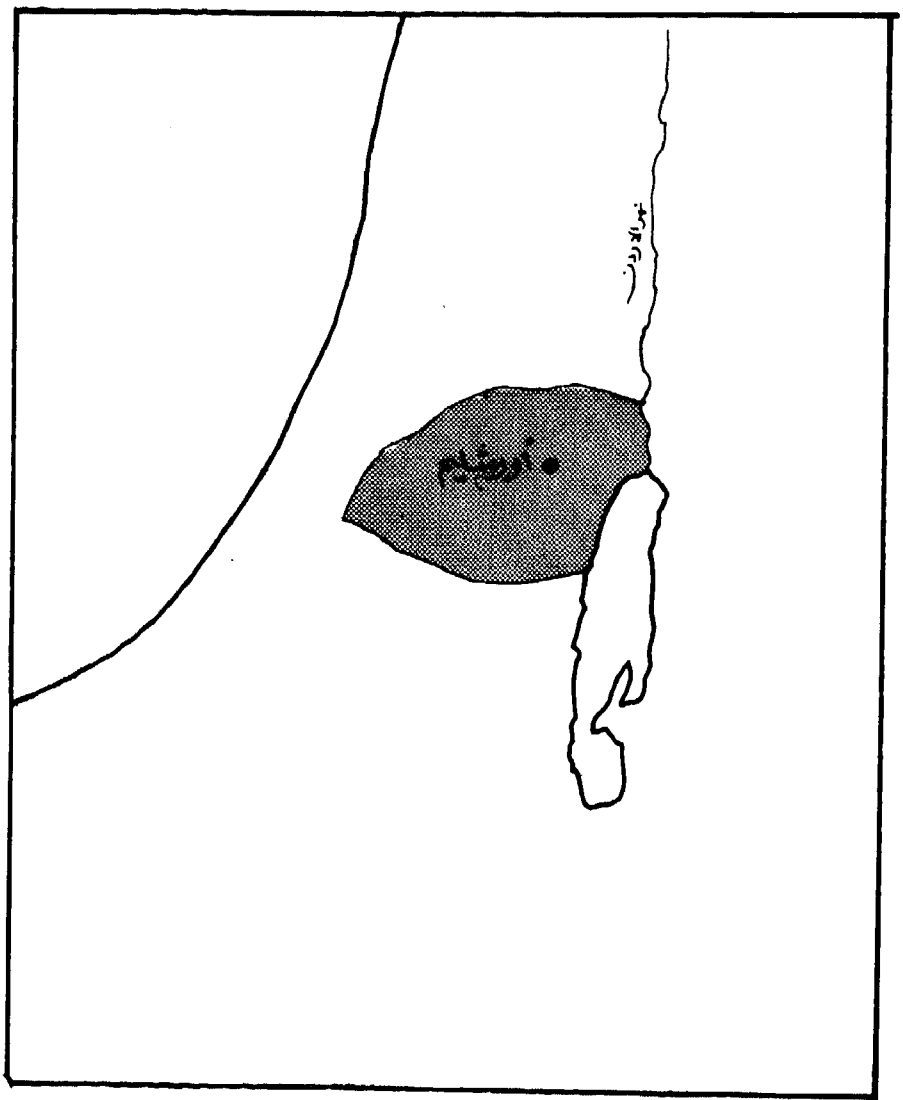

الخارطة رقم (٣) ـ رقعة يهوذا بعد السبي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ـ سجلات مصر الفرعونية

المملكة القديمة والمتوسطة :

رغم أن مصر كانت أقل تطلعاً إلى الخارج وأقل رغبة في التوسع قبل طرد الهيكسوس (حوالي عام ١٥٧٠ق.م) واعادة توحيد البلاد، إلا أن علاقاتها مع جيرانها الشرقيين في بلاد الشام لم تنقطع قط منذ بدايات التاريخ المصري، يشهد على ذلك العديد من النصوص التاريخية المصرية والأعمال الفنية. فمن سجلات المملكة القديمة وصلتنا وثيقة للفرعون «سينفرو» الذي حكم حوالي ٢٦٥٠ق.م، تتحدث عن وصول أربعين سفينة محملة بخشب الأرز لاستخدامها في صنع أبواب القصر الملكي[1]. ورغم أن مصدر الخشب غير مذكور في النص، إلا ان السفن التي صعدت به نهر النيل لا يمكن أن تكون قد أبحرت إلا من أحد الموانيء السورية على شاطيء المتوسط.

ويبدو أن إبقاء خطوط التجارة مفتوحة مع سورية كان يتطلب، بين الحين والآخر القيام بحملات عسكرية. ولدينا نصوص ورسوم تصف مثل تلك الحملات منذ عصر الأسرة الخامسة، منها رسم يصور سفناً عائدة بأسرى آسيويين من عهد «ساهو ـ رع» الذي حكم حوالي ٢٥٥٠ ق.م، ورسم آخر عثر عليه في أحد أضرحة الأسرة السادسة يصور هجوماً مصرياً على قلعة

1- John A. wilson, Egyptian Historical Texts (in James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Priceton 1969) p 227

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدافع عنها آسيويون[2]. وهناك نص من موقع «أبيدوس» تركه قائد عسكري عمل لدى الفرعون «ببي الأول»، وهو أحد فراعنة الأسرة السادسة، وحكم حوالي عام ٢٣٧٠ق.م، يتحدث فيه عن انتصارات المصريين على الآسيويين[3] دون أن يقدم معلومات كافية عن نوع الشعوب الآسيوية التي تعرضت للهجوم، أو تفاصيل جغرافية تعين على تحديد المناطق التي غطتها الحملات المصرية في ذلك الوقت.

تقدم نصوص المملكة المتوسطة معلومات أكثر تفصيلاً تساعدنا على معرفة الأماكن والشعوب الآسيوية التي كان المصريون على احتكاك بها. ففي نص تركه أحد أفراد حاشية الفرعون «سينوسرت الثالث» الذي حكم حوالي عام ١٨٨٠ ق.م، يتحدث كاتب النص عن حملة الفرعون جنوباً نحو بلاد النوبة، ثم انقلابه شمالاً لتأديب الآسيويين: [اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الآسيويين، فوصل المنطقة الأجنبية المسماة «شكميم»، فسقطت بيده شكميم مع الـ «ريتينو» الأنذال..][4]. ورغم قصر هذا النص واختزاله، فانه يقدم لنا معلومات لا بأس بها عن مسرح حملة الفرعون. فبعد انتصاره في حملات النوبة جنوباً، يتوجه شمالاً للقاء الآسيويين في فلسطين، لا شرقاً نحو عسير عبر البحر الأحمر. وهو يصل إلى «شكميم» التي هي «شكيم» التوراتية، المدينة الكنعانية المزدهرة في فلسطين خلال عصر البر ونز الوسيط، والتي تذكر الرواية التوراتية أن ابراهيم قد نصب خيامه بجوارها (التكوين ١٢ : ٦) وأن يعقوب قد ابتاع فيها قطعة نصب فيها خيمته (التكوين ٣٤ : ٢). ويبدو أن شكيم في هذا النص كانت على رأس حلف من الدويلات المجاورة، لأن الفرعون يهزمها ومعها الـ «ريتينو». وكلمة الريتينو تشير، باجماع علماء المصر وغليفية

2- Ibid p 227

3- Ibid, P228

4- Ibid, P 230

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصرية، إلى بلاد سورية وفلسطين[٥]، ولا يوجد في النصوص المصرية ما يدل على علاقتها بجزيرة العرب.

وفي الحقيقة يقدم لنا هذا النص أقدم مثال عن أحلاف الدويلات السورية التي كانت تعقد لمواجهة الخطر الذي يأتي إما من وادي النيل أو وادي الرافدين، دون أن تتحول هذه الأحلاف إلى دولة مركزية واحدة.

إلى جانب النصوص والمشاهد التصويرية الفنية المصريه، تساهم المكتشفات الأثرية في سورية في اعطاء صورة عن العلاقات المصرية السورية خلال عصر المملكة المتوسطة. فقد عُثر في العديد من المواقع السورية على مصنوعات يدوية مصرية عليها أسماء فراعنة من المملكة المتوسطة أو أسماء لمبعوثين مصريين، وذلك في «جبيل» (بيبلوس) و«بيروت» و«أوغاريت» على الساحل السوري، وفي «قطْنا» (تل المشرفة) أواسط سورية، وفي «مجدو» بفلسطين[٦]. ويبدو أن هذه المصنوعات كانت هدايا ملكية للتعبير عن العلاقات الديبلوماسية بين الفراعنة وملوك الدويلات السورية. وقد أمدتنا حديثاً مكتشفات موقع «ايبلا» بشمال سورية بمثال جديد عن العلاقات المصرية السورية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. فقد عثرت بعثة التنقيب هناك خلال حملة ١٩٧٨ - ١٩٧٩ على صولجان ملكي عليه اسم الفرعون «حوتيب إبرا» من الأسرة الثالثة عشرة، والذي حكم بين عام ١٧٧٥ وعام ١٧٦٥ ق.م، وكانت الحملات التنقيبية في فلسطين قد اكتشفت في «اريحا» نحتين صغيرين يمثلان جُعلاً، عليهما اسم الفرعون نفسه. كما عثر في «جبيل» على نحت بارز للفرعون «نيفر حوتب الأول»، وفي «تل حزين» قرب «بعلبك» عثر على تمثال للفرعون «سوبيك حوتب الرابع» وكلاهما من الأسرة

5- Ibid, P 230

6- Ibid, P 228

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثالثة عشرة نفسها[٧].

كان اجتياح الهكسوس القادمين من بلاد الشام، لمصر، بمثابة رد على محاولات التوسع لفراعنة المملكة المتوسطة. وقد احكم الهكسوس سيطرتهم على مصر قرابة مائتي عام من ١٧٣٠ إلى ١٥٧٠ ق.م، عندما تم طردهم على يد «أحمس الأول». ولدينا نص هير وغليفي من تلك الفترة يتحدث عن الحملة الأخيرة على مدينة «افاريس» عاصمة الهكسوس في منطقة الدلتا، ومطاردتهم من ثم إلى مواطنهم الأصلية في سورية. نقرأ في الجزء الأخير من النص على لسان أحد قادة الحملة: [.. ثم سقطت أفاريس ونهبت، فغنمت رجلاً وثلاث نساء وهبهم لي جلالته عبيداً. بعد ذلك حوصرت «شاروحين» لمدة ثلاث سنوات سقطت بعدها ونهبت، فغنمت امرأتين ورجلاً جعلوا لي عبيداً وأعطيت ذهباً لشجاعتي. وبعد أن قضى جلالته على الآسيويين اتجه جنوباً لمحق النوبيين. بعد هذه الأمور أتى «تحوتمس الأول» فتوجه إلى بلاد «ريتينو» ليشفي غلة فؤاده في الأراضي الأجنبية، فوصل جلالته إلى «نهارين» حيث التقى بالاعداء بينما كان ينظم صفوف الجند، فأعمل فيهم مذبحة عظيمة..][٨].

يقدم لنا هذا النص معلومتين هامتين تتعلقان بموضوعنا، الأولى حول مدينة «شاروحين» والثانية حول منطقة «نهارين»، فبعد هدم عاصمة الهكسوس في الدلتا، يتابع الجيش المصري مطاردة الهكسوس الذين تحصنوا في مدينة شاروحين عند الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان في فلسطين، ويبدو أن المدينة كانت واقعة تحت سيطرتهم نظراً لقربها من الحدود. ومدينة شاروحين مذكورة في التوراة كاحدى المدن الكنعانية التي قسمت لسبط

7- Scandone And Matthiae, The Mace of Hotepibra (In: Studies In The History And I Archaeology Of Palestine, Aleppo University 1987) PP 49-52

8- John A. Wilson, op. cit PP 233- 234.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمعون ضمن أراضي سبط يهوذا في جنوب فلسطين. نقرأ في سفر يشوع ١٩ : ١ ـ ٥. [وكان نصيبهم داخل نصيب بني يهوذا. فكان لهم في نصيبهم بئر سبع وشبع ومولادة وحصر شوعال وباله وعاصم والتولد. وتبول وحرمة وصقلع وبيت المركبوت وحصر سوسة وبيت لياوت وشاروحين].

وهكذا يتحدد معنا المكان التقريبي لاحدى المدن الحدودية الجنوبية لأرض «يهوذا». فالجيش المصري لم يطارد الهيكسوس، بعد تدمير عاصمتهم في الدلتا، قاطعاً صحراء سيناء ثم ملتفاً حول خليج العقبة هابطاً شواطيء البحر الأحمر إلى مناطق عسير حيث المكان المفترض لأرض يهوذا التوراتية في نظرية الصليبي (انظر الفصل ٨ من كتابه)، وانما توجه مباشرة من أفاريس إلى الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان، حيث داهم خط الدفاع الثاني الذي أقامه الهيكسوس في شاروحين اثناء تراجعهم نحو الأراضي التي أتوا منها أصلاً، كموجة من موجات العموريين التي انساحت في منطقة الهلال الخصيب مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

كما أن تحديد موقع شاروحين في جنوب فلسطين يساعدنا على تحديد موقع توراتي هام استبعد الصليبي وجوده في أرض كنعان وهو «بئر السبع» (انظر الفصل ٤ من كتابه). . فبئر السبع ترد في النص التوراتي المذكور أعلاه بالترافق مع شاروحين ومجموعة المدن التي أعطيت لسبط شمعون ضمن أراضي يهوذا. وبذلك يتحدد موقعها في جنوب فلسطين وفي مكان لا يبعد كثيراً عن موقع بئر السبع الحالية. وتحدد بئر السبع بدورها مكان صحراء النقب التوراتية (هـ ـ نجب) باعتبارها البادية الواقعة جنوبي فلسطين، وهي التي نقلها الصليبي مع بئر السبع إلى أواسط منطقة عسير في غرب العربية.

المملكة الحديثة ـ تحوتمس الأول:

بعد أحموس الأول، يتابع الفرعون «تحوتمس الأول»، في النص أعلاه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطاردة الهيكسوس واستئصال شأفتهم، فيسير على خطى أحمس إلى بلاد «ريتينو» حتى يصل «نهارين» فيقضي على العدو في معركة حاسمة. ويعود أدراجه. وبلاد ريتيينو، كما ذكرنا منذ قليل، هي حصراً سورية، وفلسطين في النصوص المصرية. أما نهارين فهي مثنى «نهر» وتشير في النصوص المصرية، كما سنرى مراراً فيما بعد إلى حوض الرافدين وإلى حوض الفرات الشمالي بشكل خاص. وسوف نتحدث بالتفصيل عن علاقة «نهارين» النصوص المصرية بآرام النهرين التوراتية، لاحقاً.

تحوتمس الثالث:

تراخت قبضة مصر عن الدويلات السورية قليلاً إبان حكم «تحوتمس الثاني» والملكة «حتشبسوت». ولكن ما ان ارتقى العرش «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م)، حتى بدأ بسلسلة من الحملات على بلاد الشام دامت طيلة حياته. وكانت معركة «مجدو» بفلسطين، التي قادها ضد تحالف سوري، فاتحة معاركه الكبرى، والمؤسسة الحقيقية لسلطة الأسرة الثامنة عشرة في آسيا. ولدينا نص طويل منقوش على جدار معبد الكرنك يسرد الحوليات الحربية لتحوتمس الثالث ويتحدث بتفصيل وإفاضة عن حملة مجدو، مع ذكر الأماكن والتواريخ بدقة. وسنقدم فيما يلي ملخصاً لأهم فقراته:

في مطلع النص، يجتاز تحوتمس الثالث حصن «صايل» ـ Sile على الحدود المصرية قرب بلدة القنطرة الحالية في برزخ السويس، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع من الفصل الثاني للسنة، ثم يتقدم نحو بلدة «شاروحين» التي كانت الحامية المصرية معسكرة فيها، ويجتازها إلى «غزه» التي يصلها في اليوم الرابع من الشهر الأول من الفصل الثالث للسنة. أي خلال مدة مقدارها تسعة أو عشرة أيام. وفي اليوم السادس عشر من الشهر نفسه يصل الجيش المصري إلى مدينة «ياهيم» ـ Yehem، التي حدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباحثون موقعها عند الطرف الجنوبي لجبل الكرمل، أي خلال مدة مقدارها احد عشر يوماً، هناك يعقد الفرعون اجتماعاً لقادة جيشه شارحاً لهم الوضع العسكري :

[لقد دخل جيش «قادش»، العدو اللئيم، إلى مدينة «مجدو». وهناك جمع اليه أمراء كل البلاد الأجنبية التي كانت موالية لمصر. وكذلك «نهارين» و «ميتاني» من حوريين ـ Hurru وكوديين ـ Kode ، باحصنتهم وجيوشهم ورجالهم. وكما نمي الينا، فقد قرر العدو أن ينتظر في مجدو ليقاتل صاحب الجلالة. فهلا أفضيتم إلي برأيكم في هذه المسألة؟]. بعد الاستماع إلى الفرعون، شرح له القادة الوضع التكتيكي للعدو. فجناح دفاعه الجنوبي في «تعنك» ـ Taanak ، والشمالي في «وادي قينا» Qina قرب مجدو. وهناك ثلاثة محاور تؤدي إلى العدو. الأول مباشر وقصير ولكنه ضيق لا يسمح بالتقدم إلا في رتل واحد، والآخران أطول ولكنهما أسلم، واحد ينتهي في تعنك والآخر في «زفته» Djefti . ورجوه ألا يأخذ الطريق القصير المباشر. ولكن الفرعون، خلافاً لنصيحة قواده، قرر التقدم على الطريق القصير الضيق مباغتاً العدو الذي لم يكن يتوقع ذلك فهزمه هزيمة منكرة، أتى بعدها الأمراء المتحالفون لتقبيل قدميه وطلب العفو][9].

يعطينا هذا النص القيم معلومات جيدة حول عدة مواقع كنعانية قديمة ورد ذكرها في التوراة وهي : غزة وشاروحين وتعنك ومجدو. كما يذكر مدناً وشعوباً عرفنا بها علم الآثار وعلم التاريخ مثل قادش وميتاني وكود. ورغم أن كمال الصليبي لم يتعرض لحملات تحوتمس الثالث الشرقية بشكل خاص، إلا أنه حدد في مواضع متفرقة من كتابه أماكن بعض المواقع الواردة أعلاه في غرب العربية. فغزة هي «آل عزه» القرية الجبلية في أواسط سلسلة السراة جنوب النماص (ص ١٠٠)، وميتاني هي «وادي متان» في منطقة الطائف، ونهارين

9- Ibid, P 235-238.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هي قرية «النهارين» في موقع غير بعيد عن وادي متان في منطقة الطائف (ص ٢١٩)، ومجـدو هي «مقـدي» في منطقـة القنفـذة (ص ١١٩)، وتعنـك هي «الكنعه» في تهامة زهران ـ (انظر خريطة الصليبي رقم ٣).

فإلى أي حد ينطبق مسـار حملة تحوتمس الثالث على هذه المواقع في غرب العربية؟

يتضـح من النص أن حلف الـدويلات السورية قد عقد هذه المرة تحت لواء مملكة «قادش»، التي كانت مملكة مزدهرة في تلك الأيام وتحكم منطقة واسعة في أواسـط وجنـوب بلاد الشـام. وقـد ورد ذكـرهـا مراراً في السجـلات الحثية والآشـوريـة وغيرها من وثائق الشرق القديم، مما ساعد المؤرخين على تحديد موقعها التقريبي، الى أن تمكن علم الآثـار من اكتشاف مدينة قادش تحت تل النبي منـد على الطـرف الجنوبي الغربي لبحيرة قطينة إلى الجنوب من مدينة «حمص» الحـاليـة[10]. ويبـدو أن ملك قادش قد جمع اليـه العـديـد من حكام الممالـك الشـماليـة، يذكـر النص منهـا الحوريين والميتانيين والكوديين. وكان الحـوريـون، وهم شعب يتكلم اللغـة الهنـدو أوربية، قد بدأوا بالتسرب إلى مناطق بلاد الشام الشمالية والجزيرة العليا منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، واستغلوا فترة ضعف السلطة في وادي الرافدين لتشكيل ممالكهم هناك، وأهمها مملكـة «ميتـاني» التي ازدهـرت أواسـط الألف الثـاني قبـل الميلاد في حوض نهر الخـابـور. ومعظم معلومـاتنـا عن مملكـة ميتاني مستمد مباشرة من وثائق مدينة «نـوزي» الميتـانيـة التي تم الكشف عن أطـلالهـا قرب «كـركوك» في الأراضي العـراقيـة الآن[11]. أمـا «كود» و«كوديون» فهي تسمية أطلقها المصريون على

10- الـدكتـور علي أبـو عسـاف، آثـار الممـالـك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٤١٢.

11- المرجع نفسه ص. ص: ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناطق وسكان كيليكيا وشمال غربي سورية[12].

وقد انضمت الممالك الشمالية بقيادة قادش الى الممالك الجنوبية التي انضوت تحت لواء «مجدو» الكنعانية في فلسطين. وقد استطاع علم الآثار التعرف على مجدو القديمة تحت تل المتسلم على بعد عشرين ميلاً جنوب شرقي حيفا، وهو تل بيضوي الشكل يتحكم بالممر الاستراتيجي الذي يفصل جبل الكرمل الذي يندفع نحو البحر، عن سلسلة الجبال المركزية في فلسطين. وقد كانت مصر دائماً راغبة في ابقاء هذا الممر الاستراتيجي تحت سيطرتها من أجل تأمين تحركاتها نحو فلسطين الداخلية. كما كشفت التنقيبات أيضاً عن بلدة «تعنك» على مسافة خمسة أميال جنوب غربي مجدو تحت التل المعروف اليوم بتل تعنك. وقد أثبتت نتائج التنقيب الأركيولوجي أن الموقعين قد هدما وانقطع فيهما الاستيطان منذ مطلع القرن الخامس عشر، أي منذ حملة تحوتمس الثالث ومعركة مجدو، إلى أواخر القرن الرابع عشر حيث انتعشتا مجدداً واستمرتا إلى فترة الحكم الاسرائيلي[13].

ويرد في التوراة أن الاسرائيليين قد فتحوا مجدو أيام يشوع بن نون (راجع سفر يشوع ١٢ : ٢١ و١٧ : ١١). وهناك انتصر «باراق» و«دبوره» على الكنعانيين المدافعين بقيادة «سيسرا» (راجع سفر القضاة ٤ : ١٦ - ١٧). وتذكر مجدو مع تعنك باعتبارهما جارتين في منطقة واحدة (راجع سفر القضاة ٥ : ١٩ ويشوع ١٧ : ١٩).

والآن لنتابع مسار حملة تحوتمس الثالث على ما تذكره الوثيقة المصرية، وفي ضوء ما تشكل لدينا من معلومات حديثة. فالجيش المصري يجتاز حصن صايل المعروف في السجلات المصرية بوقوعه على الحدود المصرية مع شبه

12- John A. Wilson, op.cit p 262

13- Kathleen Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Menthuen, London 1985, PP 181-202, 342,335

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جزيـرة سيناء قرب قرية القنطرة الحالية، ويدعى أيضاً حصن «تجارو»[14]. ثم يجتـاز بلدة شاروحـين التي حددنـا موقعهـا سابقاً عند الطرف الجنوبي الغربي لفلسطـين، ليصـل إلى مدينـة غزة بعـد عشرة أيام، وهي المدة اللازمة لقطع المسافة بين القنطرة وغزة وطولها حوالي مائة وخمسين ميلاً، ضمن أراضٍ مسالمة واقعـة تحت تهديـد الحاميات المصرية التي كانت معسكرة في شاروحين. وبعد قضاء ليلة في غزة يتابع الجيش مسيرته إلى سفح جبل الكرمل على مقربة من مجدو التي تعسكـر حولهـا قوات التحالف السوري بقيادة ملك قادش، فيقطع المسافة بين غزة وجبل الكرمل، وطولها ثمانين ميلاً في أحد عشر يوماً، وهي مدة طويلة نسبياً والسبب في ذلك عائد إلى كون القوات المصرية تتقدم على طول الساحل الفلسطيني عبر مناطق عاصية ومعادية، وذلك على عكس تقدمها في المقطع الأول من الحملة عند بلدة ياهيم، يتوقف تحوتمس الثالث ليضع خطة الهجـوم، فنعـرف من حديث قادتـه العسكـريين أن المتحالفين كانوا يدافعون على خطوط متتابعة، حيث المؤخرة في تعنك والقلب حوالي مجدو والمقدمة الى الشـمال منهـا. ولكن مفاجأة الفرعون تُفشل خطة التحالف ويسقط المدافعون فريسة سهلة في يد تحوتمس الثالث.

وهكـذا نجـد أن مسـار حملة تحوتمس الثـالث ينطبق بكـامـل تفـاصيله ومسـافـاتـه على جغـرافيـة فلسطين من دون غرب العربية. فإذا كانت غزة المقصودة في هذه الوثيقة المصرية هي «آل عزه» الواقعة في أواسط جبال السراة جنوب النهاص، لتـوجب على الجيش المصري بعد اجتيازه حصن صايل عند برزخ السـويس ان يقطـع صحراء سيناء، ثم يلتف حول خليج العقبة ويهبط سواحل البحر الأحمر إلى منطقة القنفذة حيث يلتف شرقاً نحو جبال السراة في طريق وعـرة وشـاقـة لا تقـل مسـافتها عن ١٢٠٠ ميلاً، وهي مسافة لا يمكن اجتيازها في عشرة أيام على ما ذكره النص المصري بوضوح، بل تتطلب قرابة

14- John A Wilson, op cit P 235

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشهر ونصف الشهر، إذا اخذنا المعدل العصري لمسيرة جندي المشاة في الساعة وهي ثلاثة أميال ونصف الميل. وإذا كانت «مجدو» التي نظمت حولها قوات التحالف السوري صفوفها هي «مقدي» غرب العربية، لوجب أن تكون «الكنعة» التي هي «تعنك» عند الصليبي على مقربة منها، ولكن نظرة إلى خريطة الصليبي رقم ٣ توضح أن المسافة بين «مقدي» في منطقة القنفذة و «الكنعة» في تهامة زهران لا تقل عن مائتي كيلومتراً، الأمر الذي يجعل من المستحيل تكتيكياً توزيع فرق المتحالفين على هذه المساحات الشاسعة، يضاف إلى ذلك أن النص المصري كان واضحاً كل الوضوح بخصوص تجمع قوات العدو في مجدو وجوارها (انظر خريطتنا رقم ٤).

وفي نص آخر قصير وقليل التفاصيل منقوش على مسلة معروفة بمسلة «عرمات» نسبة إلى المكان الذي اكتشفت فيه بمصر، نجد اشارة أخرى إلى حملة تحوتمس الثالث على مجدو. فالفرعون يتوجه إلى بلاد «زاهي» Djahi، وبلاد «ريتينو» لاخماد العصيان فيها، ويخوض معركة فاصلة ضد العدو الذي جمع قواته في مجدو[١٥]. وبلاد ريتينو كما رأينا هي فلسطين وسورية، أما بلاد زاهي، فهي كما يعرف كل دارس للنصوص المصرية، الساحل الفينيقي بشكل خاص، وقد تستعمل الكلمة بشكل مرن أحياناً للدلالة على الأجزاء القريبة من الساحل نحو سورية وفلسطين[١٦].

بعد حملة مجدو، تتابعت حملات الفرعون تحوتمس الثالث على بلاد الشام حتى بلغت ست عشرة حملة خلال عشرين سنة. بعض هذه الحملات كان حروباً حقيقية صعبة، وبعضها الآخر كان استعراضاً للقوة وجمعاً للجزية. وسنتابع فيما يلي استعراض بعض النصوص ذات العلاقة بموضوعنا، لأن المجال لا يتسع لعرضها جميعاً.

15- John A. Wilson, op.cit P 234

16- Ibid P 234

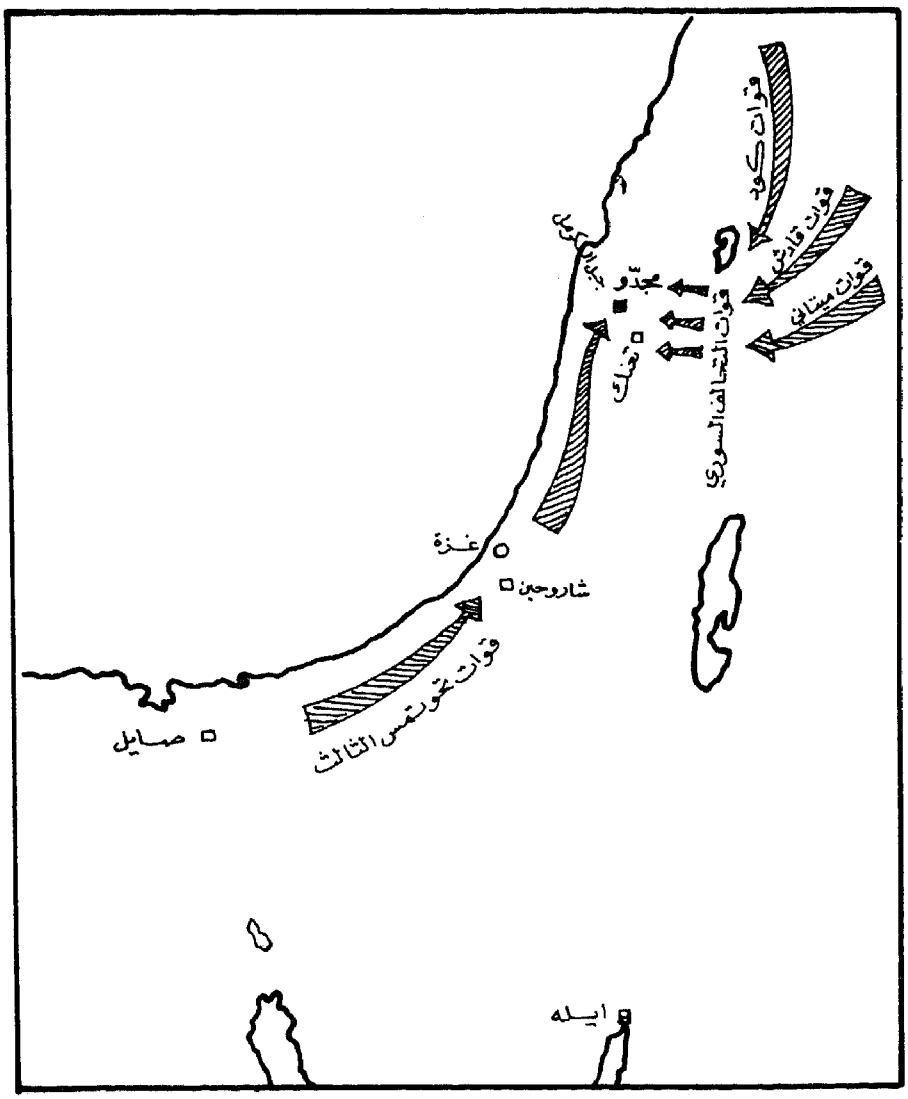

الخارطة رقم (٤) ـ معركة مجدّو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في حملته السادسة يتوجه تحوتمس الثالث إلى قادش، ثم ينقلب إلى مدن الساحل: [والآن كان جلالته في بلاد ريتينو ابان حملته السادسة المظفرة. وصل إلى قادش وجعلها خراباً، قطع أشجارها وحصد قمحها. بعد ذلك اجتاز جلالته «ريات» ـ Reyet متوجهاً إلى «سيميرا» ومنها إلى «أرداتا» ففعل بهذه المدن فعله بقادش، وحصل منها على الجزيات التالية.. (تعداد لأصناف الجزية المقدمة). وأخذ أولاد الأمراء أسرى إلى مصر، حتى إذا ما مات أمير منهم أرسل بولده خلفاً له][17] من المدن الواردة أعلاه، نعرف على وجه التأكيد قادش التي تم اكتشافها، كما ذكرنا، تحت تل النبي مند قرب مدينة حمص الحالية في سورية. كما تم التعرف على «أرداتا» إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان[18]، وبشكل شبه مؤكد على «سيميرا» المدينة الكنعانية الساحلية الكبيرة، وذلك تحت «تل الكزل» قرب ميناء طرطوس السوري، على ما تفيد التقارير الأولية لبعثة التنقيب الأثرية العاملة في الموقع الآن برئاسة الدكتورة ليلى بدر من الجامعة الاميركية ببيروت. وبذلك يتوضح مسار هذه الحملة التي ابتدأت من ضفاف نهر العاصي عند بحيرة قطينة ثم انعطفت شرقاً نحو الساحل القريب.

وعن حملته الثامنة تذكر حوليات الكرنك ما يلي: [كان جلالته في بلاد ريتينو. وصل إلى «قَطْنا» ـ Qatna في حملته المظفرة الثامنة، اجتاز بعد ذلك منعطف نهارين الكبير إلى شرق هذه المياه حيث نصب مسلة إلى جانب مسلة أبيه. ثم مضى شمالاً فاجتاح مدن نهارين وسلبها ودمر معسكرات الأعداء، ثم طاردهم بالمراكب مسافةً، فكانوا أمامه يفرون كقطيع حيوانات صحراوية لا يلتفتون إلى الوراء. بعد ذلك اتجه جلالته جنوباً فوصل بلاد «ني» Ni وقفل عائداً بعد أن وسع حدود مصر]. وفي نص آخر يعطي الفرعون

17- Ibid P.239

18- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق ص ٤١٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفصيلات عن كيفية عبوره مياه نهارين : [لقد صنعت سفني من خشب الأرز عند جبال «بلاد الاله» قرب «سيدة جبيل» وحملتها على عربات تجرها الماشية سارت أمامي من أجل عبور النهر الكبير الذي يفصل بين هذه البلاد الأجنبية ونهارين . . وفي كل عام كانت أخشاب الأرز تحتطب من لبنان ويؤتى بها إلى بلاطي][19].

في نص الحملة الثامنة هذه، يرد ذكر مدينة سورية هامة جداً هي مدينة «قَطْنا» التي كانت عاصمة لمملكة قوية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ويرد ذكر هذه المملكة في وثائق الدول المجاورة وخصوصاً وثائق مدينة «ماري» المعروفة على الفرات، فقد تزوج «يمسخ حدد» ملك ماري من ابنة ملك قطنا، على ما تذكره احدى الوثائق العديدة المتعلقة بالصلات مع مملكة قطنا، كما عثر حديثاً على وثائق تذكر مملكة قطنا في أرشيف مدينة «ايبلا» في الشمال السوري. وقد كشفت التنقيبات الأثرية موقع قطنا تحت «تل المشرفة» على مسافة ١٨ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص الحالية بوسط سورية. ورغم أن الموقع لم يكشف بكامله بسبب وجود قرية «المشرفة» فوقه، إلا أن ما تم اكتشافه كان كافياً للتعرف على عاصمة المملكة القديمة، وخصوصاً النصوص التي حصلنا عليها من معبد المدينة والتي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ويأتي أحد هذه النصوص على ذكر أسماء الملوك الذين تتابعوا على حكم المدينة[20]. هذا وتعمل مديرية الآثار والمتاحف السورية حالياً على اخلاء القرية المذكورة تدريجياً من أجل متابعة عمليات التنقيب.

كما ورد ذكر مدينة قطنا أيضاً في الوثائق الحثية بالأناضول. وفي احدى

19- J. A Wilson, op. cit PP 239-240

20- P. Matthiae, Ebla, Hoder and Stoughton, London 1980, PP 23-24, 180

الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٣٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الوثائق، يذكر الملك «شوبيليوماس» أخبار انتصاراته في الجزيرة العليا وسورية الداخلية. فبعد توجهه إلى آشور، يعود الملك فيقطع نهر الفرات متوجهاً إلى «حلبا» (حلب)، وبعد فتحها يتابع مسيرته شرقاً إلى مملكة «موكيش» (التي تم اكتشاف عاصمتها تحت تل عطشانة شرقي انطاكية)، ثم يتجه جنوباً إلى «قطنا» فيدمرها ويتابع إلى «دمشق» التي يهاجمها بالتعاون مع قوات قادش[٢١].

من قطنا هذه تبتدي، حملة تحوتمس الثالث، الثامنة، في الأرض التي يدعوها النص ببلاد الاله، وهي تسمية معروفة في الوثائق المصرية للدلالة على بلدان المشرق عموماً حيث يصدر اله الشمس المصري كل صباح من أفقه الشرقي. وبعد القضاء على مقاومة المدينة يتوجه الفرعون نحو المنعطف الكبير لنهر الفرات، حاملاً معه السفن التي صنعت له خصيصاً في مدينة «جبيل» وقطعت لبنائها أخشاب الأرز من جبل لبنان. أما تعبير «سيدة جبيل» الوارد في النص فهو اسم تبادلي للإلهة «عستارت» إلهة الساحل الكنعاني عموماً ومدينة جبيل على وجه الخصوص، وكان المصريون يقدسونها ويقرنونها بالهتهم «هاتور». عند نهارين يجتاز الفرعون النهر الكبير إلى الضفة الشرقية فيقضي على مدن الأعداء ويطارد فلولهم بمراكبه.

فأين مسار هذه الحملة من مواقع كمال الصليبي المفترضة في غرب العربية؟ لم يتعرض الصليبي لمدينة قطنا القديمة، ولم يعط لها مقابلاً في غرب العربية، أما جبيل (بيبلوس عند الاغريق) المدينة البحرية المعروفة على الساحل اللبناني، والتي تدعوها النصوص المصرية «جيبال» Gebal[٢٢]، فقد

21- A. Goetze, Hitite Historical. Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 318

22- John. A. Wilson, Egyptian Myths (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 27

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجد مقابلها في موقع «القابل» في إقليم نجران الداخلي، ونهارين في «وادي متان» قرب الطائف (انظر الصفحات ٢٣٥ و ٢٢٩)، أما «لبنان» نصوص التوراة ووثائق الشرق القديم فهو ليس لبنان الشام، بل «لبينان» في شمال اليمن، وهو مرتفع تكثر فيه أشجار العرعر. وليس هناك ما يمنع في رأيه ان يكون أرز لبنان هو عرعر لبينان، لأن القواميس العربية تفيد بأن الأرز قد يكون العرعر (انظر الصفحات ٧٨ و١٥٢). وفي الحقيقة لا يمكن لمسرح الحملة الثامنة لتحوتمس الثالث أن يكون في غرب العربية. فالهدف الأول للحملة كان مملكة قطنا التي عثر عليها المنقبون في سورية وقرأوا نصوصها المكتوبة، وبعد اخضاع قطنا جاءت إلى الفرعون سفن مبنية في مدينة جبيل التي لا يمكن أن تكون «القابل» في اقليم نجران الجبلي الداخلي في غرب العربية، لأن السفن تبنى على الشواطىء لا على قمم الجبال. والخشب الذي استخدم في بناء مراكب تحوتمس الثالث، هو خشب الأرز المحتطب من جبل لبنان القريب من جبيل، لا خشب العرعر الآتي من لبينان نجران، لأنه إذا كانت كلمة الأرز في القواميس العربية قد تعني العرعر فان المصريين كانوا قادرين على التمييز بين الأرز والعرعر دون الرجوع إلى القواميس العربية، وهم عندما يذكرون الأرز فانما يعنون هذا الشجر تحديداً، وموطنه الوحيد في المنطقة هو مرتفعات سلسلة الجبال السورية الساحلية. وأخيراً أين مياه نهارين التي تقطعها المراكب إلى الجهة الشرقية ويبحر فيها المصريون لمطاردة الهاربين، من وادي متان قرب الطائف؟

وتعريف مياه نهارين على أنها نهر الفرات، يساعد على ازالة الشكوك التي أثارها كمال الصليبي في كون مدينة «كركميش» الواردة في النصوص المصرية هي كركميش السورية الواقعة على نهر الفرات إذ يقول: [. . والدراسة الصحيحة لحملة مصرية أخرى تذكرها التوراة العبرية هي حملة نخو الثاني في السنوات الأخيرة من القرن السابع، تدل على أن هذه الحملة أيضاً كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية الذي كان يسيطر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه البابليون آنذاك. ومعركة كركميش الواردة في أخبار الأيام الثاني وأشعيا وارميا التي جرت بين المصريين والبابليين بهذه المناسبة، انما جرت قرب الطائف في جنوب الحجاز، حيث ما زالت هناك قريتان متجاورتان تسميان «القر» و «قماشه». ولعل الحملات العسكرية الأبكر والتي تعود بتاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، والتي يفترض عموماً أنها كانت موجهة ضد فلسطين والشام، انما كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية..] (ص ٣٧). والحقيقة أن مدينة كركميش في سجلات حملات تحوتمس الثالث ترد كمدينة واقعة على مياه نهارين، والآتي اليها يعبر مياه النهر من عندها. نقرأ في نص تركه أحد قادة تحوتمس الثالث في حملته على نهارين: [.. ومرة أخرى كسبت الغنائم في هذه الحملة بأرض كركميش فحصلت على عدد من الأسرى الاحياء، ثم عبرت فوق مياه نهارين][٢٣]. فاضافة إلى ما أثبتناه من تطابق مياه نهارين مع نهر الفرات، فان موقع كركميش الواضح في هذا النص يتطابق مع موقع كركميش السورية على الضفة اليمنى لنهر الفرات*، (انظر خريطتنا رقم ٧).

وكانت كركميش عاصمة لمملكة سورية هامة تتحكم في حوض الفرات الشمالي منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وورد ذكرها مراراً في وثائق أرشيف مدينة ماري المجاورة لها والتي كانت على علاقات طيبة معها. وقد تم اكتشاف موقع المدينة قرب مدينة جرابلس الحالية على الضفة اليمنى للفرات عند الحدود التركية. خضعت المدينة للحثيين الأناضوليين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبعد انهيار الامبراطورية الحثية على يد شعوب البحر حوالي

23- L. Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts (in : James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts Princeton, 1969) P 241.

* ـ يحدد اتجاه مجرى النهر عادة ضفته اليمنى واليسرى، فإذا جرى جنوباً كانت ضفته اليمنى شرقية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢٠٠ ق.م، صارت كركميش من أقوى الدويلات السورية الشمالية التي دعيت بالدويلات الحثية الجديدة[٢٤]، وهي تسمية خاطئة درج استعمالها بين المؤرخين، رغم دعوة بعضهم حديثاً إلى تغييرها. هذا وسيكون لنا عود على كركميش عندما نأتي إلى دراسة النصوص الآشورية التي ذكر فيها هذا الموقع مراراً.

قبل أن نترك سجلات تحوتمس الثالث، سنتوقف عند حملته السادسة عشرة والأخيرة: [والآن كان جلالته على الطريق الساحلي في سبيله الى تدمير «عرقاتا» ـ Irqata والمراكز الواقعة إلى جوارها. . تم الوصول إلى «تونيب» ـ Tunip التي أحرقت واجتثت مزروعاتها وقطعت أشجارها. ثم عاد الجيش مظفراً إلى منطقة قادش واستولى على ثلاث مدن هناك وأسر أعداداً كبيرة من المرتزقة الأجانب القادمين من نهارين للمعونة. .][٢٥].

ومرة أخرى فان مسرح هذه الحملة لا يخفي نفسه. فمدينة «عرقاتا» التي توجه اليها الفرعون على الطريق الساحلي، قد تم التعرف عليها في موقع «عرقا» اليوم وهي قرية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان[٢٦]. وقد وردت أيضاً في النصوص الآشورية مراراً كمدينة ساحلية، وباسمها الحالي عرقا دون تحوير[٢٧] أما «تونيب» فرغم عدم تمكن علماء الآثار حتى الآن من تحديد موقعها بدقة، إلا أننا نعرف من تقاطعات أخبارها في وثائق بلاد الشام أنها كانت عاصمة لمملكة صغيرة سيطرت على المناطق

24- Paolo Matthae, op Cit P 19

الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه صفحة ٣٢٢.

25- John A Wilson op cit p 241

26- الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه صفحة ٤١٤.

27- Leo Oppenheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts) P 283 ـ٢٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الممتدة غربي مدينة حمص. وهناك نص معاهدة مكتوبة بين أحد ملوكها واسمه «آري ـ تشوب» وملك أوغاريت «نقم ـ عفا» تم العثور عليه في اوغاريت[٢٨]. كما تم العثور في أرشيف مدينة «ألالاخ» عاصمة مملكة «موكيش»، التي اكتشفت تحت «تل عطشانة» في سهل العمق في الشمال السوري غربي حلب، على معاهدة مكتوبة بين ملك ألالاخ «نقميبا» وملك توتيب المدعو «ياريم» تنظم علاقات حسن الجوار بين البلدين نقتطف منها الفقرات التالية الموضوعة على لسان ملك ألالاخ:

ـ إذا أراد تاجر من أحد البلدين أن يبيع بضاعته في البلد الآخر، سواء أكانت قمحاً أم شعيراً أم زيتاً أم . . فانه يفعل ذلك دون الحصول على ترخيص مسبق بذلك.

ـ إذا تآمر في بلادك أفراد ضدي، وكانوا من مواطني «موكيش»، وسمعت بالأمر، عليك أن تبحث عنهم، ثم لا تقتلهم بل تقوم بتسليمهم إلي.

ـ إذا أبق عبد أو جارية في بلدي ولجأ إلى بلدك، عليك أن تقبض عليه وتعيده إلي.

ـ إذا رحلت بعض الأسر من بلدي إلى بلدك سعياً وراء الرزق، عليك باستقبالهم وتأمين معاشهم. فإذا أرادوا العودة عليك أن تعمل على تسفيرهم، ولا يحق لك احتجاز أي أسرة في بلدك منهم[٢٩].

اخناتون وفترة تل العمارنة:

بعد وفاة تحوتمس الثالث، تتراخى قبضة مصر تدريجاً عن مناطق نفوذها

28- الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه ص ٤١٢.

29- Erica Peiner, Akkadian Treaties From Syria .In James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 531-32

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التقليـديـة في بلاد الشـام . وقـد بلغت مرحلة الانحسـار أوجهـا ابـان حكم الفـرعـون امنحوتب الرابع (اخناتون) الذي حكم بين عامي ١٣٦٩ و١٣٥٣ ق.م ، حيث تركت المـمالـك السـوريـة لصـراعـاتها الداخلية ولهجمات قبائل «العـابـيرو» التي استهـدفت فلسطـين بالدرجة الأولى ، بينما انشغل الفرعون باصـلاحـه الديني الشامل وديانته التوحيدية المتمركزة حول الاله «آتون» القوة الالهيـة الـوحيـدة المتمثلة في قرص الشمس الملتهب . اتخـذ اخنـاتون عاصمة جديـدة له في مدينـة «أخيت آتـون» أي افق آتـون ، ليبتعـد عن مراكـز القوى الدينية القديمة . وقد تم اكتشاف هذه المدينة تحت «تل العمارنة» بمصر العليا في نهاية القرن الماضي وكان أهم ما عثر عليه هناك أربعمائة وثيقة مكتوبة باللغة الأكـاديـة التي كانت لغة الديبلوماسية الدولية في ذلك العصر، دعيت برسائل تل العـمارنـة لأن معظمهـا عبارة عن مراسلات تمت بين الفرعون وحكام آسيا الغـربيـة في بابـل وآشـور وميتـاني وكنعـان وحـاتي (مملكـة الحثيين) . وغطت الرسائل فترة زمنية امتدت بين أواخر حكم «امنحوتب الثالث» والد اخناتون ، وكامل سنوات حكم اخناتون ، مما اصطُلح على تسميته بعصر تل العمارنة .

شغلت المراسلات المتبادلة مع ملوك الدويلات السورية حيزاً كبيراً من رسـائـل تل العـمارنـة ، فهناك مراسلات مع ملوك «جبيل» و«عكا» و«مجدو» و «شكيم» و«جازر» و«أورشليم» وغيرها . إلا أن كمال الصليبي يرى في وثائق تل العمارنة رسائل متبادلة مع ملوك وحكام دويلات غرب شبه الجزيرة العربية فيقـول : [إن بعض أسـماء الأمـاكن المفردة الواردة في رسائل تل العمارنة تطابق فعـلاً أسـماء أمـاكن موجـودة في فلسطـين وفي غرب شبه الجزيرة العربية في آن معاً . وأبرز هذه الحالات تلك المتعلقة بـ «عكا» و«يافا» . أما إذا أخذت أسماء العـمارنـة جماعياً ، فإنها لا تندرج عملياً إلا في غرب شبه الجزيرة العربية] (ص ١١٧) . وقـد توصـل الصليبي إلى هذه النتيجـة من غير أن يقـدم لنا نموذجاً واحـداً من رسـائل تل العمارنة ، بل اكتفى بعرض جدول باسماء بعض المواقع الواردة في الرسائل ومقابلاتها في غرب العربية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قمنا بدراسة جميع رسائل تل العمارنة المتعلقة بالدويلات السورية في بلاد الشام، بكل عناية، فتبين لنا بما لايدع مجالاً للشك بأنها مراسلات قد جرت مع ملوك سورية وفلسطين، ولا يمكن بحال من الأحوال ان تنطبق المعلومات التاريخية والأركيولوجية الواردة فيها على غرب العربية وسنقدم الدليل على ذلك من خلال عرض بعض تلك الرسائل.

نقرأ في النص EA, No190، وهو عبارة عن احدى رسائل ملك اورشليم الكنعانية في فلسطين إلى الفرعون ما يلي: [إلى الملك مولاي. هكذا يقول خادمك «عبدي هبة». انظر إلى ما فعله «مِلْك ـ ايلو» ـ Milkilu و«شوارداتا» ـ Shuwardata بأراضي الملك، مولاي. لقد دفعوا بقوات من «جازر» ـ Gezer ومن «جت» ـ Gath ومن «كيله» ـ Keilah. أخذوا أراضي «روبوتو» ـ Rubutu، وأراضي الملك سلمت إلى شعب «العابيرو». حتى بلدة في أراضي «أورشليم» من أملاك سيدي اسمها «بيت لحم» ـ Bit-Lahm قد اعطيت الى «كيله»، فليصغ مليكي إلى خادمه «عبدي هبة» ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك. وإذا لم تصل القوات، فان أراضي الملك ستغدو للعابيرو][30].

في هذا النص، كما في أي نص تاريخي آخر، هناك مواقع لم يتم التعرف عليها، وأخرى مرجحة، وثالثة ثابتة بالدليل الاركيولوجي. فموقع «كيله» مشكوك بأمره، و «روبوتو» يرجح أن تكون في مكان ما جنوب غربي موقع «مجدو»[31]. أما «جازر» فمدينة كنعانية هامة تقع على المنحدرات الغربية للسلسلة المركزية في فلسطين، بدأ التنقيب في موقعها منذ مطلع القرن الحالي، وتم التعرف عليها خلال الحملات المتتابعة باجماع كل علماء الآثار.

30- W. F. Albright, Akkadian Letters (in:J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 489.

31- Ibid. P 489

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد افادت التنقيبات الأخيرة أن المدينة ترجع بأصولها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، وبقيت مسكونة مع بعض الانقطاعات إلى الفترة التوراتية[٣٢]. (ويمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع التالية: يشوع ١٠ : ٣٣ و ١٦ : ٣ و١٠ و ٢١ : ٢١ والأيام الأول ٦ : ٦٧ و ٢٠ : ٤ والقضاة ١ : ٢٩ وصموئيل الثاني ٥ : ٢٥ والملوك الأول ٩ : ١٥ - ١٧).

وأما «جت» فكانت احدى مدن الفلستيين الرئيسية وحصناً من حصونهم. أمكن لعلم الآثار التعرف عليها في موقع «تل جت» في الشريط الساحلي الفلستي جنوباً[٣٣] (ويمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع التالية (صموئيل الأول ٦ : ١٧ و٧ : ١٤ و١٧ : ٤ وصموئيل الثاني ٢١ : ١٥ - ٢٢ ويشوع ١١ : ٢٢ والعدد ١٣ : ٣٣ والتثنية ٢ : ١٠ - ١١ وغيرها . .).

ويلفت نظرنا في النص أعلاه ورود ذكر بلدة «بيت لحم» لأول مرة في السجلات القديمة، وترد هنا مترافقة مع «أورشليم» باعتبارها تقع في منطقتها. فماذا قال كمال الصليبي بشأن هذين الموقعين الواردين في رسائل تل العمارنة؟. فيما يتعلق بأورشليم، حدد مكانها جنوب مدينة النماص بعسير حيث توجد إلى الآن قريتين توأمين اسم الأولى «أروي» والثانية «آل سلام» قرب التنومة (ص ١٢٠) أما «بيت لحم» فلم يأت على ذكرها في جدوله لمواقع تل العمارنة، بل في الفصل الثامن الذي يرسم فيه حدود مملكة يهوذا القديمة في عسير، حيث حدد موقع بيت لحم بقرية «أم لحم» الحالية في وادي أضم (ص ١٧٢). وبما أننا سنفرد لاحقاً في باب «البينة الآثارية» حيزاً كبيراً لأركيولوجية مدينة أورشليم، فاننا سنكتفي هنا بالاشارة إلى تناقض في طبوغرافية موقعي اورشليم وبيت لحم عند كمال الصليبي على ضوء رسالة تل العمارنة. فالرسالة تقول أن بلدة بيت لحم تقع في أراضي أورشليم وهوما يتفق تماماً مع الوضع

32- Kathleen Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Mantheun, London 1985 P.326

33- Ibid, P. 80, 215

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبوغرافي للموقعين في كنعان حيث لا تبعد بيت لحم عن أورشليم أكثر من عشرة كيلومترات، أما في خريطة الصليبي فان المسافة بين منطقة جنوب النماص حيث تقع القريتين التوأمين أروي وآل سلام، ومنطقة وادي أضم الشمالي حيث الموقع المفترض لبيت لحم، تبلغ الـ ٢٥٠كم، وهو ما يتعارض مع نص رسالة تل العمارنة الواضح بهذا الشأن.

ولعل من أكثر رسائل تل العمارنة تمثيلاً للوضع السياسي في فلسطين والساحل الكنعاني، رسالة «رب عدي» ملك مدينة «جبيل» إلى الفرعون يشكو اليه فيها تعديات «عازيرو» ملك «آمورو» تقول الرسالة:

[من «رب عدي» ـ Rib-Addi إلى مولاه الملك، إله شمس البلاد. عند قدمي الملك أسجد سبع مرات وسبع. لقد كتبت مراراً في طلب قوات الحماية ولم أحصل عليها، فالملك لا يصغي لكلمات خادمه، ورسولي الذي بعثت به إلى البلاط عاد خالي الوفاض وبلا قوات. وعندما رأى أهل بيتي أن الفضة لم تعط إلى، هزئوا بي، وكذلك قوادي واخوتي واحتقروني. مضيت إلى «هامونيري» ـ Hamuniri وكان أخي يؤلب المدينة ضدي ليعطيها إلى أبناء «عبدوعشيرته» ـ Abdu Ashirta. وعندما عرف أخي ان رسولي عاد خالي الوفاض وبدون قوات لدعمي، ازدراني وطردني خارج المدينة. أرجو من الملك ألا يقف مكتوف اليدين أمام فعال ذلك الكلب. انظر إلى حالي، فأنا رجل مريض ومسن ولا أستطيع القدوم إلى مصر... ولكني ارسلت ابني، خادم الملك مولاي. فليستمع الملك الى كلمة خادمه ويرسل قوات من الرماة إلى جبيل، لكي لا يدخلها المتمردون وأبناء عبدوعشيرته ... إن المتمردين لقلة ومعظم أهل المدينة إلى جانبي، وعندما يسمعون بوصول القوات، ستعود المدينة إلى الملك مولاي ... إن في مدينتنا جبيل ثروات كبيرة للملك مولاي، جاءت من أسلافنا، فان لم يتدخل الملك من أجل المدينة فانه سيفقد كل مدن كنعان][٣٤].

34- W.F. Albright, op. cit. p 483

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو أن تعديات «عازيرو» ابن «عبدوعشيرته» ملك آمورو قد شملت معظم مناطق الساحل الكنعاني. ولدينا رسالة من «أبي ـ مِلْك» ـ Abimilk ملك صور تكرر الشكوى نفسها، يقول في آخرها: [. . . إنني أحمي «صور» المدينة العظيمة من أجل مولاي الملك، إلى أن تصلني قواته فتهبني ماء لأشرب وحطباً لأدفأ. ثم إن «زيمير يدا» ملك «صيدون» قد كتب مراراً إلى المجرم «عازيرو» ـ Aziru ابن «عبدوعشيرته» بخصوص كل ما سمعه من مصر. وها أنا قد كتبت إليك بكل ما يتوجب عليك معرفته][٣٥].

«عازيرو» ملك «آمورو»، الشخصية المركزية في هاتين الرسالتين، معروف لدينا من وثائق أخرى بعضها من بلاد الشام وبعضها الآخر من موطن الحثيين في الأناضول. ومملكته آمورو، كما نعرف من هذه الوثائق، كانت تسيطر على السهول الممتدة حول نهري الكبير والأبرش وعلى المنطقة الساحلية من طرطوس وحتى البترون. وقد أسس فيها «عبدو ـ عشيرته» سلالة تسلمت زمام الأمور منذ مطلع القرن الرابع عشر وحتى مطلع القرن الثاني عشر عندما قضت عليها موجات شعوب البحر[٣٦]. وكانت عاصمتها مدينة «سيميرا» التي أشرنا سابقاً إلى موقعها في تل الكزل قرب طرطوس، عند دراستنا لسجل الحملة السادسة لتحوتمس الثالث (انظر الصفحة ٤٩ سابقاً). ويبدو أن الملك عازيرو كان يلعب في هذه الأحداث الدامية، التي جرت في فلسطين والساحل الكنعاني أواسط القرن الرابع عشر، دوراً مرسوماً له من قبل الحثيين الذين استغلوا فرصة ضعف مصر ابان حكم اخناتون لملء الفراغ في سورية. ويؤكد لنا هذا الاستنتاج معاهدة عقدت بين الملك الحثي «شوبيلوليماس» وعازيرو ملك آمورو. وقد عثر على نص المعاهدة في «بوغازكوي» موقع عاصمة الامبراطورية الحثية بالأناضول منقوشاً على

35- Ibid P. 484

36- الدكتور علي أبو عساف المرجع السابق ص ٤١٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نسختين واحدة حثية والأخرى أكادية، يعود تاريخ هذه المعاهدة إلى فترة تل العمارنة، ويرد فيها اسم عازيرو في النسخة الحثية «عازيراس». وهذه فيما يلي مقدمتها الموضوعة على لسان الملك الحثي:

[أنـا الملك الشمس جعلتـك يا «عـازيراس» تابعي. فان صنت أرضْ ملك «حـاتي» سيـدك، فان سيـدك ملك حاتي سيقـدم لك الحـمايـة بنفس الطـريقـة. عليـك أن تحمي روح مليكـك وشخصه وجسمه وأرضه كما تحمي روحك وشخصك وجسمك وأرضك، وملك حاتي سيقدم لك بالمقابل نفس الحـمايـة، وكـذلـك أولاده وأحفـاده. ويتـوجب عليـك دفع ٣٠٠ شيكل من الـذهب الخالص لملك حاتي في كل سنة جزيةً، يجري وزنها بموازين تجار بلاد حاتي. وعليك أن تأتي بلاد حاتي، إلى الملك الشمس مرة في كل عام. لقد كان ملك «مصر» وملك «الحوريين» وملك. . وملك «كنزا» وملك «نوخاشا» ـ Nuhassa وملك «نيـيـا» ـ Niya وملك. . وملك «مـوكيش» ـ Mukis ، وملك «حلب» ـ Halba وملك «كركميش» ـ Kargamis ، كانوا جميعاً يناصبون الملك الشمس عداوةً. غير أن عازيراس ملك آمورو قد ترك بوابة مصر وصار موالياً للملك الشمس][٣٧].

إن معظم المـدن والمـمالك الواردة أسماؤ ها في هذا النص قد كشف علم الآثـار عن مواقعهـا وقـرئت نصـوص هـا وقوطعت مع نصوص غيرها من ممالك الشـرق القـديم. فـ «حـاتي» هو اسم مملكـة الحثيـين في الأناضول، به دعوا أنفسـهم وبه عرفهم جيرانهم، والحوريون هم شعب مملكة «ميتاني» في الجزيرة العليـا التي عرفنـا الكثـير عن أخبـارهـا من وثـائق موقـع «نـوزي» (انظـر الصفحة ٤٤ سابقاً).

و«كنزا» هي مملكة «قادش» على نهر العاصي قرب مدينة حمص الحالية

37- Albercht Goetze, Egyptian And Hittit Treaties (in: James pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P. 529

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(انظر الصفحة ٤٤ سابقاً)، و«موكيش» هي مملكة آلالاخ في سهل العمق بين مدينتي حلب وانطاكية، وقد تم اكتشافها تحت «تل عطشانة» الذي امدنا بفيض من النصوص الهامة، و«حلبا» هي مملكة حلب أو «يمخاض» التي كان مركزها في مدينة حلب الحالية، أما «نوخاشا» (أو نوخشي) فنعرف من تقاطعات أخبارها في نصوص الممالك الأخرى أنها شغلت مكاناً يقع بين مدينتي «حماة» و«حلب». وهكذا نجد أن مملكة آمورو التي شغلت أخبارها حيزاً لا بأس به من رسائل تل العمارنة قد قامت في بيئة سورية شأنها في ذلك شأن بقية ممالك عصر تل العمارنة. فأي حجة تبقى بعد ذلك لنقل مسرح هذا العصر الحافل إلى غرب شبه الجزيرة العربية؟.

سيتي الأول ـ وثائق من كنعان:

بعد سقوط أخناتون، لم تستطع مصر اعادة سيطرتها على مناطق نفوذها في سورية وفلسطين إلا في عهد «سيتي الأول» (١٣٠٢ ـ ١٢٩٠ق.م)، وهو الفرعون الثاني من الأسرة التاسعة عشرة. وتكمن أهمية سجلات هذا الفرعون أن بعضها قد وجد في أرض فلسطين، وهذا ما يمدنا بمعلومات مباشرة من ساحة الحدث ذاتها، لا من أرشيفات مصر ومسلاتها ونصبها التذكارية.

فلقد تم العثور في موقع «بيت شان»، المدينة الكنعانية الهامة في فلسطين، على نصب تذكاري نقش عليه سيتي الأول اخبار حملته على مدينة بيت شان التي تمركز فيها مناوئوه. نقرأ في النص، بعد المقدمة الفخرية المعهودة:

[هو الذي ينفذ إلى جحافل الآسيويين ويجبرهم على الرضوخ، الذي يحطم أمراء «ريتينو» وتطال يده كل الخارجين عليه. في هذا اليوم، جاء من يخبره بأن العدو اللئيم في بلدة «حمث» ـ Hamath قد جمع اليه العدد الغفير من الجنود واستولى على «بيت شان» ـ Bet-shan، ثم عقدوا حلفاً من «باهيل»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Pahel . وهـاهم قد حجـزوا أمير «رحوب» ـ Rehob عن الخروج . عند ذلك قام جلالتـه بارسـال جيش إلى بلدة حمث وآخـر إلى بيت شان وثـالث إلى «ينوم» ـ Yanoam . وما ان انقضى النهار حتى هزموا جميعاً أمام عظمة جلالته ملك مصر العليا والسفلى . .][38].

لقـد كشفت التنقيبـات الأثـرية عن بيت شان تحت «تل الحصن» قرب مدينـة «بيسـان» الحالية في فلسطين التي حافظت على الاسم القديم للمدينة الكنعـانيـة، وتبـين أن الموقع كان مسكوناً منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وبقي مأهـولاً بالسكـان عبر العصـر البرونزي وصولاً إلى العصر الحديدي في أواخر الألف الثاني والألف الأول قبل الميلاد[39]. أما بقية الأماكن الواردة في النص، فقـد أمكن تحديـد مواقعهـا إمـا بشكل تقريبي أو مؤكد. فـ «حمث» هي «تل الحـامـة». على بعـد عشرة أميال جنوبي بيسان، و«رحوب» من المحتمل أن تكـون «تـل الصـارم» على بعـد ثلاثـة أميـال جنـوب بيسـان، و«ينـوم» من المحتمل أن تكون في موقع «تل النعامة» شمالي بحيرة الحولة[40]. هذا وإضافة إلى بيت شان، المدينة التي شهدت أحداثاً هامة في التوراة، فقد ورد في التوراة أيضـاً ذكـر رحـوب (راجـع سفر العدد ١٣ : ٢١ وصموئيل الثاني ١٠ : ٦ ٨، يشـوع ١٩ : ٢٨ ـ ٣٠ و٢١ : ٣١ وأخبـار الأيـام الأول ٦ : ٧٥) وينـوم (راجع يشوع ١٥ : ٥٣).

وبـذلـك يقـدم لنـا نص سيتي الأول دليلاً قاطعاً مزدوجاً. فمدينة بيت شان التـوراتيـة قد تم العثـور عليهـا في أرض كنعـان، والبينـة عليهـا ليست أركيـولـوجيـة فحسب بل وكتابية أيضاً، إذ يظهر بوضوح اسم المدينة في النص المكتشف بين أنقـاضهـا. ومن ناحيـة أخـرى يثبت هذا النص أن الحمـلات

38- John A. Wilson, op. cit P. 253

39- Bray and Trump. Penguin Dictionary of Archaeology, PP. 37-38

40- John A. wilson, op. cit, P. 153

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصرية كانت موجهة نحو سورية وفلسطين لا نحو غرب شبه الجزيرة العربية، وإلا كيف يترك فرعون مصر حجراً تذكارياً في فلسطين يخلد فيه انتصاراً حققه في عسير؟، إضافة إلى ذلك فقد تم العثور في موقع بيت شان على نصب تذكاري ثان تركه سيتي الأول أيضاً، ورغم تحطم النصب وصعوبة قراءة الكتابة المنقوشة عليه، فاننا نفهم منه أن الفرعون قد صد هناك هجمات العابيرو القادمين من الأردن. كما عثر على تمثال للفرعون «رمسيس الثالث»، وعلى نص تركه أحد القادة العسكريين في حملة هذا الفرعون ضد شعوب البحر، يحكي عن وصول الجيش المصري إلى شمال فلسطين سعياً وراء فلول القوات المتراجعة[41].

أمام كل هذه الحقائق التاريخية والأركيولوجية، لا نستطيع الاتفاق مع كمال الصليبي في نقل «بيت شان» السجلات المصرية إلى غرب العربية، حيث وجد مكانها في موقع «الشنية» في منطقة الطائف (ص ٢٠٩ ـ ٢١٠) ولا نستطيع مجاراته في القول بأن الباحثين من شتى المشارب قد أساؤوا تفسير السجلات الطبوغرافية المصرية، وهو قول ما انفك يردده عبر كتابه.

ترك لنا سيتي الأول أيضاً عدداً من الرسوم على جدران الكرنك تصور معاركه في آسيا وأفريقيا، ومع كل رسم نص توضيحي قصير. وسنقدم فيما يلي ترجمة للنصوص المتعلقة بحملاته الآسيوية[42].

[في السنة الأولى لحكم ملك مصر العليا والسفلى، بطشت يد الملك الجبار بأعدائه من «الشاسو» من حصن «صايل» إلى «كنعان»، حيث تغلب عليهم جلالته كأسد هصور فجعلهم أشلاء تسبح في دمائها بالأودية]. وقد كتب هذا النص تحت صورة تظهر حصار الجيش المصري لمكان محصن غير محدد الهوية. أما الشاسو المذكورون هنا فهم، كما يقول خبراء النصوص

41- Kathleen Kenyon, op. cit pp. 201-204, 227

42- John A. Wilson, op. cit, PP. 254-255

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصرية، البدو المتجولون في جنوب فلسطين وشمال العربية[43]، ويبدو أن الفرعون قد طارد هؤلاء حتى وصل إلى بعض المدن الكنعانية التي كان حكامها يستأجرونهم أو يحرضونهم على العصيان.

وهناك مشهد يصور استيلاء الجيش المصري على بلدة «ينوم» الكنعانية وقد ذكر تحت المشهد اسم المدينة دون أي شرح. ويبدو أن هذه المعركة هي معركة ينوم نفسها الواردة في نصب بيت شان التذكاري. ومشهد آخر يصور مجموعة من الآسيويين تقطع الأشجار في بلدة أشار النص المرافق إلى حاكمها بأنه أمير لبنان العظيم. ومشهد يصور عودة الفرعون المظفرة من حملة له في سورية كتب تحته: [عودة جلالته من ريتينو العليا، بعد أن وسع حدود مصر. ومشهد يصور قيام الفرعون بتقديم القرابين للآلهة بعد عودته من قتال الحثيين نقرأ تحته: [تقديم القرابين من الاله الطيب - أي الفرعون - إلى أبيه آمون رع، لدى عودته من بلاد حاتي بعد سحق المتمردين ومحق الآسيويين وبلدانهم، وقد أتى معه بأمراء ريتينو الأنذال ليضعهم في معبد أبيه آمون رع].

وهناك مشهد يصور حصار مدينة قادش السورية كتب تحته: [صعود الفرعون لتدمير قادش وبلاد آمورو]. ومما يؤكد أن قادش المذكورة في هذا النص هي قادش بلاد الشام، العثور على بقايا حجر تذكاري للفرعون سيتي الأول في موقع المدينة السورية المكتشفة[44].

رمسيس الثاني - الوفاق الدولي:

تابع «رمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م) ما بدأه سيتي الأول من

43- د. محمود عبد الحميد أحمد، الهجرات العربية القديمة، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨، ص ١٩٥.

44- John A. Wilson, op. cit P.254

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعادة النفوذ المصري الى مناطقه التقليدية في بلاد الشام، بعد فترة الانحسار التي ابتدأت بحكم الفرعون اخناتون، وهي الفترة التي نشط خلالها الحثيون وبسطوا نفوذهم تدريجاً على معظم مناطق بلاد الشام. وكما فعل سيتي الأول، فقد ترك لنا رمسيس الثاني عدداً من النُصب التذكارية في بلاد الشام، أهمها النصب الذي تم العثور عليه في موقع بيت شان بفلسطين، وقد نُقش عليه: [في السنة التاسعة، الشهر الرابع من الفصل الثاني، اليوم الأول. عند طلوع الفجر تمت هزيمة الآسيويين. جميعاً أتوا صاغرين ينحنون أمامه في قصره في «بير - رمسيس - مير ي - آمون» اسم مدينة رمسيس في الدلتا][45]. وهناك أيضاً ثلاثة نصب تذكارية أخرى تركها رمسيس الثاني عند مصب نهر الكلب بين بير وت وجبيل، ولكنها أخرجت من الموقع في حالة مهشمة لا تسمح بالقراءة الواضحة لنصوصها[46].

وكان لا بد لنشاطات هذا الفرعون الطموح من أن تصطدم بعناد الحثيين وتصميمهم على الاحتفاظ بمناطق نفوذهم، وهم القوة العظمى الثانية في المنطقة إلى جانب مصر بعد أفول بابل، فقامت بين الامبراطوريتين حروب شرسة أهمها معركة قادش على ضفة نهر العاصي عام ١٢٨٦ق.م، التي خلدها الفرعون في نص مفصل طويل، نقتطف فيما يلي بعض فقراته ونلخص الأخرى[47].

[السنة الخامسة، الشهر الثالث من الفصل الثالث، اليوم التاسع.. توجه جلالته إلى بلاد «زاهي» في حملته المظفرة الثانية. نصب معسكره على التلال الواقعة إلى الجنوب من قادش. وعندما أخذ بالتحرك شمالاً ووصل إلى

45- Ibid, P.255

46- Ibid, P.255

47- W. McNeill and J. Sendlar, the Ancient Near East, Oxford University, London 1968, PP. 16-19

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلدة «شاباتونا»، أتاه اثنان من «الساشو» وقالا له أنهما ينتميان إلى أكبر الأسر العاملة إلى جانب ملك الحثيين المهزوم، وأنهما وأصحابهما سيتركون الحثيين وينضمون إلى الفرعون. كما أبلغاه بأن ملك الحثيين يعسكر في أراضي «حلب» إلى الشمال من «تونيب» ويخشى التقدم جنوباً فزعاً من جلالة الفرعون]. وقد تبين فيما بعد أن هذين البدويين كانا جاسوسين لملك الحثيين، وأنهما أبلغا الفرعون نبأ كاذباً ليتقاعس عن المضي شمالاً لملاقاة العدو. وبينما كان المصريون آمنين في معسكرهم جنوبي مدينة قادش وصل الحثيون إلى تخومها وتهيأوا للمفاجأة [فوصل ملك الحثيين ومعه ملوك بلدان عديدة بمشاتهم وعرباتهم، ساقهم إلى جانبه عنوة وقسراً، واصطفوا للقتال خلف قادش المدينة المراوغة. وعندما علم جلالته بالأمر حرك قواته شمالاً ونزل إلى الشمال الغربي من قادش]. وهناك قبض جنوده على جاسوس للعدو أخبر الفرعون بمعلومات هامة عن مواقع الحثيين وقواتهم التي رفدتها جيوش من «نهارين» و«كود» كاملة العدد والتجهيز. وبينما كان يعقد اجتماعاً لقادته على عجل، أطبق عليهم الحثيون فتضعضعت قوات المصريين غير أن شجاعة الفرعون واقدامه قد رجحت كفة الميزان، حيث أعمل في الخصوم تقتيلاً بيده وسلاحه ورمى بجثثهم في نهر العاصي .

لا يمكن لمسرح هذه المعركة أن يكون في غرب شبه الجزيرة العربية (انظر خريطتنا رقم ٥) فجميع المواقع المذكورة في هذا النص قد حددنا أماكنها في بلاد الشام. فرمسيس الثاني يتحرك على الطريق الساحلي عبر بلاد «زاهي» وهي في النصوص المصرية المناطق الساحلية لفسطين ولبنان (انظر الصفحة ٤٧ سابقاً) ثم يتابع مسيرته شمالاً ليعسكر إلى الجنوب من مدينة «قادش» (انظر الصفحة ٦١ سابقاً). أما قوات الحثيين فتتجمع في أراضي حلب شمال «تونيب» (انظر الصفحة ٥٤ سابقاً) ترفدها قوات من «نهارين» و«كود» (انظر الصفحة ٤٤ سابقاً) ويتقدم الحلفاء إلى شمالي موقع قادش حيث تقع المعركة على ضفاف نهر العاصي (ويدعى بالهير وغليفية المصرية Yarnet

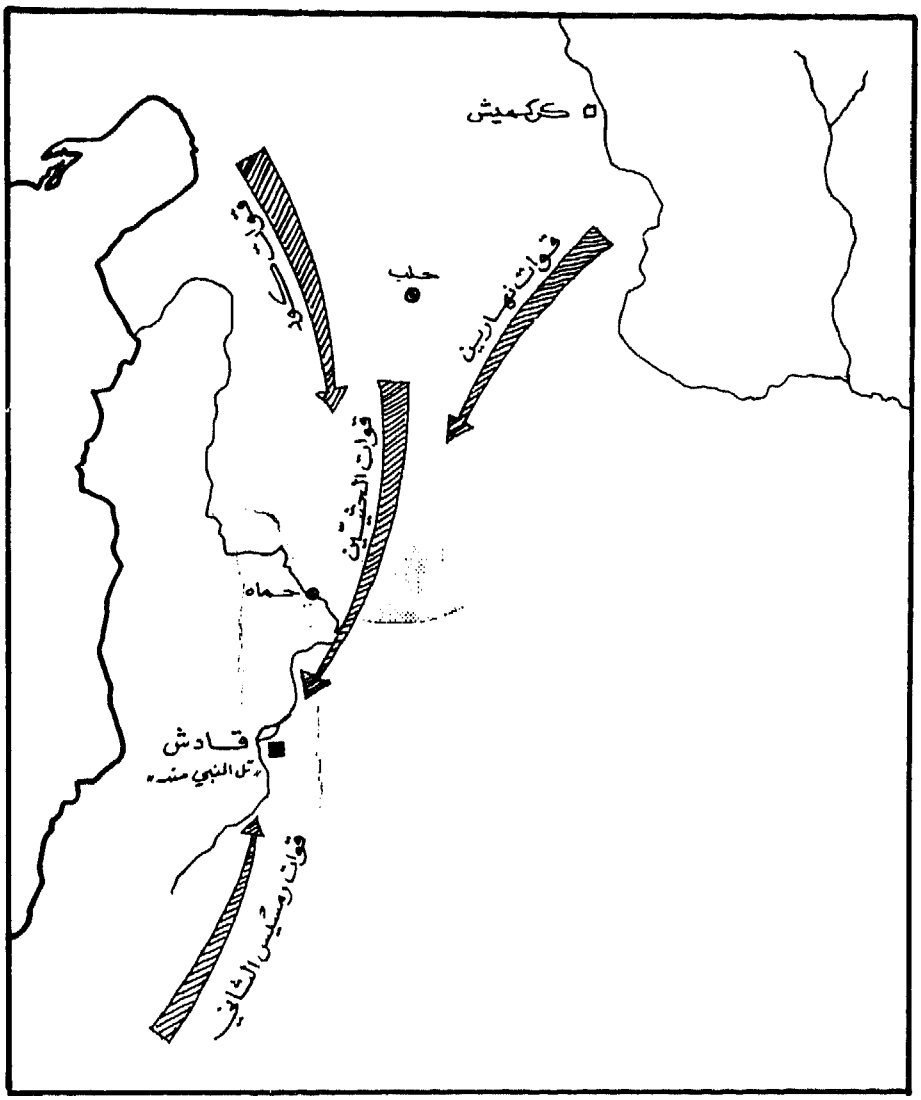

الخارطة رقم (٥) ـ معركة قادش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي يقابلها باليونانية Orontes) .

لم تكن معركة قادش هي الفاصلة، بين القوتين الأعظمين، فقد استمرت المناوشات بينهما طيلة ستة عشر عاماً تلت ذلك، انتهت بتوقيع معاهدة بين الطرفين تعتبر من أشهر معاهدات العالم القديم، حيث أطلقت يد الحثيين في مناطق بلاد الشام الواقعة إلى الشمال من قادش واحتفظ المصريون بسيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب منها. وقد تم اكتشاف نسختي المعاهدة في موقعين يبعدان عن بعضهما آلاف الأميال. فالنص الحثي للمعاهدة وجد في مدينة «حاتوسس» عاصمة الحثيين في الأناضول التي اكتشفت قرب «بوغازكوي»، وهو مكتوب باللغة الأكادية، والنص المصري وجد على جدار معبد آمون في «طيبه» بمصر وهو مكتوب بالهير وغليفية المصرية[48]. وقد أعقب المعاهدة زواج رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي «حاتوشيلي».

نصوص أدبية :

ترك المصريون القدماء نصوصاً أدبية كثيرة، لا يقل بعضها عن الوثائق التاريخية أهمية نظراً لما تتضمنه من معلومات دقيقة ووصف مفصل للأحداث والأمكنة. مثل قصة «سنوحي» و«الأخوين» و«وينامون» ورسالة «أمين - رام أوبت». وقد اخترنا النص الأخير لعلاقته الوثقى بموضوعنا، وهو عبارة عن رسالة موجهة من كاتب القصر الملكي المدعو «أمين - رام - أوبت» إلى موظف رسمي تحت التدريب يتهيأ للسفر إلى خارج أراضي المملكة، ينقل له فيها معلومات جغرافية عن مواطن عمله المقبل. وسنقتطف من الرسالة المقاطع

48- Ibid, PP. 42-43

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتعلقة ببلاد الشام[49].

[. . أنت تقول أنك كاتب ماهر. فان كان ذلك صحيحاً، هلم إلى الاختبار. هذا حصان مسرج لأجلك، سريع كابن آوى، وكالزوبعة في انطلاقه. . أنت لم تذهب بعد إلى بلاد «حاتي»، ولم تر أرض «أوبه» ـ Upi ، ولم تعرف شيئاً عن «خيديم» ـ Khedem ، ولا عن طبيعة «يجدي» ـ Yegdy ، كيف تبدو «سيميرا» رمسيس؟ وإلى أي جهة منها تقع مدينة «حلب» ـ Halba ، وكيف هو مجراها. أنت لم تذهب إلى «قادش». ولا إلى «توبيخي» ـ Tubikhi ، أنت لم تذهب إلى أقاليم البدو مع نبّالة الجيش... دعني أخبرك عن مدينة أخرى هي «جبيل»، كيف منظرها وما آلهتها، فأنت أيضاً لا تعرفها، عن «صيدون» و«بيروت» و«ساريبتا» ـ Sarepta ، وأين يجري نهر «الليطاني». كيف تبدو «أوزو» ـ Uzu ، ومدينة في البحر أخرى اسمها «صور» الميناء، التي يحمل اليها ماء الشرب بالقوارب، وفيها السمك أكثر عدداً من الرمال].

يبدأ كاتب الرسالة، في هذا المقطع، بوصف جغرافية بلاد الشام من الشمال ثم ينحدر نحو الجنوب. فالرحلة المتخيلة تبدأ من بلاد الحثيين والمناطق السورية الشمالية الواقعة تحت سيطرتهم والتي كان المصريون يطلقون عليها ايضاً اسم «حاتي»، ثم تتجه جنوباً نحو منطقة دمشق التي كانت تتبع في ذلك الوقت مقاطعة «أوبه» وعاصمتها «كوميدو» في البقاع الجنوبي (كامد اللوز الآن) وذلك قبل أن تتحول إلى مملكة آرامية[50]. ومنها تنعطف نحو المنطقة الساحلية مبتدئة بمدينة «سميرا» عاصمة مملكة «آمورو» (انظر الصفحة ٦٠ سابقاً) في منطقة طرطوس الحالية. وهنا يطرح كاتب الرسالة سؤالاً على

49- John A. Wilson, Egyptian Letters (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969), p. 476

50- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨، ص ٥٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموظف المتدرب للإجابة عليه، فمن أين يتجه المسافر من سيميرا إلى حلب وأي طريق يأخذ؟ من سيميرا تسير الرحلة بمحاذاة الساحل فتصل إلى «جبيل» الميناء الكنعاني الرئيسي الذي كان المصريون على احتكاك به منذ مطلع عصر الأسرات، ومنها جنوباً إلى «بيروت» و«صيدون» و«ساريبتا» المدينة الفينيقية الهامة التي تم اكتشافها مؤخراً بين صيدا وصور على الساحل اللبناني[٥١]. أما عن مدينة «صور» فيقدم النص وصفاً دقيقاً لموقعها، فهي تتألف من قسمين قسم بحري يقع على جزيرة تبعد مسافة ميلين فقط عن الشاطيء واسمه صور، وقسم بري يقع على البر المقابل تماماً واسمه «أوزو». ومن المعروف تاريخياً أن هذه المدينة بقيت موزعة بين البر والبحر حتى حملة الاسكندر الأكبر الذي وصل بين المدينتين لأغراض عسكرية. بعد ذلك تتابع الرحلة مسيرتها إلى شواطيء فلسطين ثم تنعطف نحو أراضيها الداخلية.

[. . تعال ضعنا على الطريق جنوباً نحو اقليم «عكا»، إلى أين ينتهي الطريق الآتي من «أكشف» إلى أي مدينة؟. أخبرني عن جبل «أوزير» - Oser، كيف تبدو قمته؟ وعن جبل «شكيم». من أين يبدأ الكاتب رحلته إلى «حاصور» وكيف هو مجراها؟ ضعني على الطريق إلى «حمث» و«دجر» و «دجرإيل - Deger El. تعال دعني اخبرك عن مدن تقع فوقها (يلي ذلك عدد من المواقع التي لم يمكن التعرف على معظمها، ثم يعود كاتب الرسالة إلى حيث انطلق). اخبرني عن «رحوب» و«بيت شان» وترقا ايل»، عن نهر الأردن وكيفية عبوره، وكيف الوصول إلى «مجدو». .].

في المقطع أعلاه، تجتاز الرحلة المتخيلة رأس الناقورة نحو «عكا» ثم تتجه غرباً إلى الأراضي الداخلية لفلسطين فتجتاز «أكشف» التي يعتقد أنها «تل كيسان» في وادي عكا جنوب الجليل وتصل إلى «شكيم» التي اكتشف موقعها قرب مدينة «نابلس» الحديثة، وجبلها الذي يدعى اليوم بجبل

51- Harvey Weiss, Ebla To Damascus, Smithoniun Institution 1985, P.264

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نابلس، ثم تتحرك جنوبا مسافة ليست بالبعيدة إلى «حاصور» التي اكتشف موقعها تحت «تل القدح» في وادي الاردن. وهنا ينعطف خط الرحلة نحو الشمال إلى «رحوب»، وهي «تل الصارم على بعد ثلاثة أميال جنوب «بيت شان» (بيسان)، فبيت شان، وهناك يتوقف المسافر ليلقي نظرة على نهر الاردن القريب ويتساءل عن كيفية عبوره، ثم يتجه غرباً نحو «مجدو» وفي نهاية الرحلة يتم الوصول إلى قرب الحدود المصرية:

[إيه أيها الكاتب، أين كل تلك المدن؟ و «رفح» - Raphia كيف تبدو أسوارها، وما المسافة بينها وبين «غزة»؟].

وهكذا يقدم لنا هذا النص الفريد صورة واضحة متكاملة لجغرافية بلاد الشام بمدنها وأسمائها القديمة، وخصوصاً مدن الساحل الكنعاني، وفلسطين الداخلية التي حافظت على اسمائها الى فترة السيطرة السياسية للإسرائيليين، دون أن يكون لهؤلاء الاسرائيليين يد في تسميتها باسماء مواقع كانت معروفة في غرب شبه الجزيرة العربية، وهو المبرر الأساسي لتشابه اسماء المواقع في رأي كمال الصليبي.

وإذا كان من المستحيل، كما هو واضح لأي قارىء لهذا النص، مطابقة مضمون رسالة كاتب القصر الملكي الفرعوني، الذي كان بمثابة سكرتير للخارجية في قصر الفرعون، على المواقع التي يفترضها الصليبي في غرب العربية، فان ذلك يستتبع نتيجة هامة مفادها أنه اضافة إلى الحملات المصرية التي كانت موجهة نحو بلاد الشام، فان هذه المنطقة أيضاً كانت محور الديبلوماسية المصرية في المشرق، وأن غرب العربية لم يكن له وجود، لا في الاعتبارات العسكرية ولا في الاعتبارات السياسية المصرية.

نتائج وتساؤلات:

إن النصوص التي قدمناها في هذا الفصل ليست إلا غيضاً من فيض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السجلات المصرية القديمة التي قمنا بدراستها، والتي لا يمكن لهذا العمل المحدد الهدف أن يستوعبها أو يفيها حقها. ونستطيع القول بكل ثقة، أننا لم نعثر على نص واحد يمكن أن تنطبق معطياته على الخريطة القديمة التي يفترضها كمال الصليبي لغرب شبه الجزيرة العربية. إلا أنه يتوجب علينا، توخياً للدقة والحذر العلمي، أن نعترف بوجود نص واحد غامض، هو سجل حملة الفرعون «شيشانق الأول» (٩٤٥ - ٩٢٤ق.م)، فالنص مليء بأسماء المدن والمواقع التي قهرها شيشانق في حملته الآسيوية، ومعظمها لم يمكن التعرف عليه إلا بشكل تقريبي في فلسطين وسورية. يضاف إلى ذلك تناقض معلومات النص مع بعض الحقائق التاريخية، فمملكة «ميتاني» التي يتباهى الفرعون باخضاعها لم تكن قائمة في زمنه. وقد ركز السيد كمال الصليبي على سجل حملة شيشانق وأفرد له فصلاً كاملاً في كتابه، فتتبع مسار حملة شيشانق في غرب العربية وطابق الكثير من أسماء الأماكن الواردة فيها على أسماء مواقع قائمة اليوم في غرب العربية، إلا أن مطابقاته لم تكن بأحسن حالاً من المطابقات التي جرت على المواقع الفلسطينية. ويبقى هذا السجل، في رأينا، محاطاً بالغموض واشارات الاستفهام. إلا أن ما يرجح أن مسرح حملة شيشانق كان في فلسطين وسورية، العثور على نصب تذكاري في موقع «مجدو» بفلسطين يحمل اسم ذلك الفرعون، وعلى قاعدة تمثال في مدينة «جبيل» على الساحل اللبناني تحمل اسمه ايضاً. وإذا كان من المؤكد أن النصب التذكاري في فلسطين قد أقيم تخليداً لانتصارات عسكرية، فان تمثال جبيل كان عربون علاقات ودية بين البلدين ودلالة نفوذ سياسي مصري[٥٢].

وقد وردت أخبار حملة شيشانق على مملكة يهوذا في التوراة، ونعلم أنها تمت في عهد «رحبعام» ابن الملك سليمان، أي خلال السنوات الأخيرة لحكم شيشانق الأول. نقرأ في سفر الملوك الأول ١٤ : ٢٥ - ٢٧ [وفي السنة الخامسة

52- John A. Wilson, Egyptian Historical Texts, op. cit, p 264

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخـزائن بيت الملك، وأخـذ كل شيء وأخـذ أتـراس الـذهب التي عملها سليمان. فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس..].

وفي الحـقـيـقـة، يمـكـن لعلم الآثـار أن يلقي ضوءاً على ما ورد في السجـلات المصـريـة وفي كتاب التوراة حول حملة شيشانق. ففي العديد من المواقع الكنعانية في فلسطين استطاع المنقبون تمييز طبقات تعود إلى مطلع فترة المملكـة المنقسمـة التي اعقبت موت الملك سليـمان عام ٩٣٠ق.م، وهـذه الطبقات قد تم تدميرها بشكل عنيف في تاريخ يتقارب وتاريخ حملة الفرعون شيشـانق الأول. فمـوقـع «تـل أبو حوام» على سبيل المثال قد دمر تماماً وبقي مهجـوراً لعـدة قرون تلت ذلـك. وفي «تـل بيت مرسيم» تم تدمـير المـدينـة القديمة بكاملها ثم اعيد بناؤ ها مجدداً. وتركت آثار الحرائق في «بيت شمش» طبقة كثيفة من الرماد غطت المستوى السابق تماماً[٥٣].

إن هنـاك أكثـر من مفتـاح لحل غوامض بعض الأحـداث والنصـوص التاريخية، وليس منهج مقابلة أسماء المواقع بأجداها.

وإذا كانت دراستنـا للسجـلات المصـريـة قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك في أن هذه السجلات انما تروي أحداثاً وقعت في بلاد الشام لا في غرب العـربيـة، وأن علاقـات مصـر السيـاسيـة والديبلوماسية كانت قائمة مع هذه المنطقـة منـذ بدايات التاريخ المكتوب لا مع غرب العربية، وان اسماء الأماكن الكنعـانيـة الـواردة في التـوراة، هي لمواقـع قديمـة موجودة في بلاد الشام قبل الظهـور السيـاسي للاسـرائيليـين، فان في ذلـك كله مقدمة للبرهان على أن مسرح الحدث التوراتي كان في الشام لا في غرب العربية. وهو البرهان الذي سوف نتابع حلقاته عبر الفصول المقبلة.

وأخـيـراً يحق لنـا أن نتسـاءل: إذا كانت المعلومـات الـواردة في كل

53- Kathleen kenyon, op. cit PP. 174-275

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السجلات المصرية تتعلق بأماكن وأحداث جرت في غرب العربية، فأين السجلات المتعلقة ببلاد الشام؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - سجلات وادي الرافدين

كان السومريون أول من أسس لمجتمع المدينة في تاريخ الحضارة، إلا أنهم لم يعنوا بتشكيل دولة قومية تجمع شتات دويلات المدن التي عاشت في شقاق دائم وحروب دامية فيما بينها. وعندما تنبه المجتمع السومري إلى ضرورة التوحيد، كانت حضارته تقطع أشواطها الأخيرة في نهايات الألف الثالث قبل الميلاد، وكان الأكاديون الساميون الذين بدأوا بتنظيم مجتمعهم في شمال سومر يتحفزون لقطف ثمار الحضارة السومرية التعبة. لقد جاءت الوحدة السومرية في وقت متأخر جداً وضمن شروط لم تسمح لها بالحفاظ على مكتسباتها، فعندما قام ملك «أوروك» «لوغال زاغيزي» بتوحيد دويلات سومر وكامل بلاد الرافدين (٢٣٧١ - ٢٣٤٧ق. م) والاتجاه بأنظاره نحو بلاد الشام، انتزع الامبراطورية الغضة من يده ضابط أكادي اسمه «صارغون» الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكماً لمدينة «كيش» السومرية ثم أنشأ لنفسه سلطة في «أكاد» قرب الموقع المقبل لبابل[1].

وقد بدأت المحاولات التوسعية باتجاه بلاد الشام مع تكوين الدولة المركزية الموحدة في بلاد الرافدين. فمن سجلات «لوغال زغيزي» نعرف أن

1- ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية بيروت ١٩٨١، ص ٧٤ - ٧٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطته قد امتدت من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى الذي أتى من جباله بخشب الأرز. وهاتان التسميتان تشيران، كما هو معروف في كل سجلات وادي الرافدين، إلى الخليج العربي وهو البحر الأدنى، والبحر المتوسط وهو البحر الأعلى . ولكن يبدو أن حملات هذا الملك السومري ضد بلاد الشام لم تكن بهدف توسيع حدود امبراطوريته، بل لتزويد سومر بالمواد الأولية المفقودة في البلاد مثل الأخشاب. أما الاجتياح المنظم لبلدان شرق الرافدين فقد بدأ منذ عهد خليفته «صارغون الأول» (٢٣٧١ ـ ٢٣١٦ق.م)، نقرأ في اول وثيقة أكادية عن الحروب في بلاد الشام ما يلي:

[صارغون، ملك أكاد، ناظر الالهة عشتار، ملك «كيش». كاهن الاله آنو الممسوح، ملك البلاد، «إنسي»* الاله انليل. هزم «أوروك» وهدم أسوارها وانتصر في معاركه على أهلها. قبض على «لوغال زغيزي» ملك أوروك، في القتال، وجره من طوق إلى رقبته حتى بوابة إنليل. صارغون ملك أكاد انتصر في معاركه على أهل «أور» وهدم أسوار مدينتهم. هزم مدينة «انمار» وهدم أسوارها، وهزم المناطق التابعة لها من «لجش» وحتى البحر. انتصر في معاركه على أهل «أوما» وهدم أسوارها. الاله انليل جعل الكل يخضعون لحكم صارغون ملك البلاد، وأعطاه السلطان من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى. فبدءاً من البحر الأدنى يمسك الأكاديون بزمام الحكم، وقد وقفت «عيلام» و«ماري» طائعة أمام صارغون ملك البلاد. استعاد «كيش» وأمر أهلها بتولي مقاليدها.

صارغون، ملك «كيش» أحرز نصراً في أربع وثلاثين حملة، وغنم كل البلدان حتى شاطيء البحر. عند رصيف أكاد صنع سفناً أكثر من سفن «ملوحه» ـ Meluha و«ماجان» ـ Magan و«تيلمون» ـ Telmun . صارغون سجد في صلواته أمام الاله «داجان» في «توتول» ـ Tutul فأعطاه حكم الأقاليم

---

* ـ «انسي» هو لقب ملوك الدويلات السومرية. ويعني الملك ـ الكاهن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العليا: «ماري» و «لارموتي» - Larmuti و «إيبلا» إلى غابة الأرز والجبل الفضي . .][2].

تحدد هذه الوثيقة التاريخية منذ البداية، المجال الحيوي للامبراطورية الناشئة في بلاد الرافدين، التي أسسها الأكاديون ثم ورثها البابليون فالآشوريون، فنحو الشرق كان توسعها باتجاه «عيلام» والهضبة الايرانية، ونحو الغرب باتجاه الجزيرة العليا والأناضول وبلاد الشام. في النص أعلاه نجد صارغون يستولي على المدن السومرية واحدة تلو الأخرى: أوروك وأور وانسار ولجش وأوما وكيش. بعد ذلك يتوجه شرقاً فيستولي على عيلام العدو التقليدي للممالك السومرية، وينقلب غرباً نحو الفرات حيث يسجد أمام الاله «داجان» أحد الآلهة الرئيسية للساميين الغربيين، وذلك في مدينة توتول الواقعة على رافد «البليخ»[3]، فيعطيه حكم الأقاليم العليا بحاضرتيها الرئيسيتين ماري وإيبلا.

وكانت مدينة ماري في ذلك الوقت عاصمة لدولة سورية قوية مزدهرة شملت حوض الفرات الأوسط والأعلى. وقد تم اكتشافها على الضفة اليمنى لنهر الفرات تحت تل الحريري قرب مدينة «أبو كمال» عام ١٩٣٣ من قبل بعثة فرنسية. وكان أهم ما عثر عليه المنقبون بين أنقاضها أرشيفات القصر الملكي التي ضمت خمسة وعشرين ألف لوحاً مكتوباً، معظمها سجلات تجارية وسياسية ساعدت على فهم وتعديل الكثير من معلوماتنا التاريخية[4]. أما مدينة إيبلا التي تقع في قلب السهول السورية الشمالية، فكانت عاصمة

2- Leo Openheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts (In: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 267

3- اندرية بارو، ماري، ترجمة رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٩، ص ١٧٤.

4- المرجع نفسه ص ١٦٩ - ١٧٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدولـة مترامية الأطراف امتدت من حوض الفرات شرقاً إلى حوض العاصي غربـاً، ومن جبـال طوروس شمالاً إلى حدود مملكـة «حمـاة» في أواسط سورية جنوباً. وقد تم اكتشافها تحت «تل مرديخ» الواقع إلى الجنوب من مدينة حلب بحوالي ٥٠ كم، خلال التنقيبات التي ابتدأت في الموقع منذ عام ١٩٦٤. وقد عثـر المنقبـون في انقـاض قصرها الملكي أواخر السبعينيات على أرشيف ملكي يضم حوالي ١٦٠٠٠ لوحـاً مكتـوبـاً أحـدثت انقـلابـاً في معلوماتنا عن تاريخ سورية خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وترجح القراءات الأولى لوثائق ايبلا ورود اسم صارغـون وأكـاد، حيث يرد اسم صارغـون بالتهجئـة الايبـلائيـة «شارغينو» ـ Sharginu ، وأكاد «أينكادو» ـ A. En Ga-Du [٥].

بعـد ماري وايبـلا يتـابـع صارغـون الأكـادي في حملتـه الموثقة أعلاه، مسـيرتـه شرقـاً إلى غابـة الأرز في جبـل «الأمـانوس» على الساحل السوري الشمالي، وهو جبل ما زال إلى يومنا هذا ممتلئاً بشجر الأرز.

ثم يعقب صارغـون الأول «نارام سن» الذي وطد أركان الامبراطورية بحمـلاتـه الشـرسـة. ولدينا نص يتحدث عن اعادة فتح المناطق الغربية التي اجتاحها صارغون من قبله: [. . . منذ عهد البشرية الأول، لم يتسن لملك أن يدمـر مدينتي «ايبـلا» و«عـرمـان» ـ Arman ، ولكن الالـه «نـرجـال» قد فتح الطريق أمام نارام سن العظيم وأعطاه إيبلا وعرمان وأهداه جبل الأرز والبحر الأعلى][٦]. وهكذا نجد أن أبكر الحملات التي قام بها حكام وادي الرافدين، غربـاً، كانت موجهـة ضد بلاد الشـام. ولسوف نثبت بالدليل القاطع فيما يلي من هذا الفصل أن كل الحملات التي تلت كانت في الاتجاه نفسه، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية.

لم تكمل الأسرة الصارغونية قرنها الثاني في الحكم عندما هاجمها البرابرة

5- Paolo Matthiae, Ebla, Haddar And Stoughton, London 1980, PP. 47, 169, 167, 176

6- Leo Oppenheim, Op. Cit, P. 268

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الجوتيون» ـ Gutian القادمون من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية حوالي عام ٢٢٣٠ق.م، واستولوا على سومر وأكاد قرابة قرن من الزمان. وخلال هذه الفترة تسلل العموريون الساميون إلى أكاد وأخذوا يتمركزون بشكل رئيسي في منطقة «بابل». وعندما قاد السومريون الجنوبيون حملات التحرير ضد الجوتيين وطردوهم من وادي الرافدين، كانت مدينة بابل هي وريثة أكاد كعاصمة للدولة الموحدة الجديدة التي أقامتها الأسرة العمورية الأولى . وقد قام «حمورابي» (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م)، أقوى ملوك هذه الأسرة بتوحيد كل وادي الرافدين واستعادة مافقده الأكاديون في الشرق وفي الغرب. ولكن دور بابل في بلاد الشام قد أخذ بالتراجع أمام القوة الصاعدة لمملكة ميتاني ومملكة الحثيين من بعدها. وعندما هاجم الحثيون بابل نفسها ونهبوها عام ١٥٩٥ق.م فتحوا المجال أمام البرابرة الشرقيين المتر بصين بها، فهاجمها «الكاشيون» الذين حكموا سومر وأكاد حتى عام ١١٦٩ ق.م[٧].

وفي هذه الأثناء، كانت الحملات المنظمة التي شنها فراعنة الأسرة الثامنة عشر بعد طرد الهكسوس قد بدأت، مما أدى إلى اصطدامهم بالميتانيين أولاً ثم بالحثيين، مما رأيناه في الفصل السابق. وعندما انهارت الدولة الحثية أمام ضربات شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق.م، ودخلت مصر مرحلة كمونها الطويل بعد رمسيس الثالث المعروف بحروبه ضد شعوب البحر، أصبح الطريق ممهداً أمام الدولة الآشورية لاستعادة وحدة وادي الرافدين والتطلع نحو المناطق السابقة للنفوذ البابلي في بلاد الشام (من أجل أرض آشور انظر الخريطة رقم ٦).

سجلات آشور ـ تغلات فلاصر الأول:

تقدم لنا السجلات الآشورية أكثر النصوص غزارة وأهمية بالنسبة إلى

7- أرنولد توينبي، المرجع أعلاه ص ص ٩٣ ـ ٩٤.

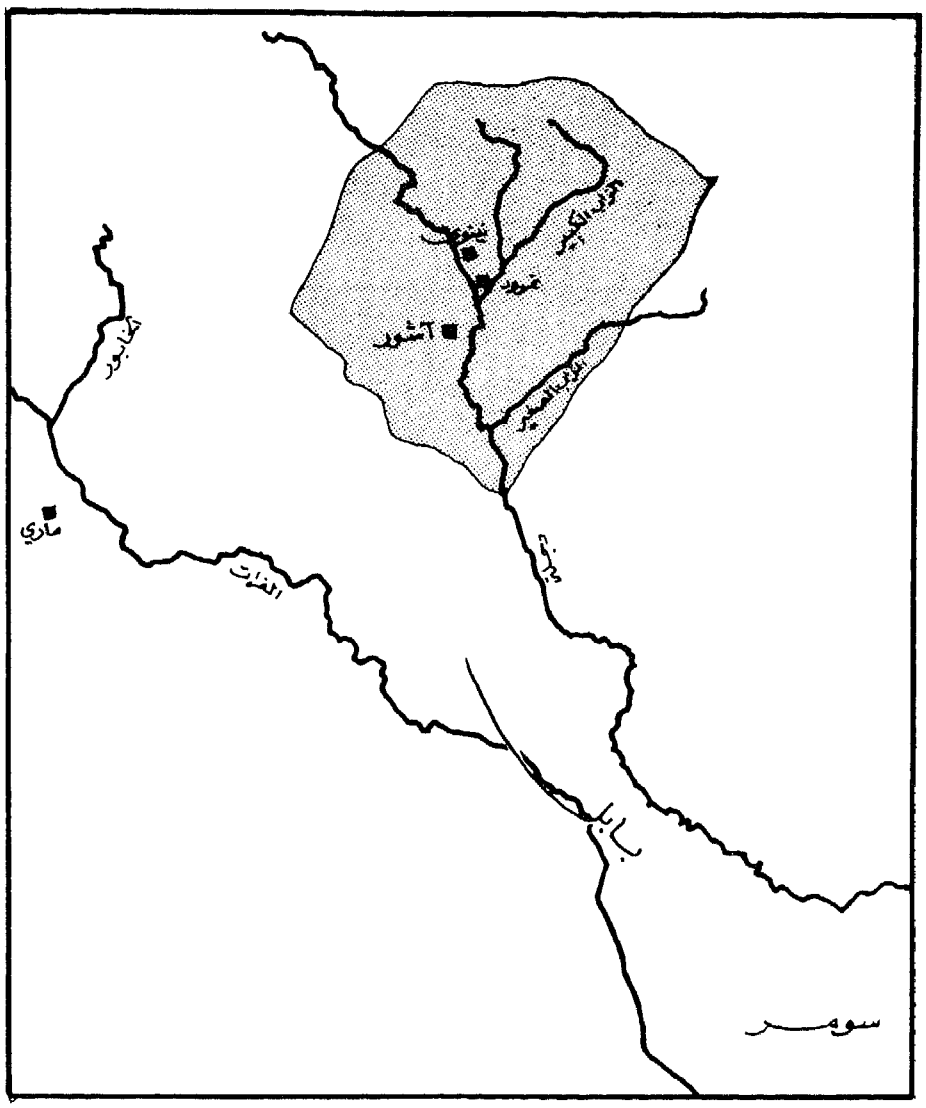

الخارطة رقم (٦) ـ أرض آشور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضـوعنـا، وتأتي مدونـات الملك «تغـلات فلاصر الأول» (١١١٤ ـ ١٠٧٦ ق.م) فاتحـة لوثـائق حروب آشـور في بلاد الشـام. نقرأ في نص وجد في معبد الإلهين «حدد» و «آنو» بمدينة آشور ما يلي:

[تنفيـذاً لأوامـر الهي «آشـور» فقـد قهـرت البلدان الـواقعة بين الزاب الأدنى والبحر الأعلى الذي في الغرب... مضيت إلى «لبنان» ـ Lab-na-a-ni حيث قطعت أخشـاب الأرز لبنـاء معبـد آنـووحـدد، ثم تابعت التحرك نحو «آمـورو» وأخـذت كل بلاد آمـورو. تلقيت الجـزيـة من «جبيـل» ـ Gu-bal و «صيدون» ـ Si- Du- ni و«أرواد» ـ Ar-ma-da . عبرت بسفن أرواد عند شاطيء البحـر إلى مدينـة «سيمـيرا» ـ Samuri التي في بلاد آمـورو على مسـافة ثلاثة أميـال مضـاعفـة داخـل البر... وفي طريق عودتي اخضعت جميع بلاد حاتي وفرضت على ملكها «ايلي تيشوب» جزية..][8].

يقـدم لنـا هذا النص صورة جغـرافيـة وطبوغرافية مطابقة للصورة التي قدمتها لنا السجلات المصرية. فالملك الآشوري يتجه نحو الغرب إلى البحر الأعلى، البحـر المتـوسـط، حيث جبـال لبنـان (بـالأكـادية كما ورد في النص «لَبنـاني») فيقتطـع من هناك خشب الأرز، وتأتيه من الموانيء الكنعانية القريبة جزيـة مدينـة «جبيـل» (بالأكادية جُبَلْ) وصيدون (بالأكادية صيدوني) وأرواد (بالأكادية أرمادا) بعد ذلك يبحر على السفن الارودية إلى سيميرا (بالأكادية سَمـوري) عاصمـة مملكـة آمـورو مسـافـة ثلاثة أميال مضاعفة، وهي المسافة الحقيقية بين ارواد و«تل الكزل»(*) حيث تجري التنقيبات الآن عن مدينة سيميرا القـديمـة (انظر الصفحة ٦٠ سابقاً). وفي طريق عودته يخضع بلاد حاتي التي

8- Leo Oppenhiem , op. cit, P.275

* ـ يقـع تل الكـزل في سهـل صافيتـا الساحلي على بعد ٢٨ كم الى الجنوب من طرطوس على الضفة اليمنى لنهر الأبرش. وقد بقي اسم الموقع القديم «سيميرا» محفوظاً في مسميات ←

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقصد بها في النصوص الآشورية دويلات الشمال السوري مثل «كركميش» و «حداتو» (أرسلان خاش) و «شمأل» (تل زنجرلي على السفح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السوري)، وغيرها مما سيمر ذكره معنا لاحقاً، وقد كانت هذه الدويلات واقعة تحت النفوذ الحثي قبل انهيار الامبراطورية الحثية أواخر الألف الثاني قبل الميلاد واستمرت تسمية «حاتي» تطلق عليها بعد ذلك، وقد انساق المؤرخون الحديثون في اطلاق اسم الدويلات الحثية الجديدة على هذه المناطق وهي تسمية خاطئة (كما ألمحنا سابقاً) مستمرة بحكم التعود، ذلك أن اكتشاف معظم المواقع القديمة لهذه الدويلات وقراءة سجلاتها ودراسة فنونها، قد اثبتت بطلان التسمية، فالمنطقة سورية بشتى مناحي ثقافتها رغم استيعابها لعدد لا بأس به من القادمين من بلاد حاتي الأصلية بعد دمار مراكزهم الحضرية على يد شعوب البحر.

هذه الحملة الآشورية المبكرة، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون موجهة ضد غرب شبه الجزيرة العربية. فالملك الآشوري يتوجه غرباً نحو البحر الأعلى، البحر المتوسط، لا جنوباً نحو جزيرة العرب. و «لبنان» الذي يحتطب منه خشب الأرز هو لبنان الشام القريب من المواني البحرية، لا «لبينان» شمال اليمن في المناطق الداخلية (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). و«أرواد» التي يركب الآشوريون على سفنها هي أرواد الشام وليست «رواد» مرتفعات عسير (انظر ص ٣٥) لأن النص صريح في الاشارة إلى الموقع البحري للمدينة، ولأن السفن تبنى على السواحل لا على المرتفعات الجبلية.

→

منطقة الكزل. فهذه المنطقة تسمى أرض سيمريان، يحدها من الشمال نهر سيمريان وقرية صغيرة في سفح المرتفعات تسمى سيمريان.

انظر: دراسة «جوزيت الأيي» عن تل الكزل، تعريب الدكتور عدنان البني في مجلة الحوليات الاثرية السورية المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٦ - ١٩٨٧ ص ١٠١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آشور ناصر بال الثاني:

بعد تغلات فلاصر الأول، مرت حركة التوسع الآشوري بفترة كمون، لتبدأ من جديد على يد «آشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣ - ٨٥٩ق.م). نقرأ في نص لهذا الملك عثر عليه في معبد الاله «ننورتا» في موقع «نمرود» الآشورية:

[غادرت بلاد «بيت عديني»، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على قوارب مصنوعة من الجلود (المنفوخة بالهواء) إلى «كركميش»، حيث تلقيت جزية ملك الحثيين (تعداد للوزنات الذهبية والفضية والمواد الثمينة الأخرى). ملوك البلاد المجاورة جميعاً أتوا إلي فأمسكوا قدمي. أخذت منهم رهائن مشوا معي إلى «لبنان» - Lab-na-ni مشكلين طليعة جيشي. غادرت كركميش متحركاً على الطريق الذي يقع بين جبال «منزيغاني» - Manzigani و «هامورجا» - Hamurga، تاركاً بلاد «أهانو» - Ahanu على يساري، وتقدمت نحو مدينة «حزازو» - Hazazu التي تخص «لوبارنا» ملك حطينة - Hattina، حيث تلقيت الذهب وعباءات الكتان. ثم تابعت فعبرت نهر «عَبري» حيث قضيت الليل، ثم غادرت شاطيء نهر عبري نحو مدينة «كونولو» - Kunulua المقر الملكي للوبارنا ملك حطينة، الذي لخوفه من أسلحة جيشي الفتاكة، وقع على قدمي طالباً حياته (تعداد لأصناف الجزية المقدمة) في ذلك الوقت وصلتني جزية «جوشي» - Gusi من بلاد «ياهاني» - Iahani (تعداد لأصناف الجزية).

غادرت «كونولو» المقر الملكي للوبارنا وعبرت نهر «العاصي» - Arantu حيث قضيت الليل، ثم تحركت آخذاً الطريق بين جبل «يراكي» - Iraki وجبل يعتوري» - Ia'turi، ثم عبرت جبل... لقضاء الليل عند نهر «سنجارا» - Sangara. من هناك تابعت المسير آخذاً الطريق بين جبل «ساراتيني» - Saratini وجبل «دوباني» - Duppani حيث قضيت الليل على ضفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحيرة ... ، دخلت «أريبو» ـ Aribu حصن لوبارنا ملك حطينة وضممتها إلي . حصدت قمح وقش منطقة «لوحاتي» ـ Luhati وخزنت ما حصدت هناك وتركت في المكان مواطنين آشوريين للإقامة . وخلال اقامتي في أريبو فتحت مدن لوحاتي الأخرى وهزمت أهلها وهدمت أسوارها وأحرقتها بالنار. أما الناجون فقد رفعتهم على الخوازيق أمام مدنهم . بعدها أخذت كل جبل لبنان ووصلت إلى بحر آمورو العظيم حيث غسلت أسلحتي في المياه العميقة ، وقدمت ذبائح إلى الآلهة . هناك جاءتني الجزية من ساحل البحر من سكان «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«محللاتا» ـ Mahallata و«ميزا» ـ Maiza و«كيزا» ـ Kaiza و«آمورو» و«أرواد» التي في البحر (تعداد لما حصل عليه)] .[9].

يرسم هذا النص الفريد خريطة مفصلة لممالك بلاد الشام الشمالية والغربية ، استطاع علم الآثار وعلم التاريخ اثبات صحتها وصدقها . ولسوف نتابع فيما يلي مسار حملة آشور ناصر الثاني خطوة خطوة (انظر خريطتنا رقم ٧) .

في هذا النص ، يبدأ الجيش الآشوري حملته على بلاد الشام ، التي تدعوها النصوص الآشورية عادة ببلاد ما وراء النهر «عبر ناري»[10] ، بعبور نهر الفرات . وهذا الفرات لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون «فرات» كمال الصليبي في غرب العربية ، الذي وجده في وادي أضم أحد أكبر الوديان في غرب شبه الجزيرة العربية الذي تصدر مياهه من مرتفعات الطائف ثم يجري نحو البحر الأحمر ، والذي ما زال اسمه القديم قائماً ، في رأيه ، في قرية «فرت» الواقعة على مقربة منه (الصفحات ٣٨ ، ٢٦٠ ، ١٩٩ ، ٣٠٢ . انظر أيضاً

9- Ibid, PP. 275-76

10- James Muhly, End of Bronze Age (In:Form Ebla To Damascus Edited by H weiss Smithonian Ins 1985, P. 265

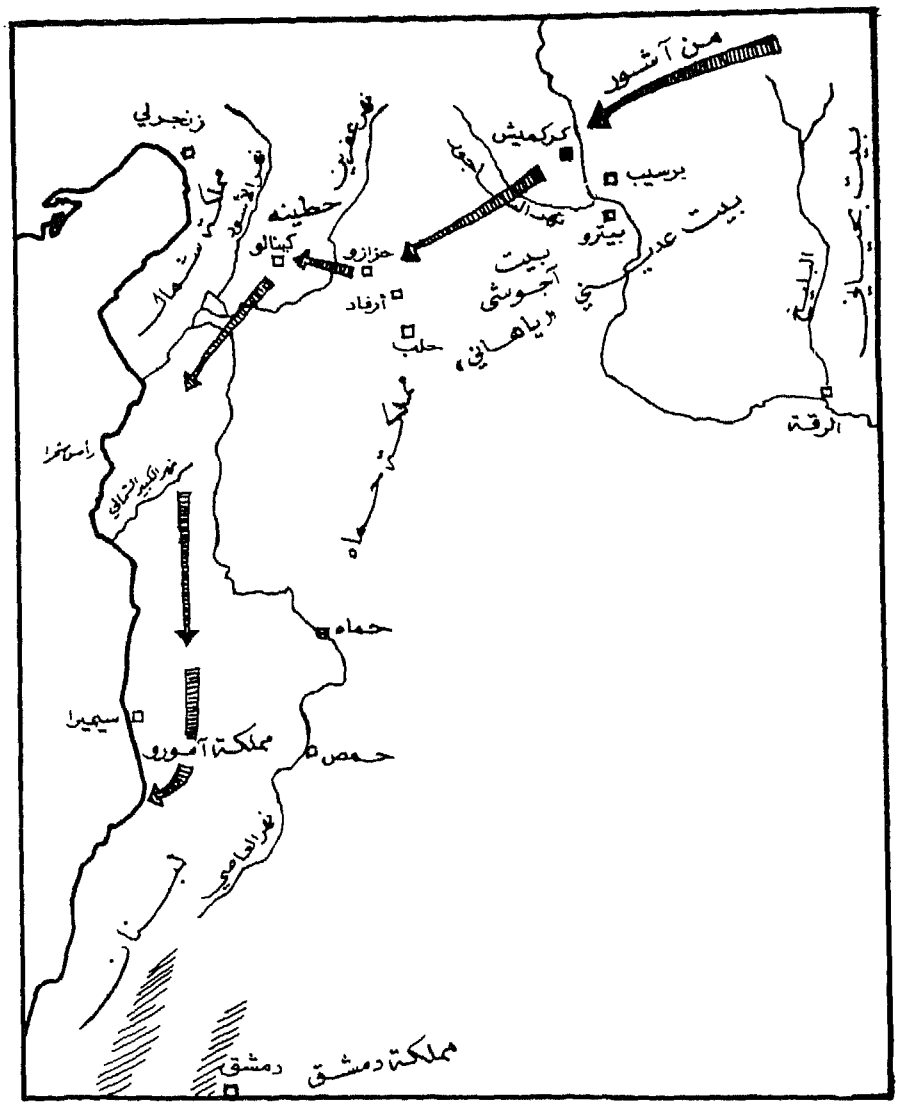

الخارطة رقم (٧) ـ حملة آشور ناصر بال الثاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خريطة الصليبي رقم ٣). فعبور نهر الفرات يتم من «بيت عديني» إلى كركميش. وبيت عديني هي احدى الممالك الآرامية التي ازدهرت في مطلع الألف الأول ق.م. وقد امتدت أراضيها بين الفرات ورافد البليخ، ووصل نفوذها في أوج قوتها إلى المناطق الغربية من الفرات. تم اكتشاف عاصمتها «تل برسيب» في موقع «تل الأحمر» على الضفة اليسرى (الشرقية) للفرات، على مسافة ٢٠ كم إلى الجنوب من كركميش (جرابلس الحالية) وقد عثر في الموقع على كتابات بالهير وغليفية اللوفية* تذكر اسم ملكها «آخوني» المعروف في السجلات الآشورية، وخصوصاً في سجلات «شلمنصر الثالث». كما عثر في بوابة قصر برسيب على أسود بازلتية عليها نقوش تذكر الحاكم الأشوري «شمسي إيلو» الذي وُلِيَّ المدينة بعد أن الحقها شلمنصر الثالث بآشور وأسماها «كار شلمنصر» أي حصن شلمنصر[11].

وقد ورد ذكر بيت عديني في كتاب التوراة كمملكةٍ آرامية تحت اسم «بيت عدن»، نقرأ في سفر عاموس ١ : ٣ ـ ٥ [هكذا قال الرب، من أجل ذنوب دمشق الثلاثة والأربعة، لا أرجع عنهم ... فأرسل ناراً على بيت «حزائيل» فتأكل قصور «بنهدد»، وأكسر مغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة «آون» وماسك القضيب من «بيت عدن»]. ودمشق الواردة في هذا النص هي دمشق الشام لا دمشق عسير التي وجدها الصليبي في موقع «ذا مسك» في منطقة جيزان بعسير (ص ٣٠)، لأن «حزائيل» و«بن حدد» المذكورين هنا كانا ملكين تعاقبا على حكم دمشق كما نعرف من الوثائق الآرامية التي

---

* ـ اللوفية هي لغة هندو أوربية تكتب بالطريقة الهير وغليفية المصورة وكانت شائعة في بلاد الحثيين بالأناضول ومناطق نفوذهم.

11- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨ ص ص ٣٤ـ ٣٩. وانظر أيضاً:

Eva Strommenger, Til Barsip (in: From Ebla To Damascus, op. cit, P. 330

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اكتشفت في بلاد الشام (انظر الصفحة ١٠٠ لاحقاً). وفي مواضع أخرى في التوراة تذكر بيت عدن بالترافق مع عدد من الدويلات الآرامية المعروفة وخصوصاً «جوزان» التي تم اكتشافها في أقصى الشمال السوري بموقع تل حلف الحالي، كما سنفصل لاحقاً (انظر سفر الملوك الثاني ١٩ : ١٢ وأشعيا ٣٧ : ١٢).

يتم عبور الفرات اذن من بيت عديني على الجهة الشرقية للفرات إلى كركميش الواقعة على الجهة الغربية، مما يستتبع أن تكون كركميش هذه هي كركميش الشام لا «قر ـ قماشة» غرب العربية التي وجدها الصليبي في جنوب «الطائف» بالحجاز (ص ٣٧ و ١١٤)، ذلك أن موقع قريتي «القر» و«القماشة» المتجاورتين لا يمكن العبور اليه من أي جهة من «وادي أضم» الذي يرى فيه الصليبي فرات التوراة وسجلات الشرق القديم (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). ويستتبع ذلك أيضاً أن المواجهة بين الفرعون «نخو» والبابليين الواردة في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٥ : ٢٠ وأشعيا ١٠ : ٩ وارميا ٤٦ : ٢ قد جرت عند فرات وكركميش الشام لا قرب الطائف في جنوب الحجاز (ص ٣٧). نقرأ في ارميا ٤٦ : ١ ـ ٢ [كلمة الرب صارت إلى ارميا النبي عن الأمم. عن مصر عن جيش فرعون، نخو ملك مصر الذي كان على نهر الفرات في كركميش، الذي ضربه نبوخذ راصر ملك بابل..].

في كركميش، يتلقى آشور ناصر بال الجزية من ملكها ويتابع مسيرته غرباً وهدفه الأخير لبنان، دون أن يتعرض لمملكة «بيت أجوشي» (أوياهاني) (انظر الخريطة ٧) التي وافقت على ما يبدو على دفع الجزية التي تصله لاحقاً. فيصل إلى مدينة «حزازو» وهي «إعزاز» الحالية عند السفوح الشرقية لجبل «سمعان»[12]، حيث يتلقى الجزية ثم يتابع فيجتاز نهر «عَبري» الذي هو

12- الدكتور علي أبو عساف، الأراميون، المرجع السابق ص ٤٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نهر «عفـرين» اليـوم[13]، إلى مدينـة «كـونـولو» عاصمة مملكة «حطينة»، وهي مملكـة آراميـة شغلت منطقـة سهـل العمق وحوض عفرين[14]. ويعتقد بعض البحـاثـة، ان كونـولـو هي موقع «عين دارا» الحديث حيث تقوم بالتنقيب منذ عدة سنـوات بعثـة المـديـرية العامة للآثار بسورية[15]. إلا أن الدكتور علي أبو عسـاف رئيس البعثـة التنقيبية إلى عين دارا لا يستطيع عند هذه المرحلة توكيد الاسم القديم للمدينة بسبب عدم توفر النصوص الكتابية في الموقع حتى الآن[16]. في كونــولـو يستسلم ملك حطينـة للملك الأشـوري، كما تأتي إلى هناك أيضاً جزية «جوشي» ملك «ياهاني».

ومملكـة ياهـاني هي مملكـة آراميـة امتـدت من حدود الفرات شرقاً إلى أطـراف سهـل العمق غربـاً (انظـر الخـريطـة رقم ٧)، وجـاورتها من الجنوب أراضي مملكة حماة، ومن الشمال أراضي مملكة كركميش. وقد دعيت بمملكة ياهاني نسبة إلى مؤسسها الأول «ياهان» ثم صار اسمها مملكة «بيت جوشي» أو «بيت أجوشي» نسبة إلى أشهر ملوكها جوشي المذكور في هذا النص. وقد تم اكتشـاف عاصمتهـا «أرفـاد» تحت «تـل رفعت» على مسـافـة ٣٥ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب. ورغم أن الموقع نفسه لم يعط الكثير من الآثار الهامة، إلا أن مواقع أخرى في المملكة قد أعطتنا آثاراً فنية وكتابية على جانب كبـير من الأهميـة، ففي قريـة «السّفـيرة» إلى الجنوب الشرقي من حلب، تم العثور على ثلاثة أنصاب حجرية نقشت عليها معاهدة بين ملك أرفاد المدعو متـع ايـل» و«بـرجـايـة» ملك «كتـك». وهي الآن موزعة بين متحف دمشق

13- Leo Oppenheim , op. cit P. 276

14- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق ص ٤٠.

15- Eva Stromminger, Assyrian Domination (in: From Ebla To Damascus , op. cit, P.325

16- الدكتور علي أبو عساف، محاضرة القيت في «معهد غوتة» بدمشق شتاء ١٩٨٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومتحف بير وت[17].

وقد ورد في التوراة ذكر أرفاد مراراً. ففي سفر الملوك الثاني ١٨ : ٣٣ - ٣٥ يتفاخر قائد شلمنصر الثالث عند أسوار اورشليم المحاصرة باخضاع الآشوريين لأرفاد وغيرها : [هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك آشور؟ اين آلهة أرفاد وحماة، أين آلهة سفروايم وهينع وعوّا؟]. وفي نبوءة ارميا عن دمشق : [عن دمشق خربت حماة وأرفاد، قد ذابوا ... ارتخت دمشق والتفتت للهرب]. ارميا ٤٩ : ٢٣ - ٢٤.

يترك الملك الآشوري كونولو ويتجه جنوباً فيعبر نهر العاصي (أرانتو في النصوص الآشورية ويرنت في النصوص المصرية وأورونتس عند الاغريق) إلى منطقة انطاكية. ومنها يأخذ الطريق بين جبل «يراكي» وجبل «يعتوري» وهما على الأغلب جبل «حارم» وجبل «الأقرع» فيقضي الليل على نهر «سنغارا» وهو على الأغلب «نهر الكبير الشمالي». ثم يأخذ الطريق بين جبل «ساراتيني» وجبل «دوباني» وهما جبل «الزاوية» و«جبال العلويين»، وصولاً إلى جبل لبنان حيث يغسل اسلحته في «بحر آمورو» أي بحر الغرب، وهو البحر المتوسط. وهناك تأتيه الجزية من مدن ساحل البحر (حسب تعبير النص). من «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«أرواد» (التي في البحر حسب تعبير النص). ومن «محللاتا» و «كيزا» ومن «ميزا» التي يعتقد أنها حمص (اميسا).

وهكذا تنتهي حملة آشور ناصر بال الثاني، كما انتهت سابقتها حملة تغلات فلاصر الأول، عند مدن الساحل الفينيقي بمدنه القديمة المعروفة أرواد وجبيل وصيدون وصور، لا عند المناطق الداخلية والجبلية من غرب شبه

17- الدكتور علي أبو عساف، الأراميون، المرجع السابق ص ص ٣٩ - ٤٥، ٩٤.
- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٤٧٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزيرة العربية. وتتقاطع أخبار العديد من الممالك والمدن الواردة في هذا النص مع أخبارها التوراتية.

شلمنصر الثالث وفترة المد الآشوري:

أن مسرح الحدث الذي ترسمه السجلات الآشورية في بلاد الشام منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، يختلف في ترتيبه الديمغرافي والسياسي عن مسرح الحدث الذي عرفناه من السجلات المصرية. فالممالك الكنعانية القديمة مثل مملكة قطنا وقادش وموكيش (ألالاخ) وتونيب وصوبة وغيرها قد غابت لتحل محلها في سورية الداخلية الممالك الآرامية الحديثة العهد مثل مملكة بيت عديني وبيت أجوش وحطينة وشمأل وحماة ودمشق. ولم يبق في منأى عن المد الآرامي سوى دويلات الساحل الكنعاني المحصورة بين جبل لبنان والبحر المتوسط، من جزيرة أرواد إلى صيدون. وقد حافظت هذه المنطقة على طابعها الكنعاني لغة وثقافة، وطورت بشكل مشترك نمطاً حضارياً ذا طابع خاص ضمن الوحدة الحضارية العامة لبلاد الشام، ودعي أهلها بالفينيقيين من قبل الاغريق الذين كانوا على احتكاك بهم. كما حافظت منطقة فلسطين الداخلية وشرقي الاردن على ثقافتها الكنعانية القديمة دون أن يترك الحكم السياسي الاسرائيلي القصير الأمد بصمته على أي منحى من مناحي حياتها. وقد انقسمت السلطة السياسية على نفسها في فلسطين الداخلية بعد موت الملك سليمان عام ٩٢٥ق.م إلى مركزين واحد في الشمال استقر أخيراً في «السامرة» وآخر في الجنوب في اورشليم وما تلاها. أما الفلستيون الذين وفدوا مع شعوب البحر وتركزوا في الساحل الفلسطيني منذ مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد ذابوا في خضم الثقافة الكنعانية الراسخة بعد أن أظهرت آثارهم الأولى التي تم الكشف عنها في المنطقة عناصر متميزة من ثقافة بحر ايجه (انظر الفصل ٧ لاحقاً).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع مطلع الألف الأول قبل الميلاد كانت القوى العظمى التقليدية في المنطقة قد غابت. فبابل قد التزمت حدودها ضمن وادي الرافدين، ومملكة الحثيين التي أنهت إلى الأبد مملكة ميتاني، جاء دورها لتشرب الكأس نفسها على يد شعوب البحر، ومصر الفرعونية قد عَرتْها أمراض الشيخوخة الطويلة التي عاشتها حتى الفتح الروماني. وقد أعطى هذا الوضع الفريد فرصة لانتعاش الدويلات الآرامية والكنعانية فيما بين القرن الثاني عشر والقرن التاسع قبل الميلاد. غير أن الحملات الآشورية التي بدأت بشكل متفرق وغير منظم بهدف جمع الجزية واستعراض القوة، قد تحولت إلى حروب منظمة منذ عهد «شلمنصر الثالث» خليفة آشور ناصر بال الثاني، وهدفت إلى توطيد أركان امبراطورية مترامية الأطراف، الأمر الذي أدخل عنصراً جديداً إلى الصورة، استمر خلال كامل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

وكما لم يدفع التهديد المصري القديم دويلات بلاد الشام إلى أي نوع من أنواع الوحدة فيما بينها، كذلك كان شأن التهديد الآشوري الجديد الذي واجهته كل دويلة على انفراد، أو من خلال أحلاف مؤقتة ما تلبث أن تنحل عشية المعركة. ولعل اكثر الأحلاف التي واجهها الآشوريون خطراً، كان حلف معركة «قرقرة» الذي انعقد في مواجهة «شلمنصر الثالث» عام ٨٥٣ ق.م.

أمضى «شلمنصر الثالث» فترة حكمه الطويلة (٨٥٨ - ٨٢٤ق.م) في حملات متواصلة على بلاد الشام، كان أهمها الحملة التي شنها في السنة السادسة من حكمه ضد متحالفي «قرقرة» في منطقة حماة على نهر العاصي*. نقرأ في أخبار هذه الحملة:

[غادرت نينوى فعبرت نهر «دجلة» وتقدمت إلى مدن الملك «غيامو» على نهر «بليخ» فتملكهم الخوف من هيبتي ومن أسلحتي الفتاكة، فقتلوا

---

* - يقع الموقع القديم لقرقرة إلى الجنوب من بلدة جسر الشغور الحالية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيدهم غيامو بأسلحتهم (يلي ذلك تعداد للمدن التي أخذها وللجزية التي حصل عليها). من «سحلالا» ـ Sahlala توجهت إلى «كار ـ شلمنصر»، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز. وفي المدينة التي يدعوها أهل حطينة بـ «بيتر و» ـ Ptru على الجهة الأخرى للفرات عند نهر «ساجور» ـ Sagur تلقيت الجزية من ملوك الجهة الأخرى للفرات، من «سنغارا» ملك «كركميش» ومن «كوندا شبي» ملك «كوماجين» ومن «آرام» ملك «جوشي» . . . (تعداد لبقية المدن وأصناف الجزية). ثم غادرت الفرات نحو حلب ـ Halman، التي خاف أهلها وخروا عند قدمي. فتلقيت منهم فضة وذهباً جزية، وقدمت قرباناً إلى «حدد» (اله) حلب. من حلب توجهت إلى مدن «إرخوليني ـ Irhuleni ملك «حماة» ـ Amat، فتحت مدن «آدينو» ـ Adinu و «برغا» ـ Barga، ومقره الملكي في «أرغانا» ـ Argana، وحررتها من سلطته وأضرمت النار في قصره. غادرت ارغانا وأتيت إلى «قرقرة» فدمرتها وأحرقتها.

هب إلى ساح المعركة «حدد ـ عدري» ـ Adad-idri ملك «امير يشو» (دمشق) ـ imerisu، ومعه ١٢٠٠٠ عربة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠٠ جندي و «إرخوليني» ـ Irhuleni ملك «حماة» ـ Amat ومعه ٧٠٠ عربة و ٧٠٠ فارس و ١٠,٠٠٠ جندي. و «آخاب الاسرائيلي» Sir-i-La-a ـ Aha-ab-bu ومعه ٢٠٠ عربة و ١٠,٠٠٠ جندي. ومن «موصري» ـ Musri جاء ١٠,٠٠٠ جندي، ومن «قوية» ـ Que ٥٠٠ جندي، ومن «عرقاتا» ـ Arqanata ١٠٠ عربة و ١٠,٠٠٠ جندي. وجاء «ماتينو بعل» من «أرواد» ومعه ٢٠٠ جندي، وأمير «اشناتو» ـ Usanata ومعه ٢٠٠ جندي، و «ادنو بعل» من «سيانو» ـ Shian ومعه ٣٠ عربة و ١٠٠٠ جندي، و «جنديبو» العربي ومعه ١٠٠٠ جمل، و «بعشا» أمير «رحوبي» ومعه . . .، ومن «عمون» . . فكانوا اثني عشر ملكا هبوا في وجهي للمعركة الحاسمة، فحاربتهم بما وهبني الاله «آشور» من قوة، وبما وهبني الاله «نرجال» من سلاح فتاك، وهزمتهم بين مدينتي «قرقرة» و

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«جيلزو» ـ Gilzu . . . وملأت نهر العاصي بجثثهم . .][18].

يقول كمال الصليبي عن معركة قرقرة ما يلي (ص ٣٧) : [وكما هو الأمر بالنسبة لمعركة كركميش، فان معركة قرقرة التي حاربها الآشوريون ضد ملوك «أمت» و«إمرشو» وحلفائهم «جنديبو العربي» و«آخبوسرئلا» في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، كانت قد جرت فعلاً في غرب شبه الجزيرة العربية وليس على امتداد نهر العاصي في بلاد الشام كما يعتقد عادة. و«أمت» التي اعتبرت حتى الآن إشارة إلى «حماة» في وادي العاصي، هي عملياً قرية «أمط» الحالية في منطقة الطائف. و«امرشو» ليست دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن، ودون أي أساس لهذا الاعتبار، بل ربما كانت «المراشا» في جنوب مرتفعات عسير. و «جنديبو اربي» يفترض عادة كونه زعيماً عربياً من بادية الشام، وعملياً هناك قبيلة تدعى بنو جندب ما زالت تعيش في وسط مرتفعات عسير، و«أربي» قد تكون اليوم «عربة» أو «عرابة» من قرى بلاد عسير. و«كركرة» نفسها في هذه الحالة يمكن أن تكون حالياً «قرقرا» في منطقة القنفذة في تهامة الحجاز المحاذية لعسير وليس أي مكان في وادي العاصي من الشام]. فإلى أي حد ينطبق مسار حملة شلمنصر الثالث على هذا الكلام؟ (تابع مسار حملة قرقرة على الخريطة رقم ٨).

يغادر الملك الآشوري مدينة «نينوى» في آشور فيجتاز نهر الدجلة، ويصل إلى نهر بليخ الذي يرفد الفرات وهناك يقضي على عدد من المدن ثم يأخذ طريقة إلى «كار شلمنصر» وهي مدينة «برسيب» عاصمة مملكة بيت عديني على الضفة الشرقية للفرات. (انظر الصفحة ٨٨ سابقاً). ومن هناك يعبر نهر الفرات إلى ضفته الغربية ويسير إلى مدينة «بيتر و» عند نهر «الساجور» إلى

18- Leo Oppenheim, op. cit. pp 278- 279

من أجل تهجئة ولفظ الأسماء الواردة في المقطع الخاص بمعركة قرقرة، راجع الدكتور علي أبو عساف في: الآراميون، المرجع أعلاه ص ٥٥.

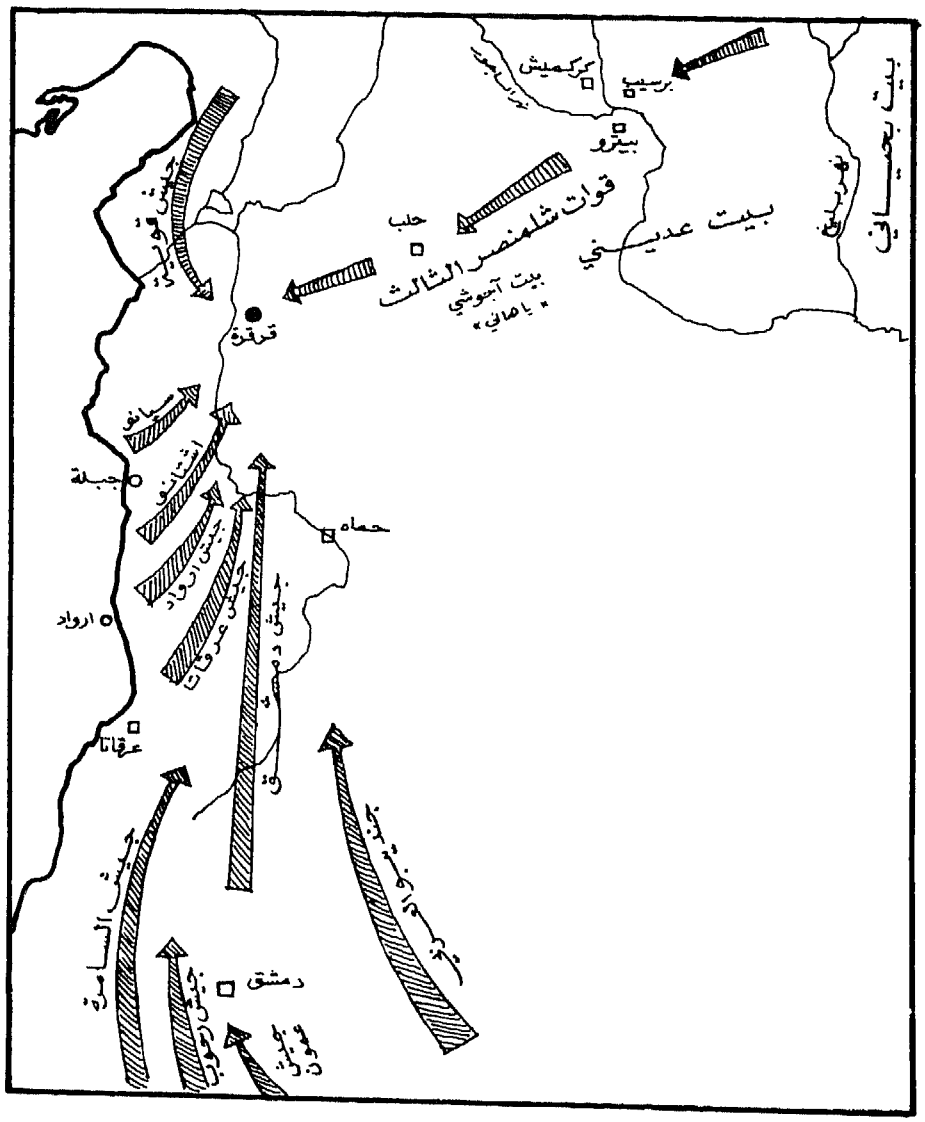

الخارطة رقم (٨) ـ معركة قرقرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنوب من كركميش. وهذه المدينة معروفة في النصوص الآشورية الأبكر بأنها من المراكز الأولى لاستقرار الآراميين في شمال بلاد الشام[19]. أما نهر «الساجور» فما زال إلى اليوم يصب في نهر الفرات إلى الجنوب من جرابلس الحالية (كركميش القديمة). في بيتر ويتلقى شلمنصر الثالث جزية عدد من الدويلات القريبة، منها كركميش، وجوشي الواردة الذكر أعلاه (انظر الصفحة ٩٠ سابقاً)، ثم يتابع سيره إلى حلب حيث يتلقى الفضة والذهب من أهلها الذين استسلموا دون قتال، وبعد تقديمه قربانا للإله حدد اله مدينة حلب، يهبط جنوباً نحو سهول مملكة حماة للقاء ملكها «ارخوليني».

وكانت حماة في ذلك الوقت أقوى مملكة آرامية في بلاد الشام بعد مملكة دمشق. جاورتها في الشمال مملكة «بيت أجتوشي» و«حطينة»، وفي الجنوب مملكة دمشق. أما في الغرب فقد وصلت حدودها إلى سلسلة الجبال الساحلية، بينما امتدت حدودها الشرقية عبر البادية. وقد هاجرت اليها من بلاد الأناضول جماعات هندو اوروبية وامتزجت بالآراميين الذين حلوا فيها قبلهم وأسسوا جميعاً مملكة قوية كان لها شأن في الأحداث التي تتابعت على بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد[20]. وكان «ارخوليني» الوارد ذكره في نصر معركة قرقرة أحد ملوكها الأقوياء المعروفين، وقد أخبرتنا عنه نصوص مملكة حماة المكتشفة في عدد من مواقعها القديمة. فقد تم العثور حديثاً على عدد من النقوش المكتوبة بالخط الهير وغليفي اللوفي في حماةنفسها،وفي أماكن قريبة منها كانت تابعة للملكة القديمة مثل «محردة» و «قلعة المضيق» و «الرستن» تذكر اسم الملك «أرخوليني»،وفيها يقول أنه ابن الملك «بارتاس»، وانه بنى معبداً للربة «بعلاتي»[21].

19- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٣٥.

20- المرجع نفسه ص ص ٥٣ - ٥٤.

21- H. Sader, Les Estats Araméens de Syrie Depuis Leur Fondation jusqu a'leur Transformation en provinces Assyriennes (1984) Dissertation, P 223

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في منطقة حماة يقضي شلمنصر الثالث على العديد من المدن ثم يأتي إلى قرقرة حيث يلتقي بجيوش المتحالفين وعلى رأسهم ملك دمشق «حدد عدري» يعاضده ملوك وأمراء الدويلات السورية: قوية وهي مملكة صغيرة على شاطيء المتوسط الشمالي في الأراضي التركية الآن بين نهري سيحان وجيحان، موصري وهي مملكة مجهولة حتى الآن، أشتانو إلى الجنوب من مدينة جبلة الحالية في سورية، سيانو إلى الشرق من مدينة جبلة الحالية[22]، أرواد على الساحل السوري، بيت رحوب (ورد ذكرها سابقاً في السجلات المصرية انظر الصفحة ٦٣ سابقاً)، وعرقاتا (ورد ذكرها سابقاً في السجلات المصرية انظر الصفحة ٥٤ سابقاً)، عمون وهي موطن العمونيين الخصوم التقليديين للإسرائيليين في شرقي الأردن، القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام بقيادة جنديبو العربي، مملكة اسرائيل الشمالية بقيادة ملكها «آخاب» المعاصر لشلمنصر الثالث. وآخاب الاسرائيلي الوارد في نص معركة قرقرة هو ابن عمري، الملك السابع في سلسلة ملوك مملكة اسرائيل الشمالية التي اسسها «ياربعام» عقب موت الملك سليمان حوالي عام ٩٢٥ق.م. وكان أشهر ملوكها «عمري» الذي بنى العاصمة الجديدة في السامرة. ويبدو أن معركة قرقرة قد جرت في بداية حكم الملك آخاب، لأننا إذا جمعنا سنوات حكم ملوك اسرائيل السابقين، كما وردت في كتاب التوراة لوجدناها ٦٢ سنة وذلك وفق ما يلي: ١ ـ ياربعام ٢٢ سنة ٢ ـ ناداب سنتان ٣. بعشا ٢٤ سنة ٤ ـ ايله سنتان ٥ ـ زمري سبعة أيام ٦ ـ عمري ١٢ سنة. فإذا طرحنا هذه الفترة من ٩٢٥ وهو عام موت سليمان لحصلنا على ٨٥٣ وهو العام المقرر وفق علم التاريخ لمعركة قرقرة.

أما قرقرة نفسها فتقع على مسافة احد عشر كيلومتراً الى الجنوب من مدينة جسر الشغور الحالية على الضفة الغربية لنهر العاصي. وما زال اسم

22- علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٥٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموقع القديم حياً في تل يقع في المنطقة نفسها يدعى اليوم «تل قرقور».

أما عن زعيم التحالف «حدد عدري» ملك «إمير يشو» (مملكة دمشق) التي قال عنها الصليبي انها ليست دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن، ودون أي أساس لهذا الاعتبار، ووجد مكانها في المراشا في جنوب مرتفعات عسير، فاننا نعرف من نصوص أخرى لشلمنصر الثالث أن عاصمته هي «دِمشقي» بالأشورية ـ Di-ma-as-qi . وبذلك تقدم لنا السجلات الآشورية، التي يدعونا الصليبي إلى إعادة دراستها، الأساس الذي اعتبرت بموجبه «امير يشو» على أنها «دمشق» الشام. نقرأ في نص عثر عليه في آشور منقوش على تمثال من البازلت للملك شلمنصر الثالث. [لقد هزمت حدد عدري ملك إمير يشو مع اثني عشر أميراً من حلفائه، وجندلت ٢٠,٩٠٠ من محاربيه الأقوياء، ودفعت بمن تبقى من قواته إلى نهر العاصي ـ Arantu ، فتفرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم. أما حدد عدري نفسه قد انتهى، واغتصب العرش مكانه «حزائيل» ابن لا أحد، الذي دعا اليه الجيوش الكثيرة وثار في وجهي. فقاتلته وهزمته وغنمت كل مركبات معسكره. أما هو، فقد هرب طالباً حياته، فتعقبته الى «دمشق» ـ Di-ma-as-qi ، مقره الملكي حيث قطعت أشجار بساتينه][٢٣].

وتتقاطع نصوص بلاد الشام مع النصوص الآشورية لتقدم لنا اثباتاً على أن دمشق النصوص الآشورية هي دمشق الشام وليست «ذومسك» في غرب العربية. فلدينا نقوش على قطع فنية عاجية من «حداتو» (ارسلان طاش عند الحدود السورية التركية الحالية على بعد ٣٠ كم شرقي الفرات) نقش عليها اسم حزائيل ملك دمشق الذي تصفه الكتابة بلقب سيدنا ومولانا حزائيل[٢٤]. ولدينا حجر تذكاري يرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن

23- Leo Oppenheim, op. cit, p. 280

24- Harvey Weiss, From Ebla To Damascus, Smithonian Inst. Washington D.C, 1985, PP. 263,345

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثامن قبل الميلاد، عثر عليه في موقع قرية «أفس» قرب بلدة «سراقب» الحالية على بعد ٤٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب. وقد نقش عليه «زاكير» ملك حماة أخبار اعتداءات «بن حدد» ابن حزائيل ملك دمشق على مملكة حماة بمعونة عدد من الدويلات الأخرى. نقرأ في مطلع النص: [هذا الحجر التذكاري، وضعه زاكير ملك «حماة» و«لوعاش» ـ Lu'ath من أجل «ايلو-ور» إلهه. أنا زاكير ملك حماة ولوعاش، كنت رجلاً من العامة ولكن الإله «بعل شمين» وقف إلى جانبي وجعلني ملكاً على «حاتريكا» - Hatarika «بن حدد» ابن «حزائيل» ملك آرام، جمع ضدي سبعة ملوك: بن حدد وجيشه، ملك «غوروم» وجيشه، ملك «شمأل» وجيشه، ملك كيليكيا وجيشه، «بن جوش» وجيشه، ملك «العمق» وجيشه، ملك «ميليز» وجيشه. كل هؤلاء الملوك الذين جمعهم بن حدد * وجيوشهم قد حاصروا حاتريكا... ولكن بعل شمين كلمني عبر العرافين والمتنبئين قائلاً: لا تخف فلقد جعلتك ملكاً ولسوف أقف إلى جانبك وانقذك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا حصاراً حولك][25].

إلى جانب دمشق الواردة في النصوص الآشورية والتوراتية، يطلعنا نص زاكير ملك حماة على أخبار عدد من الممالك الأخرى المعاصرة لها. فـ «بن جرش» الوارد ذكره بين حلفاء مملكة دمشق هو ابن الملك «جوش» أو «جوشي» ملك ياهاني أو بيت أجوشي، الوارد ذكره في سجلات آشور ناصر بال الثاني (انظر الصفحة ٩٠ سابقاً). ومملكة «لوعاش» التي يبدو أن زاكير قد ضمها إليه كانت تمتد إلى الشمال والشمال الشرقي من حماة وعاصمتها «حتر يكا» التي هي على الأرجح «أفس» الحالية حيث وجد النصب التذكاري، وكانت هذه

---

* ـ بالآرامية برحدد حيث «بَر» تعني ابن.

25- Franze Rosenthal, Canaanite And Aramaic Inscriptions (in:Ancient Near Eastern Texts) op. cit PP. 655-56

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المملكة تعرف في الألف الثاني قبل الميلاد باسم مملكة «نوخشي» (انظر صفحة ٦٢ سابقاً)[٢٦]. أما مملكة «شمأل» فكانت تسيطر على أقصى المناطق السورية الواقعة إلى الشمال الغربي من البلاد، (انظر خريطتنا رقم ٨) وسميت أيضاً بمملكة «يأدي» نسبة إلى مؤسسها الأول، كما سماها الآشوريون في بعض نصوصهم «بيت جبر» نسبة إلى أحد ملوكها. وقد تم اكتشاف عاصمتها «شمأل» في موقع «زنجرلي» الحديث على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، وعثر فيها على عدد من النصوص الهامة[٢٧].

ورغم هزيمة حلف قرقرة فان بلاد الشام لم تسلم القياد بسهولة للآشوريين وكان على شلمنصر الثالث أن يعود مراراً إلى المنطقة لإعادة فرض السيطرة الآشورية. نقرأ في نص حملة أخرى لشلمنصر الثالث: [في السنة الثامنة عشرة من بدء مُلكي، عبرت الفرات للمرة السادسة عشر. حزائيل ملك دمشق وضع ثقته بجيشه العرم، وجمع قواته باعداد كبيرة جاعلاً من جبل «سنير» ـ Sa-ni-ru المقابل لجبل لبنان قاعدة له، قاتلته وهزمته وجندلت ستة عشر ألفاً من جنوده المدربين، وغنمت ١١٢١ عربة و ٤٧٠ جواداً وكل معسكره. أما هو فقد هرب طالباً حياته، فتبعته إلى دمشق، مقره الملكي، وحاصرته هناك وقطعت بساتينه (المحيطة بالمدينة ومضيت). سرت إلى جبال «حوران» ـ Ha-u-ra-ni، فهدمت واحرقت عدداً لايحصى من المدن وأخذت منهم جزية لا حصر لها. كما سرت إلى جبل «بعل راسي» الذي يقع إلى جانب البحر، وأقمت هناك نصباً تذكارياً عليه صورتي. في ذلك الوقت تلقيت الجزية من صور وصيدون ومن «ياهو» ابن عمري ـ Ia-u-a mar Hu-um-ri-i][٢٨].

26- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ص ٥٧ ـ ٥٨ انظر ايضاً:
- Paolo Matthiae, Ebla, op. cit, P. 40.

27- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، المرجع السابق، ص ٤٧٨.

28- Leo Oppenheim, op. cit, P. 280

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و«ياهو» المذكور في هذا النص، هو ملك اسرائيل الذي قضى على بيت آخاب ابن عمري، وأحل نفسه ملكاً في السامرة. أما تسمية كاتب النص الآشوري له بابن عمري، فهي إما خطأ من الكاتب الذي اعتقد أن الملك الجديد هو من سلالة عمري، أو ان يكون المقصود بابن عمري هنا، النسبة إلى «أرض عمري» وهي التسمية التي أطلقها الآشوريون على اسرائيل، إذ نسبوها، على عادتهم، إلى أشهر ملوكها الذي بنى مدينة السامرة فكانت عاصمة له ولكل من تسلسلوا بعده من الملوك إلى دمارها الأخير، وكان ياهو معاصراً لحزائيل ملك دمشق، وكلاهما كان يدفع خطر الآشورين على طريقته الخاصة. فبينما تابع حزائيل سياسة التمرد والمجابهة، لجأ ياهو إلى الديبلوماسية واتقاء شر الملك الآشوري بدفع الجزية والأتاوات له. فاضافة إلى النص الآشوري الآنف الذكر، لدينا كتابة على مسلة سوداء محفوظة الآن في المتحف البريطاني نقشت تحت صورة تمثل رجلاً يقدم فروض الطاعة والولاء للملك شلمنصر الثالث، وترجمتها كما يلي: [جزية ياهو ابن عمري. تلقيت منه فضة وذهباً، طاسة ذهبية ومزهرية ذهبية مدببة القاعدة (تعداد لبقية الأصناف المقدمة)][29]. ورغم أن جزية ياهو المدفوعة لشلمنصر غير مذكورة في التوراة بشكل صريح، ربما حفاظاً على سمعة هذا الملك الذي تبجله أسفار التوراة لأنه أعاد عبادة يهوه إلى السامرة وأزال المعابد الكنعانية منها، فان هناك اشارات واضحة إلى العطايا التي كانت تقدم إلى آشور في ذلك الوقت. ويمكن بهذا الخصوص مراجعة سفر هوشع ٥: ١٧ و١٢: ١.

غير أن دمشق والسامرة لم توفرا فرصة للاقتتال فيما بينهما كلما تراخت قبضة الآشوريين. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٣: ٣ ـ ١٣ و٢٢ ـ ٢٥: [ملك «يهوآحاز» بن «ياهو» على اسرائيل في السامرة سبع عشرة سنة، وعمل الشر في عيني الرب ... فحمي غضب الرب على اسرائيل ودفعهم ليد حزائيل ملك

29- Ibid, P. 281

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آرام وليد بنهدد بن حزائيل كل الأيام] . . [ثم مات حزائيل ملك آرام وملك بنهدد ابنه عوضاً عنه . فعاد «يهوآش» بن «يهو آحاز» وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهو آحاز أبيه بالحرب] .

وهكذا تتقاطع نصوص التوراة مع النصوص الآشورية والنصوص الآرامية لتثبت أن مسرح الحدث التوراتي ومسرح السجلات الآشورية كان في بلاد الشام ولا علاقة له من قريب أو بعيد بغرب العربية .

حدد نيراري الثالث :

بعد شلمنصر الثالث، تتراخى قبضة آشور عن بلاد الشام مدة عشرين سنة بسبب النزاعات الداخلية بين ورثة العرش والانشغال بالحروب ضد المناطق الشرقية . وفي عام ٨١٠ق.م يرتقي العرش «حدد نيراري الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ق . م) تحت وصاية أمه «شامورامات» (سميراميس عند الاغريق) نظراً لصغر سنة . وما أن يشتد عوده حتى يسير في درب أسلافه نحو سورية .

نقرأ على قاعدة تمثال مكسورة، عثر عليها في «نمرود» بآشور النص التالي :

[. . ومن شاطيء الفرات اخضعت بلاد حاتي، وكل أراضي «آمورو»، وصور، وصيدا، وأرض عمري، وايدوم، وبلاد الفلستيين - Pa-la-as-tu ، إلى البحر الكبير حيث تغرب الشمس . جميعهم أخضعت تحت قدمي وفرضت عليهم الجزية . سرت نحو بلاد دمشق، وحبست ملكها «ماري» في «دمشقي» مقر مُلكه، فغمره الخوف من بهاء مولاي الاله آشور وأمسك قدمي خضوعاً لي . فتلقيت منه الجزية في قصره الملكي : ٢٣٠٠ وزنه من الفضة و ٢٠ وزنة من الذهب و ٥٠٠٠ وزنة من الحديد (تعداد لبقية أصناف الجزية . . .][*] .

---

* - Ibid, PP 281- 282.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أن من أعـاد هيبـة الحكم الآشـوري، فعـلاً، إلى منـاطق نفـوذه السابقة شرقاً وغرباً كان الملك «تغلات فلاصر الثالث».

تغلات فلاصر الثالث:

في سجـلات «تغـلات فلاصـر الثـالث» (٧٤٤ ـ ٧٢٧ق.م)، تأخـذ أخبـار التوراة بالتقاطع مع النصوص التاريخية الآشورية بشكل أكثر دقة. نقرأ في نص قصـير يسـرد أسـماء الملوك الـذين أرسلوا جزيـاتهم إلى ملك آشـور: [تلقيت الجزية من «رصين» ـ Ra-hi-a-nu ملك دمشق و«منحيم» ـ Me-ni-hi-im-me ملك «السـامـرة» ـ Sa-me-ri-na و«حـيرام» ـ Hi-ru-um-mu ملك «صـور» و «سيبيتي بعـل» ملك «جبيـل» و «اوريكي» ملك «قوية»، و «بيسـير يس» ملك «كـركميش»، و«انليـل» ملك «حمـاة»، و«بنـامـو» ملك «شمأل». . ومن «زبيبه» ـ Za-bi-be ملكة العرب][٣٠].

إن جميع اسماء ممالك بلاد الشام الواردة في هذا النص، قد صار معروفاً لدينا عند هذه المرحلة من دراسة النصوص القديمة. ولكننا نود التوقف قليلاً عند «بنامو» ملك شمأل، لنورد بعض النصوص الآرامية التي تأتي على ذكر هذا الملك والتي تتقـاطـع مع السجـلات الآشـوريـة. فلقـد أمدتنا التنقيبات الأثـريـة في «زنجـرلي» على السفـح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السـوري، وهي موقـع عاصمـة مملكـة شمأل (أو يأدي. انظر الصفحة ١٠١ سابقاً)، بالعديد من النصوص التي كشفت لنا عن أحوال المملكة الاجتماعية والسياسية خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. و«بنامو» المذكور في النص الآشوري هو «بنامو الثاني» الذي تذكره النصوص بكل اكبار واجلال على أنه المصلح الذي أحل العدل في البلاد واهتم باعادة بنائها بعد فترة من الفـوضى والاضطـرابـات. وكان هذا الملك، على ما ترويه النصوص صديقاً

30- Ibid, P. 283

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للآشوريين يدفع لهم الجزية بانتظام. وعندما هاجم تغلات فلاصر الثالث دمشق، شارك بنامو في حملته وقاتل إلى جانبه، ولكنه اصيب في المعركة ومات، على ما يذكره النص: [على رجلي سيده تغلات فلاصر ملك آشور في المعركة، فبكاه أقرباؤه الملوك وبكته قوات سيده ملك آشور كلها. وأخذه سيده ملك آشور وأقام له نصباً على الطريق ونقل من دمشق إلى أرض آشور][٣١]. وقد ترك حفيد بنامو المدعو «برراكب» (ابن راكب، نصاً على تمثال له محفوظ الآن بمتحف استانبول يذكر فيه جده بنامو.

[أنا «بن راكب» بن «بنامو»، ملك شمأل وعبد تغلات فلاصر ملك جهات الأرض (الأربعة). بسبب صلاحي وصلاح أبي، أحلني سيدي «راكب ايل» وسيدي تغلات فلاصر على عرش أبي، وبيت أبي قد غنم أكثر من الجميع، لقد سرت في ركاب سيدي ملك آشور بين ملوك عظام يملكون الفضة ويملكون الذهب، وأخذت بيت أبي وجددته (فصار) أفضل من بيوت الملوك العظام. .][٣٢].

أما «منحيم» ملك السامرة المذكور في نص تغلات فلاصر أعلاه، إلى جانب ملوك دويلات بلاد الشام الذين دفعوا الجزية لآشور، فقد عاصر السنوات الأولى لحكم تغلات فلاصر، واتقى شره بالجزية. وكان خلفه «فَقح» هو الذي منع الجزية عن آشور وتمرد على تغلات فلاصر على ما تذكره السجلات الآشورية وأخبار التوراة. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٦: ٥ [حينئذ صعد رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك اسرائيل إلى اورشليم للمحاربة، فحاصروا آحاز ولم يقدروا أن يغلبوه... وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلت فلاسر ملك آشور قائلاً: أنا عبدك وابنك، اصعد خلصني من يد ملك آرام ومن يد

31- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص ١٢٥.

32- Franz Rosenthal, op. cit, P. 655

للمقارنة راجع أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص ١٢٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملك اسرائيل القائمين علي. حذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية. فسمع ملك آشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين وسار الملك آحاز للقاء تغلت فلاسر ملك آشور إلى دمشق].

وهدية آحاز المرسلة في هذا النص إلى ملك آشور مذكورة في عداد الجزيات التي يذكر نص آخر لتغلات فلاصر وصولها إلى آشور: [تلقيت جزية «خاشتاشبي» ملك «كوماجين» و«أوريك» ملك «قوية» و«سيبيتي بعل» ملك «جبيل» و «انليل» ملك «حماة» و «بنامو» ملك «شمأل». . و«متان بعل» ملك «أرواد» و «سابينو بعل» ملك «بيت عمون»، و «سلمانو» ملك «موآب» ، «ميتيني» ملك «عسقلان» و «آحاز» ـ la-u-hazi ملك «يهوذا» ـ la-uda-aa ، و «كوش ماليكو» ملك «ايدوم»، وهانو» ملك «غزة» ـ Ha-za-at-aa (تعداد لأصناف الجزية)][٣٣].

لقد كانت حملة تغلات فلاصر على مملكة اسرائيل بداية لنهايتها، وقد جاءت حملته هذه في نطاق حملة واسعة على بلاد الشام وخصوصاً دمشق التي عاضدت السامرة ضد أورشليم، حيث دمر المئات من مدنها وقراها. وبعد دمشق انقلب إلى الساحل السوري (البحر الأعلى) هبوطاً إلى غزة التي فر ملكها إلى مصر ناجياً بحياته. أما عن ملك السامرة، فيتابع النص: [أما منحيم، فقد هبطت عليه كما العاصفة الثلجية، ففر وحيداً ثم عاد فانحنى عند قدمي. أعدته إلى مكانه وفرضت عليه جزية (تعداد للأصناف المقدمة). وسقت الكثيرين من «بيت عمري» (مملكة اسرائيل) وممتلكاتهم إلى آشور. ثم انقلبوا بعد ذلك على ملكهم «فقح» ـ Pa-qa-ha ، فاحللت بدلاً عنه «هوشع» ـ A-u-si ملكاً عليهم، وتلقيت منه جزية (تعداد للأصناف المقدمة)][٣٤].

33- Leo Oppenheim, op. Cit, P. 281-282

34- Ibid, PP. 283-284 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتطابق هذه الرواية الآشورية في خطوطها العامة مع رواية سفر الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ ـ ٣٠ حيث نقرأ: [في أيام فقح ملك اسرائيل، جاء تغلت فلاسر ملك آشور وأخذ عيون وآبل معكه ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور، وفتن هوشع بن إيله على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضاً عنه].

وفي عهد هوشع تحل النكبة الأخيرة بمملكة اسرائيل ويختفي ذكرها إلى الأبد.

صارغون الثاني:

بعد تغلات فلاصر الثالث، يعتلي العرش ابنه «شلمنصر الخامس» (٧٢٦ ـ ٧٢٢ق.م) الذي يعزو اليه كتاب التوراة فتح السامرة واجلاء أهلها إلى آشور، بينما تتحدث نصوص خليفته «صارغون الثاني» (٧٢١ ـ ٧٠٥ق.م) عن قيامه بفتح السامرة. ويبدو أن صارغون الثاني كان قائداً للعمليات العسكرية في فلسطين، وهو الذي أكمل ما بدأه شلمنصر الخامس وعزاه جميعاً إلى نفسه. نقرأ في نص مبكر لصارغون الثاني ما يلي: [. . صارغون ملك آشور فاتح السامرة ـ Sa-mir-i-na وكل بيت عمري (اسرائيل) ـ Bet-Hu-um-ri-a ، الذي غنم «أشدود» و«شينوختي» ـ Shinuhti ، وأمسك الـ «يامـاني» Ia-ma-ni في البحر كالسمك، الذي قضى على «كاسكو» و«طابالي» و«خيلاكو» الذي طارد «ميتا» ملك «موشكو»، الذي قهر «مصر» في «رفح» ـ Rapihu الذي أخذ «هانو» ملك «غزة» غنيمة، الذي أخضع الملوك السبعة في «يا» ـ Ia بأراضي يدنانا» ـ Ia-ad-na-na على مسافة سبعة أيام في البحر][٣٥].

35- Ibid, P. 284

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إضافة إلى السامرة وبيت عمري، التي اثبتنا حتى الآن أنها مملكة اسرائيل، فاننا نعرف من جدول صارغون أعلاه الأسماء التالية: أشدود وهي مدينة الفلستيين المعروفة على ساحل فلسطين، خيلاكو وهي كيليكيا على ساحل المتوسط الشمالي، موشكو ويغلب أن تكون فرجيا بآسيا الصغرى، غزة وهي مدينة الفلستيين المعروفة في جنوب الساحل الفلسطيني، تليها رفح عند الحدود المصرية. أما «الياماني» الذين أمسكهم صارغون في البحر كالسمك فهم الأيونيون الأغريق، و« يدنانا» التي تقع على مسافة سبعة أيام في البحر انطلاقاً من غزة فهي قبرص[٣٦]. وتعريف هذه الأماكن متفق عليه بين جميع المؤرخين ودارسي النصوص الآشورية. إلا أن لكمال الصليبي رأياً مختلفاً بخصوصها.

يقول الصليبي: [ان الجداول الطبوغرافية الآشورية مثل آشور بانيبال الثاني وشلمنصر الثالث وصارغون الثاني تقدم سجلات للفتوحات في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في الشام. ولاعطاء مثال واحد لا أكثر فانه في الأسطر الأولى من جدول صارغون الثاني، يصف هذا الملك نفسه بأنه فاتح «سا ـ مي ـ ري ـ نا» (سيمرن) و«بيت خو ـ ء م ـ ر ي يا» (خمري). وقد ساد الاعتقاد حتى الآن أن الاشارة في هذين الاسمين هي إلى «السامرة» (شمرون) و«بيت عمري» ملك اسرائيل. وقد كانت مملكة عمري الاسرائيلية بالتأكيد في جنوب الحجاز، أي في عسير الجغرافية، والسامرة ما زالت هناك وتدعى «شمران» باسمها في صيغته الأصلية التوراتية بلا تغيير. لكن الاشارة في جدول صارغون الثاني ليست إلى السامرة وبيت عمري بل إلى منطقة جيزان حيث ما زالت هناك قرية في جبل هروب اسمها «الصَّرْمين»، وقرية أخرى اسمها «الحمراية» في وادي عقاب بناحية أبي عريش] (انظر ص ١١٦ ـ ١١٧)

36- Ibid, P. 284

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يتابع الصليبي العثور على أماكن بقية الأسماء الواردة في جدول صارغون الثاني أعلاه، في عسير وغرب العربية، مما لا يتسع مجالنا هنا لإيراده. غير أننا سوف نتوقف عند حالتين مما ذكر، الأولى تتعلق «باليامانى» وهم الأيونيون الأغريق، والثانية تتعلق بـ «يا» ـ Ia الواقعة في «يدنانا» التي هي قبرص، فبخصوص اليماني يقول الصليبي أنه [في النهاية الشرقية لوادي نجران اقتنص الملك الآشوري الـ «يا ـ ما ـ نو» كالسمك. والاشارة هنا هي إلى «اليمينيين» أي شعب الجنوب وهم «البنيامينيون التوراتيون»، الذين لم يعيشوا في البحر «يم»، بل في بلاد «يام» بين وادي نجران ورمال الربع الخالي]. وفي الحقيقة، لو أن الصليبي قد أورد ذكر نص آخر لصارغون الثاني الذي يتعرض فيه لليماني (هكذا وردت في النص الآشوري) لعرفنا منه أن هؤلاء الاغريق انما يعيشون في جزر قائمة في البحر المتوسط. فالنص يقول: [لقد فتحت السامرة وكل بيت عمري وأمسكت اليماني الذين يعيشون في وسط بحر الغرب، كالسمك][٣٧]. فكلمة «يامو» في هذا النص وتعني بحر بالآشورية (يم)، ويرى فيها الصليبي بلاد «يام» الصحراوية، لم تبق مغفلة بل اضيفت إلى كلمة الغرب «آمورو» بالآشورية، لتصبح «بحر الغرب» وهي التسمية المعروفة في نصوص بلاد الرافدين للبحر المتوسط. ثم اننا بصرف النظر عن الإيضاح الذي يقدمه النص الثاني، نسأل: كيف شبه النص الآشوري امساك اليماني بصيد السمك إذا كان هؤلاء يعيشون في الصحراء، وإذا كان مطاردة الآشوريين لهم تتم في الفيافي والقفار؟؟

أما فيما يتعلق بـ «يا» ـ Ia، فيقول الصليبي أنها وادي «عياء» على بعد حوالي ٢٠٠ كم إلى الجنوب من «خزاعة» (وهي «غزة» المقصودة في جدول صارغون) أي على مسافة سبعة أيام كما جاء في منقوشة صارغون، دون أن يتطرق إلى أن الجدول قد قال بنصه الصريح أن «يا» هذه هي مقاطعة في

37- Ibid, p. 284

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«يـدنـانا» الواقعة في البحر على مسافة سبعة أيام في البحر (انظر النص أعلاه) ودون أن يتطـرق إلى نص آخـر لصـارغـون يزيـد على ذلك بأن «يدنانا» تقع على مسافة سبعة أيام في البحر وسط بحر الغرب: [والملوك السبعة في «يا» ـ Ia بأراضي «يـدنـانا» ـ Ia-ad-na-na التي في وسط بحر الغرب على مسافة سبعة أيام، والتي لم يسمع بها أحد من أجدادي الملوك لبعدها، قد عرفوا في بقعتهم النائية عما فعلت ببلاد «حاتي» وبلاد «الكلدان»، فارتجفوا فرقاً وأرسلوا إلي في بابل ذهباً وفضة..][38].

وفي نهايـة تحليله لأسـماء المـواقـع الـواردة في جدول (صـارغـون الثاني) يتسـاءل الصليبي: [... وبـوجـود جميـع هذه الأسـماء الواردة في جدول صارغون في غرب العـربيـة، أي سبب يبقى للاصرار على الاعتقاد بأن هذا الجدول يشير إلى فتـوحـات آشـوريـة في الشـام وفلسطـين؟]. ونحن نقـول ان قراءة كمال الصليبي المجتـزأة والانتقـائيـة للنصوص القديمة، وعدم تقديمه نصاً كاملاً واحداً منها، هو أحد أسباب الاصرار على هذا الاعتقاد.

كرر صارغـون الثـاني خبر فتـح السـامرة في عدة نصوص. وهو في نص اكثـر تفصيـلاً يقـول: [لقد حاصرت وفتحت السامرة، وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكـانهـا، وجهـزت من بينهم فصيلة بخمسـين عربـة ضممتهـا إلى فيلقي الملكي. أمـا المـدينـة، فقـد أعـدت بنـاءها بأفضل مما كانت، وأسكنت فيها فيها شعوباً من المناطق الأخرى التي قهرتها. ثم أقمت عليهم ضابطاً من لدني حاكماً عليهم، وفرضت عليه جزية الآشوريين][39].

وتتطـابق الـرواية التوراتية مع النص الآشوري، وتختلفان فقط في اسم الملك الآشـوري، مما المحنـا اليـه أعـلاه وقدمنا له تفسيراً، نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٨ : ٩ ـ ١١ [في السنة السابعة لهوشع ملك اسرائيل، صعد شلمناسر ملك آشـور على السـامرة وحاصرها، وأخذوها في نهاية ثلاث سنين... وسبى

38- Ibid, P. 284

39- Ibid, P

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملك آشـور اسـرائيل إلى آشور ووضعهم في حلج وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي]. ونقـرأ أيضـاً في الملوك الثاني ١٧ : ٢٤ [وأتى ملك آشور بقوم من مدن بابـل وكـوث وعـوا وحمـاة وسفـروايم وأسكنهم في مدن السامرة عوضاً عن بني اسرائيل، فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها].

لقـد حاول الآشـوريـون احداث تغيرات ديمغرافية جذرية في مناطق نفـوذهم لاحكـام سيطرتهم على سكانها، فعمدوا إلى تهجير شعوب باكملها وزرعهـا في مواطن غريبـة عنهـا، وحملوا أهـل هذه المـواطن فأعطـوهم مناطق المهجـرين. ولم تطبق سيـاسـة التهجـير هذه على أهـل السـامرة فحسب بل شملت شعـوبـاً عديـدة، منهـا شعب مملكـة حماة ومملكـة كركميش. نقـرأ في سجلات صارغون عن ذلك ما يلي:

[«ياوبيدي» من عامة مدينة حماة» - A-ma-at-tu ،حثي ملعون، جعل نفسـه ملكـاً على المدينة، وحرض ضدي مدن «ارواد» و«سيميرا» و«دمشق» و«السـامـرة»، فتعـاونـوا وجهـزوا جيشـاً مشـتركـاً. دعـوت جمع جنـد آشور وأطبقت عليـه في «قـرقـرة» مدينتـه الأثيرة، ففتحتها وأحرقتها. أما هو فقد أمسكت به وسلخت جلده وقتلت المتمـردين في مدنهم وأحللت النظـام والسلام بها][40]. ويبـدو أن قتـل ملك حماة لم يتم عقب المعـركة في قرقرة، بل في آشور التي سيق اليهـا مكبـلاً بالاصفـاد، لأننـا نقـرأ في نص آخـر: [لقـد خربت بلاد «حماة» كعـاصفـة الطـوفان، وسقت ملكها ياوبيدي وعائلته، وكل محاربيه إلى آشور مكبلين بالأصفـاد فشكلت منهم فرقـة مؤلفـة من ٣٠٠ عربـة و ٦٠٠ مقـاتـل مجهزين بالتروس والرماح، وضممتهم إلى فرقي الملكية. ثم اسكنت ٦٣٠٠ فرداً من الآشوريين في بلاد حماة، وجعلت عليها حاكماً من لدني][41].

أمـا عن كركميش فنقـرأ: [في السنة الخامسة لحكمي، ملك كركميش المـدعـو «بيصيري» حنث بالعهد، والقسم أمام الآلهة العظام، وبعث برسالة

40- Ibid, P 285

41- Ibid, P 284

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى «ميتا» ملك «موشكي» مليئة بالمخططات العدوانية ضد آشور. فرفعت يدي إلى الهي آشور بالصلاة، وجعلته يستسلم عاجلاً مع عائلته، فخرجوا جميعاً من كركميش، ومعهم ذهبهم وفضتهم وممتلكاتهم الشخصية، تقدمة لي، فرميتهم بالأصفاد. أما أهل المدينة ممن ثاروا معه، فقد سقتهم أسرى إلى آشور. . . ثم احللت في كركميش سكاناً من آشور][42].

سنحاريب:

تأتي حوليات الملك سنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ق.م) على جانب كبير من التفصيل، يماثل حوليات شلمنصر الثالث. نقرأ في أخبار حملته الثالثة على بلاد الشام: [في حملتي الثالثة، توجهت إلى حاتي. «لولي» ملك صيدون، الذي أخذه الخوف من هيبة جلالتي فر بعيداً عبر البحار واختفى ذكره. أما مدنه فقد تملكها الهلع من عظمة آشور: «صيدون الكبرى» و«صيدون الصغرى» و«بيت زيتي» ـ Bet-Zitti و«زاريبتو» ـ Zaribtu، و«محاليبا» ـ Mahaliba، و«أوشو» و«أكزيب» ـ Akzib، و«عكا» ـ Akko، مدنه المحصنة المزودة بالماء والطعام لحاميته قد خضعت تحت قدمي. أقمت على عرش صيدون المدعو «توبعلو» وفرضت عليه جزية يؤديها لي، أنا سيده، كل سنة دون انقطاع][43].

إن حملة سنحاريب الثالثة هذه موجهة بشكل خاص نحو الساحل الفينيقي وساحل فلسطين وبلاد فلسطين الداخلية. . فبعد عبور سورية الشمالية يهبط نحو البحر الفينيقي لتكون مدينة صيدون أول هدف له، وكانت صيدون في ذلك الوقت تسيطر على عدد كبير من مدن فينيقيا. بعد سقوط المدينة يهرب ملكها عبر البحار، وتسقط بقية المدن الواقعة تحت سيطرتها على

42- Ibid, P, 285

43- Ibid, P. 287

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الساحل، نعرف منها على وجه التأكيد «أوشو» التي هي مدينة صور البرية (انظر ص ٧١ سابقاً) و«زاريبتو» أو «ساريبتا» التي كشفت عنها التنقيبات حديثاً على الساحل اللبناني في منتصف الطريق بين صيدا وصور (انظر ص. ٧ سابقاً)، و«عكا» التي تلي صور كأول ميناء على ساحل فلسطين. وطبعاً، لا يمكن أن تكون صيدون وجاراتها الواردة في جدول سنحاريب أعلاه، هي «آل زيدان» غرب العربية في مرتفعات جبل شهدان بأراضي جيزان الداخلية، لأن ملك صيدون يغادر مدينته بحراً. ونعرف من نص آخر لسنحاريب أن وجهة ملك صيدون كانت قبرص حيث نقرأ: [ولولي ملك صيدون خاف من مواجهتي وفر إلي «يدنانا» ـ la-ad-na-na في وسط البحر يطلب مخبأ، ولكن حتى هناك في تلك البلاد طالته أسلحتي وصرعته][44].

بعد ذلك يتابع سجل حملة سنحاريب الثالثة سرد أخبارها. فبعد سقوط صيدون ومدنها المحصنة: [كل ملوك آمورو جاءوا بهداياهم السخية أمامي وقبلوا قدمي: «مناحيم» ملك «شمسي مورونا» ـ Samsi-Muruna «توبعلو» ملك صيدون، «أبيليتي» ملك «أرواد»، «أورو ملكي» ملك «جبيل»، «ميتيني» ملك «أشدود»، «بوديولي» ملك «بيت عمون»، «كاموسون» ملك «موآب»، «ايرامو» ملك «ايدوم». أما «صدقيا» ملك «أشقلون» الذي لم يخضع لي، فقد قبضت عليه وجلوته إلى آشور مع زوجته وأولاده واخوته وكل ذكور عائلته، وأقمت بدلاً عنه «شارولوداري» وفرضت عليه الجزية والخنوع].

اضافة إلى ملوك الساحل الفينيقي، يأتي إلى سنحاريب ملوك دويلات الساحل الفلستي ومنها «أشقلون» وهي عسقلان الحالية ويمكن الاطلاع على أخبارها في التوراة في يشوع ١٣ : ٣ وصموئيل الأول ٦ : ١٧ والقضاة ١٤ : ١٩ وغيرها من المواضع، وكذلك «أشدود» ويمكن الاطلاع

44- Ibid. P 288

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على بعض أخبارها في سفر يشوع ١٣ : ٣ وصموئيل الأول ٥ : ١ ـ ٢ و٣ ـ ٨ وقد كان للفلستيين على طول المنطقة الساحلية الفلسطينية خمس مدن رئيسية عرفنا أخبارها من أسفار التوراة ومن سجلات آشور وهي : غزة وأشدود وعسقلان وعقرون وجت. كما يأتي إلى سنحاريب ملوك من الجهة الأخرى للأردن، من «بيت عمون» وهي موطن العمونيين، و«موآب» موطن الموآبيين، و «ايدوم» موطن الايدوميين. وهذه الشعوب الثلاثة مذكورة في السجلات الآشورية السابقة واللاحقة لسنحاريب، وفي أسفار التوراة عبر الكتاب، فهي من الأعداء التقليديين لملكتي يهوذا واسرائيل.

ثم يتابع سنحاريب اخضاع مناطق الفلستيين متغلغلاً نحو فلسطين الداخلية : [تابعت حملتي فحاصرت «بت داجون» و«يافا» ـ Joppa و«بني برقة» ـ Banai-Barqa و «آزورو» ـ Azuru ، وهي مدن تابعة لصدقيا (ملك اشقلون)، ففتحها وحملت الأسلاب منها. أما مدينة «عقرون» فقد قام مسؤولوها ووجهاؤ ها وعامتها بوضع مليكهم «بادي» في الأغلال لأنه كان على العهد الذي قطعه مع آشور، وسلموه إلى «حزقيا اليهودي» ـ Ha-za-qi-ia-u la-u-da-ai الذي رماه في السجن وعامله معاملة الأعداء. ثم خاف (من فعلته) فدعا لمساعدته قوات ملكي مصر واثيوبيا التي لاتعد. فجاؤ وا لمساعدته. وفي سهل «التقو» ـ Al-ta-qu-u انتظمت صفوفهم ضدي وشحذوا أسلحتهم .بعد استخارة نبوءة الاله آشور، مولاي، هاجمتهم وهزمتهم. وفي غمرة القتال قمت بنفسي بأسر فرسان العربات وأمرائهم من مصريين واثيوبيين. حاصرت مدينة «التقو» و «تمنه» ـ Ta-am-na-a وأخذتهما، وحملت معي أسلابهما. ثم استبحت مدينة «عقرون» وقتلت مسؤوليها ووجهاءها الذين أجرموا، وعلقت جثثهم على الأعمدة حول المدينة. أما عامتها، فمن وجدت منهم مذنباً أخذته أسير حرب ومن وجدت بريئاً أطلقته. وأعدت ملكهم «بادي» من «أورشليم» ـ Ur-sa-li-im-mu وأقمته على العرش سيداً لهم، وفرضت عليه الجزية يدفعها لي أنا مولاه].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من المدن التابعة لأشقلون الفلستية الواردة أعلاه، نعرف «بيت داجون» الواردة في التوراة بالاسم نفسه (راجع سفر يشوع ١٥ : ٤١ و ١٩ : ٤٧)، كما نعرف «يافا» التي وردت في السجلات المصرية بالاسم نفسه كمدينة على الساحل الفلسطيني (انظر الصفحة ٥٦ سابقاً)، و«بني برقة» الواردة في التوراة تحت اسم «بني برق» (راجع يشوع ١٩ : ٤٥) وهي «بني براق» اليوم على مسافة ٧ كم من يافا. أما «عقرون» مدينة الفلستيين الشهيرة فمعروفة جيداً في أسفار التوراة، وفيها جرت أحداث مهمة (راجع سفر صموئيل الأول ٥ : ١٠ - ١١ و٧ : ١٤ و١٧ : ٥٢. والملوك الثاني ١ : ٢، وارميا ٢٥ : ١٥ - ٢٠) والأرجح أنها «عاقر» اليوم على مسافة ١٦ كم من يافا جنوباً. وفي أرض يهوذا التي توجه إليها سنحاريب للانتقام من «حزقيا» ملك اليهود الذي ارتقى العرش قبل حكم سنحاريب وعاصره، فنعرف «التقو» التي هي «التقى» التوراتية (يشوع ١٩ : ٤٠، ٤٤. ٢١ : ٢٠، ٢٣) وأيضاً «تمنة» (راجع يشوع ١٥ : ١٠ والقضاة ١٤ : ٢) والأرجح أنها «تبنه» اليوم جنوب مدينة الخليل. وبالطبع «أورشليم» التي حبس فيها حزقيا ملك عقرون.

بعد معركة سهل «إلتقى» التي هزم فيها سنحاريب حزقيا ملك أورشليم وقوات المعونة التي جاءته من مصر، يتابع النمس أخبار الحملة على مدن يهوذا وصولاً إلى أورشليم: [أما حزقيا اليهودي الذي أبى الخضوع لي، فقد القيت الحصار على ٤٦ من مدنه الحصينة وقلاعه المسورة، وعدد لا يحصى من القرى حولها وأخذتها، مستعملاً المدكات والمناجيق التي قربها المشاة إلى مقدمة الهجوم فأحدثوا أنفاقاً وثغرات*. سقت أمامي منهم الغنائم: ٢٠٠١٥٠ من الذكور ومن الاناث شيبة وشباناً، وأحصنة وبغالاً وحميراً وجمالاً،

---

* - أدوات الحصار التي يوردها النص وطريقة استخدامها غامضة. وقد حذفت ما أضافه صاحب النص السيد اوبنهايم بين أقواس ليستقيم له المعنى، لأنه بدون هذه الإضافات يغدو تركيب الجملة الآشورية أقرب إلى العربية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماشيـة كبـيرة وصغـيرة لا حصر لها. أما حزقيا نفسه، فقد صار حبيساً في مقره الملكي «أورشليم»، كعصفـور في قفص. فأحطتـه بالمتـاريس والخنادق لحجز الفـارين عنـد البـوابـات. والمـدن التي أخـذتهـا منه أعطيتها لـ «ميتيني» ملك أشدود «وبادي» ملك عقرون و «سيليبيل» ملك غزة، فأنقصت بذلك مساحة أراضيـه، ورفعت فوق ذلـك عليـه الجزية التي تؤدى لي، أنا سيده، بما يفوق الجـزيـة السابقة، تسلم سنوياً. لقد غمره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي أتى بها إلى اورشليم لمعـاونتـه قد اختلت صفـوفها وتركته. فأرسل إلي في نينـوى عاصمـة ملكي ثلاثـين وزنـة من الـذهب و ٨٠٠ وزنـة من الفضـة، وأحجـاراً كريمـة، وكميـات من الاثمـد وقطـع الصخـر الأحمر، ومقاعد وكراسي مزينة بالعـاج، وجلود الفيلة، وخشب الأبـانـوس، وصنـاديق خشبيـة، وكل أنواع النفائس. كما أرسل إلي بناته ومحظياته وموسيقييه من بنات وشبان].

وهكـذا تنتهي حملة سنحـاريب على مملكـة يهوذا، بعـد أن أخـذ جميع مدنها وقراها عدا أورشليم التي صمدت أمام الحصار، فتركها بعد أن مل من حصارها مكتفياً بالجزية التي فرضها على حزقيا وبالهدايا التي وعد بارسالها إلى نينـوى. غير أن الـروايـة التـوراتية تعزو تراجع سنحاريب إلى تدخل من إله اليهـود الـذي أرسـل على الآشـوريـين وبـاءً صرع منهم عشـرات الألـوف. وتتطـابق الرواية في خطوطها العامة مع الرواية الآشورية: [وفي السنة الرابعة عشـر للملك حزقيـا، صعـد سنحـاريب ملك آشـور على جميـع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور يقول قد أخطأت. ارجـع عني ومهمـا جعلت علي حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهودا ٣٠٠ وزنـة من الفضـة وثـلاثـين وزنة من الذهب] الملوك الثاني: ١٨ : ١٢ - ١٥. كما نعـرف عن استعـانـة حزقيـا بالقـوات المصـريـة من كلام رسـول سنحاريب عند أسوار أورشليم الذي يهزأ بمصر وفرعونها والذي أرسل نجداته إلى حزقيـا: [فقـال لهم «ربشـاقي» قولـوا لحزقيـا، هكذا يقول الملك العظيم ملك آشـور... والآن على من اتـكـلت حتى عصيت علي. فالآن هوذا، قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التي إذا توكأ عليها أحد دخلت في كفه وثقبتها هكذا هو فرعون مصر لجميع المتكلين عليه] الملوك الثاني ١٨ : ١٩ - ٢١ .

أسر حادون :

بعد فترة الاضطرابات والصراع على العرش، مما تلى مقتل سنحاريب على يد أحد أبنائه، صعد إلى العرش «أسر حادون» إبن سنحاريب (٦٨٠ - ٦٦٩ق . م)، وعمل فوراً على اخماد الثورات التي اندلعت في بلاد الشام . نقرأ في نص حملته على فينيقيا ما يلي : [أنا اسرحادون فاتح صيدون التي عند البحر. لقد سويت بالتراب أبنيتها المشيدة ورميت بأنقاض سورها وأساساتها إلى البحر، ومحوت المكان الذي قامت عليه . أما ملكها «عبدي ملكوتي» فقد أمسكت به كالسمكة عندما هرب إلى عرض البحر أمام هجومي وقطعت رأسه . ثم حملت معي الكثير من ممتلكاته المكدسة : ذهباً وفضة وعاجاً وأبانوساً وجلود فيلة . . . وسقت حشوداً من شعبه أمامي إلى نينوى، وسقت المواشي كبيرها وصغيرها والحمير . ثم دعوت كل ملوك «حاتي» وبلاد شاطىء البحر، وجعلتهم على أعمال السخرة من أجل بناء مقر جديد لي (مدينة) أسميتها «كار أسرحادون»، أحللت بها سكاناً من المناطق الجبلية ومن شاطىء البحر][45].

وهكذا، فنحن مرة أخرى مع الجيش الآشوري في «حاتي» (سورية) وعلى الشاطيء الكنعاني، وليس في غرب العربية . وها هو يأتي بملوك دويلات بلاد الشام ليسخرهم كالعبيد في بناء قصر له :

[دعوت إلي ملوك بلاد «حاتي» على الجهة الأخرى للنهر : «بعلو» ملك

45- Ibid, P 290

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«صـور و«منسي» ـ Me-na-si-i ملك «يهـوذا» ـ la-u-di و «قوش غابري» ملك «إيـدوم» و «مـوصوري» ملك «موآب» و «سلبيل» ملك «غزة» و «ميتيني» ملك «أشقلون» و «إيكوسنو» ملك «عقرون» و «ملكي آشابا» ملك «جبيل» و «ميتان بعـل» ملك «أرواد» و «آبي بعـل» ملك «شـامسي مورونـا» و «بـودويل» ملك «بيت عمـون» و «آهي مكي» ملك «أشـدود» . . . كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينـوى مقـر حكمي، وجعلتهم ينقلون اليهـا تحت أقسى الظـروف مواد بنـاء لقصـري : جذوعـاً ودعـائم وألـواحاً من خشب الأرز والصنوبر، مما تفيض به جبـال «لبنـان» و «سـرارا» (و. . تعـداد لمواد أخـرى)][16]. وبذلك نال ملوك دويـلات الطـوائف في بلاد الشـام أقسى جزاء لهم ولشعوبهم التي لم تعرف قط الدولة المركزيـة الواحدة. و «منسي» ملك يهوذا الوارد في النص أعلاه هو ابن الملك حزقيـا الـذي حاصـره سنحـاريب في اورشليم. وقـد أوردت الـروايـة التوراتية خبر نفيه من قبل ملك آشور في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٣ : ٩ ـ ١٢ حيث نقـرأ: [. . ولكن منسي أضـل يهوذا وسكـان أورشليم ليعملوا أشر من الأمم الـذين طردهم الـرب من أمـام بني اسـرائيل، وكلم الرب منسي وشعبه فلم يصغـوا، فجلب عليهم رؤ سـاء الجنـد الذين لملك آشور، فأخذوا منسي بحزامة وقيدوه بسلاسل من نحاس وذهبوا به إلى بابل].

ولـدينـا من عصر أسرحادون عدة نصوص تتعلق بمعاهدات أبرمها مع بعض ملوك الدويلات التابعة، أهمها معاهدته مع ملك صور الفينيقية ولعلنا، عند هذه المرحلة من بحثنا، لن نضيف جديداً إذا قلنا أن نص المعاهدة هذه، شأنه في ذلك شأن بقية النصوص الآشورية، لا ينطبق من قريب أو بعيد على مواقـع كمال الصليبي في غرب العـربيـة، وأن «صـور» الوارده فيه ليست «زور الـوادعـة» في منطقة نجران المجاورة للصحراء العربية الداخلية، بل هي صور الكنعـانيـة الـواقعة على البحر المتوسط. ونظراً لتعدد بنود المعاهدة وتشوه كثير

46- Ibid, P 291

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من سطورها، فاننا سنكتفي بإيراد ما يلي منها:

هذه معاهدة «اسرحادون» ملك آشور، الابن الأكبر لـ . . . ، مع «بعل» ملك «صور» . . . (كسر في اللوح . .

٦ ـ إذا تحطمت سفينة تخص «بعل» أو أحد أهالي «صور» على شاطيء بلاد الفلستيين، أو في أي مكان على حدود المناطق الآشورية، فان كل ما فيها يغدو ملكاً لأسرحادون ملك آشور، لا يمس أحد بأذى أياً من ملاحيها، بل يتوجب عليهم إرسال قائمة باسمائهم إلى ملك آشور.

١٨ ـ هذه هي موانيء التجارة، وطرق التجارة التي يمنحها اسرحادون ملك آشور لخادمه بعل: في اتجاه «عكا» و «دور» عبر كل أراضي الفلستيين. في جميع مدن المناطق الآشورية على ساحل البحر وفي «جبيل» عبر «لبنان»، وكل المدن الجبلية (بقية الفقرة مليئة بالثغرات الناجمة عن تشوه اللوح)[٤٧].

وفي عهد أسرحادون، قامت آشور لأول مرة باخضاع مصر، واجتاحت الجيوش الآشورية كامل الأراضي المصرية وما يليها من بلاد النوبة، وعينت حكاماً محليين في المدن والأقاليم تابعين مباشرة للملك الآشوري. ولقد كتبت آشور بذلك السطور الأولى في قصة نهايتها، وأمضت ما تبقى لها من وقت قصير في محاولات مستحيلة للسيطرة على رقعة واسعة من أراضي الشعوب المغلوبة، لم يقيض لها ضبطها وتنظيمها ضمن امبراطورية شائخة تسير نحو نهايتها المحتومة.

آشور بانيبال ونهاية الامبراطورية الآشورية:

ورث آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٣٣ق.م) عن أبيه سنحاريب عالماً يموج

47- E. Reiner, Akkadian Treaties (In:James pritchard's Ancient Near Eastern Text op. cit) P 533-534

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالفتن والثورات. فقد اضطر لاخضاع مصر كرة أخرى بعد أن عم التمرد جميع أرجائها، وعاد إليها أكثر من مرة بسبب نكوص الأمراء المحليين عن عهودهم معه. وفي اثناء ذلك، كان يؤدب في طريقه المتمردين من ملوك بلاد الشام. نقرأ في اخبار حملته الثالثة:

[في حملتي الثالثة، وجهت قواتي ضد «بعلي» ملك صور الذي يعيش على جزيرة في البحر، لأنه لم يعبأ بأوامري. أحطته بالمتاريس وقطعت عليه الطرق في البر والبحر، فأنضبت مواردهم الغذائية وأجبرته على الخضوع. جلب إلي ابنته وبنات اخوته ليؤدين الخدمة الوضيعة لي، كما جلب إلي ابنه الذي لم يركب البحر بعد ليكون لي عبداً. فتلقيت منه ابنته وبنات اخوته ورددت اليه ابنه شفقة عليه. (وعندها) «ياكينلو» ملك «أرواد» الذي يعيش أيضاً في جزيرة والذي تمرد على ملوك اسرتي، خضع إلي، وأرسل ابنته إلى نينوى ومعها دوطة ثمينة لتؤدي الخدمات الوضيعة في قصري، وقبل قدمي][48].

نبوخذ نصر والدولة البابلية الجديدة:

بعد آشور بانيبال، بدأت بالتوضح عوامل انحلال المجتمع العسكري الآشوري التي كانت تعمل في الخفاء خلال أكثر من قرن. ذلك أن المظهر البراق للقوة التي لا تهزم يخفي وراءه عملية انتحار بطيء تقدم عليه المجتمعات العسكرية وهي منساقة وراء نشوة انتصاراتها المتواصلة. ولم يكن اجهاز الكلدانيين الذين اقاموا الدولة البابلية الجديدة على آشور، سوى ضربة أخيرة إلى جثة داخل درع سميك، على حد تعبير المؤرخ ارنولد توينبي، المصيب. فبعد وفاة آشور بانيبال، وقعت بابل تحت سلطان «نابو

48- Leo Oppenheim, op cit, P. 295-296

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بولاصر» الكلداني الذي رد عن بابل آخر عدوان آشوري عام ٦١٥ق.م. وفي تلك الأثناء كان حلفاؤه الميديون قد توجهوا لنصرته من ايران فدمروا مدينة آشور عام ٦١٤ق.م ثم تعاون الحلفاء معاً فزحفوا إلى نينوى ودمروها وتقاسموا ممتلكاتها.

نبوخذ نصر ودمار أورشليم:

حافظ «نبوخذ نصر» الملك الثاني للمملكة البابلية الجديدة على المقاطعات التي ورثها أبوه نابوبولاصر من الآشوريين غربي الفرات، واصطدم مع «نخو الثاني» فرعون المصر الموالي للآشوريين عند الفرات، والحق به هزيمة ساحقة عام ٦٠٥ق.م وطارد المصريين إلى حدودهم دون أن يفكر باجتياح مصر نفسها، فقضى بذلك على آمال المصريين في الحصول على جزء من تركة آشور.

لم تترك لنا الدولة البابلية الجديدة سجلات تفصيلية عن حملاتها في بلاد الشام. ولعل سجل حملة نبوخذ نصر على اورشليم ومملكة يهوذا مثال على ذلك:

[في السنة السابعة، الشهر.. قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي، فحاصر مدينة «يهوذا» Ia-a-hu-du وفتحها في شهر آذار وأقام عليها ملكاً جديداً اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل][49]. وكانت هذه الحملة التي تمت عام ٥٨٧ق.م النهاية الأخيرة لمملكة يهوذا. فاضافة إلى مدينة اورشليم نفسها، فقد تتبعت التنقيبات الأركيولوجية الخراب الذي حل ببقية مدن يهوذا التي تهدمت في أوائل القرن السادس قبل الميلاد وانقطع فيها الاستيطان

49- Ibid, P 564

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البشري قرابة قرن من الزمان[٥٠].

ويبدو من أخبار التوراة أن نبوخذ نصر قد اجتاح مملكة يهوذا على مرحلتين تفصل بينهما قرابة عشر سنوات في حملته الأولى اكتفى بتغيير الملك وقبض الجزية وسبي الكثيرين من أهلها، وفي حملته الثانية قام بتدمير المدينة وسبي كل أهلها عدا أفقر الناس والمشردين ممن لا نفع فيهم نقرأ عن حملته الأولى في سفر الملوك الثاني ٢٤ :

[كان «يهوياكين» ابن ثماني عشرة سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر في أورشليم. . وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل أبوه. في ذلك الزمان صعد نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصار، وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على لمدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤ ساؤه وخصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثانية من ملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك اسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤ ساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض، وسبى يهوياكين إلى بابل. . وملّك ملكُ بابل «متنيا» عمه عوضاً عنه وغير اسمه إلى «صدقيا»].

ولكن صدقيا ما لبث أن تمرد على بابل، وفي السنة التاسعة لحكمه : [جاء نبوخذ ناصر ملك بابل، هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا أبراجاً حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيا في تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض،

50- Katheen Kenyon, Digging Up Jerusalem, E benn LTD, London 1974, PP 166-172

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فثُغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك. وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فذهبوا في طريق البرية، فتتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى «ربلة» وكلموه بالقضاء عليه. وقتلوا بني صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل... (ثم) جاء «نبوزرادان» رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى اورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار اورشليم هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط. ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين... فسُبي يهوذا من أرضه]. سفر الملوك الثاني: ٢٥.

وهكذا انتهت مملكة يهوذا بعد أن عاشت قرابة قرن وربع بعد دمار مملكة اسرائيل.

غير أن المملكة البابلية الجديدة لم تعمر طويلاً. وقبل انقضاء القرن السادس قبل الميلاد كانت خارطة توزع القوى في الشرق القديم قد تبدلت بسبب ظهور قوة جديدة لم يحسب لها حساب هي قوة الفرس اقرباء الميديين الذين ساهموا في تحطيم آشور. ففي سنة ٥٤٧ق.م أكمل «قورش الثاني» ضم كامل بلاد ايران إلى مملكته، وفي سنة ٥٣٩ق.م انتصر على الامبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية) وضمنها إلى ملكه بما في ذلك البلاد الواقعة الى الغرب من نهر الفرات. ثم استعاد ابنه «قمبيز» من بعده كامل تركة آشور وذلك باحتلال مصر. وفي عهد «داريوس الأول» خليفة قمبيز بدأت حركة المد والجزر بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية المتمثلة باليونان الفتية، حيث شن حملة بحرية غير حاسمة على بلاد اليونان. وعندما توفي، كانت الامبراطورية الشرقية تمتد من وادي نهر السند شرقاً إلى حدود اليونان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غرباً، ومن سفوح جبال القوقاز شمالاً إلى شمالي الشلال الأول على نهر النيل في أعماق افريقيا.

نتائج وتساؤلات:

لقد اثبتت دراستنا العلمية للسجلات الآشورية، بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه السجلات معنية بمناطق بلاد الشام حصراً، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية، وأن ممالك دمشق وحماة الآرامية، وصيدون وجبيل وصور وارواد الفينيقية، والسامرة واورشليم الكنعانية، الوارد ذكرها في التوراة وفي سجلات آشور هي ممالك بلاد الشام وليست ممالك عسير وغرب العربية.

ولقد كان للآشوريين غزوات موجهة نحو جزيرة العرب كما هو واضح من سجلاتهم. ولكن أخبار حملاتهم تلك توضح وبصريح العبارة أنها كانت موجهة ضد القبائل التي أطلقوا عليها اسم «أريبو» Aribu أي العرب. ولا نستطيع، في كل سجلات بابل وآشور، أن نجد تلميحاً واحداً إلى حملة موجهة ضد «يهوذا» و «اسرائيل» قائمتين في غرب العربية. فإذا كان لمثل هاتين المملكتين وجود هناك، لتوجب أن تكون الحملة عليهما استمراراً لحملة ما على بلاد العرب، مما لا نستشفه تلميحاً أو تصريحاً في تلك السجلات.

ولقد ورد أول ذكر للعرب في سجلات شلمنصر الثالث، عندما شارك «جنديبو» العربي متحالفي «قرقرة» تصديهم للآشوريين، مما فصلناه في الحديث عن معركة قرقرة، ويبدو أن القبائل العربية المتجولة بين بادية الشام وشمال العربية والمتحكمة بطرق التجارة البرية مع بلاد الشام، قد هبت في ذلك الوقت برعامة جنديبو للدفاع عن مصالحها التي ضربها التوسع الآشوري، ووجدت في حلف قرقرة سبيلها إلى ذلك. ومنذ ذلك الوقت تتواتر أخبار العرب وبلادهم في السجلات الآشورية. ففي نص لتغلاب فلاصر الثالث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أوردناه سابقا (انظر الصفحة ١٠٤) هناك ذكر لملكة عربية اسمها «زبيبة» قدمت له الجزية. وقد تكون هذه الملكة هي الأصل التاريخي للروايات العربية المتواترة عن ملكة اسمها «الزباء»*. وفي نص آخر لتغلات فلاصر الثالث يقوم بالالتفات إلى بلاد العرب بعد انتهاء حملة له في بلاد الشام أخضع فيها عدداً من الممالك بينها «سميرا» و«عرقا» و«غزة» و«أرض عمري»:

[أما «شمسة» ملكة العرب، فقد قتلت من أتباعها ١١٠٠ رجل وأخذت ٣٠,٠٠٠ جمل، و٢٠,٠٠٠ رأس ماشية و٥٠٠٠ صندوق من التوابل و١١ طاسة مكرسة لآلهتها. أما هي فقد هربت بحياتها إلى مدينة «بازو» في إقليم العطش كحمار وحش برية. وأهل معسكرها لما أضناهم الجوع قد... ولكنها عادت بعد أن ادركت مدى جبروتي وقوتي، وجلبت إلي جمالاً ذكوراً وإناثاً... أما أهل «مسعاي» و«تيما» ـ Tema و«حطيا ـ Hattia، وأهل «ايدي بعل» ـ Idiba'leans، و«السبئيون» وأهل «حيابا» Haipaa و«بادانا» ـ Badana من أقاليم الغرب التي لم يسمع بها أو يعرف بلادها أحد، فقد سمعوا أخبار سلطتي وخضعوا لحكمي، وجلبوا إلي جميعاً الجزية..][51].

من هذا النص ومن اشباهه، نستطيع التوكيد على أن الحملات الآشورية كانت موجهة ضد القبائل العربية المقيمة أو المتجولة بين بادية الشام والمناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وبين ضفاف الفرات الأدنى وصحراء النقب، وأنها لم تتوغل كثيراً إلى أعماق بلاد العرب. وعلى سبيل المثال نقرأ في سجل حملة نبوخذ نصر على بلاد العرب ما يلي: [في السنة السادسة عشر، شهر.. قاد ملك أكاد جيشه إلى بلاد حاتي، ومن هناك وجه قواته فأغارت على الصحراء. أخذ جزية كبيرة من بلاد العرب، وأخذ قطعانهم وتماثيل آلهتهم بأعداد كبيرة. وفي شهر آذار عاد الملك إلى بلاده][52].

---

* ـ والروايات العربية لا تربط بتاتاً بين الزباء ومملكة تدمر في بلاد الشام.

51- Leo Oppenheim, op. cit, P. 284

52- Ibid, P. 564

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد حمل الآشوريون على بلاد العرب، وأخبار حملاتهم تلك متوفرة لدينا في حوليات الملوك وفي رسوم نابضة تمثل الأسرى من العرب وقد سيقوا إلى آشور مع جمالهم بثيابهم المميزة. أما القول بأن الحوليات الآشورية انما تؤرخ لحملات في غرب شبه الجزيرة العربية، فباطل في رأينا بطلاناً مطلقاً.

وأخيراً، هناك مشكلة تاريخية كبيرة تنتظر من كمال الصليبي ومن يبشر بنظريته، حلاً لها، وهي ليست أبداً بالمشكلة السهلة. فاذا كانت كل السجلات التاريخية المصرية والآشورية معنية بغرب العربية وأنها قد فهمت خطأ على انها معنية ببلاد الشام، فأين إذن السجلات المتعلقة ببلاد الشام التي شكلت في الألف الثاني قبل الميلاد مسرح تنازع بين مصر والحثيين، وكانت خلال الألف الأول قبل الميلاد معبراً لبابل وآشور نحو مصر والجزيرة العربية؟ ألم تقم مملكة آشور، التي بنت امبراطورية واسعة مترامية الأرجاء مؤسسة على الحرب، بأية حملة على بلاد الشام؟ إذا كان الجواب نعم، فأين سجلات تلك الحملات الآشورية؟ لقد قام ملوك آشور بتسجيل أخبار حملاتهم بدرجة لا بأس بها من الدقة والتفصيل، فكيف تسنى لهم أن يغفلوا تدوين أخبار حملاتهم في بلاد الشام وهي المجال الحيوي الحقيقي لبلاد الرافدين؟ لقد كان على كل حملة آشورية أن تجتاز بلاد الشام وتصطدم بالممالك الآرامية والكنعانية القائمة آنذاك، قبل وصولها إلى غرب العربية، فلماذا اختار الآشوريون تسجيل أخبار حملاتهم في مراحلها الأخيرة عند غرب العربية؟ كيف تم اخضاع مصر منذ عهد اسرحادون دون المرور بسورية؟ ومصر الفرعونية، هل كانت تتنازع مع حثيي الاناضول على مناطق عسير وتترك لهم الجبل على غاربه في المقاطعات السورية، قبل ظهور القوة الآشورية على المسرح الدولي؟ وأخيراً كيف اتفقت السجلات المصرية والآشورية والبابلية على الصمت المطبق عن علاقات مصر وبلاد الرافدين مع الحضارة الثالثة الواقعة بينهما؟

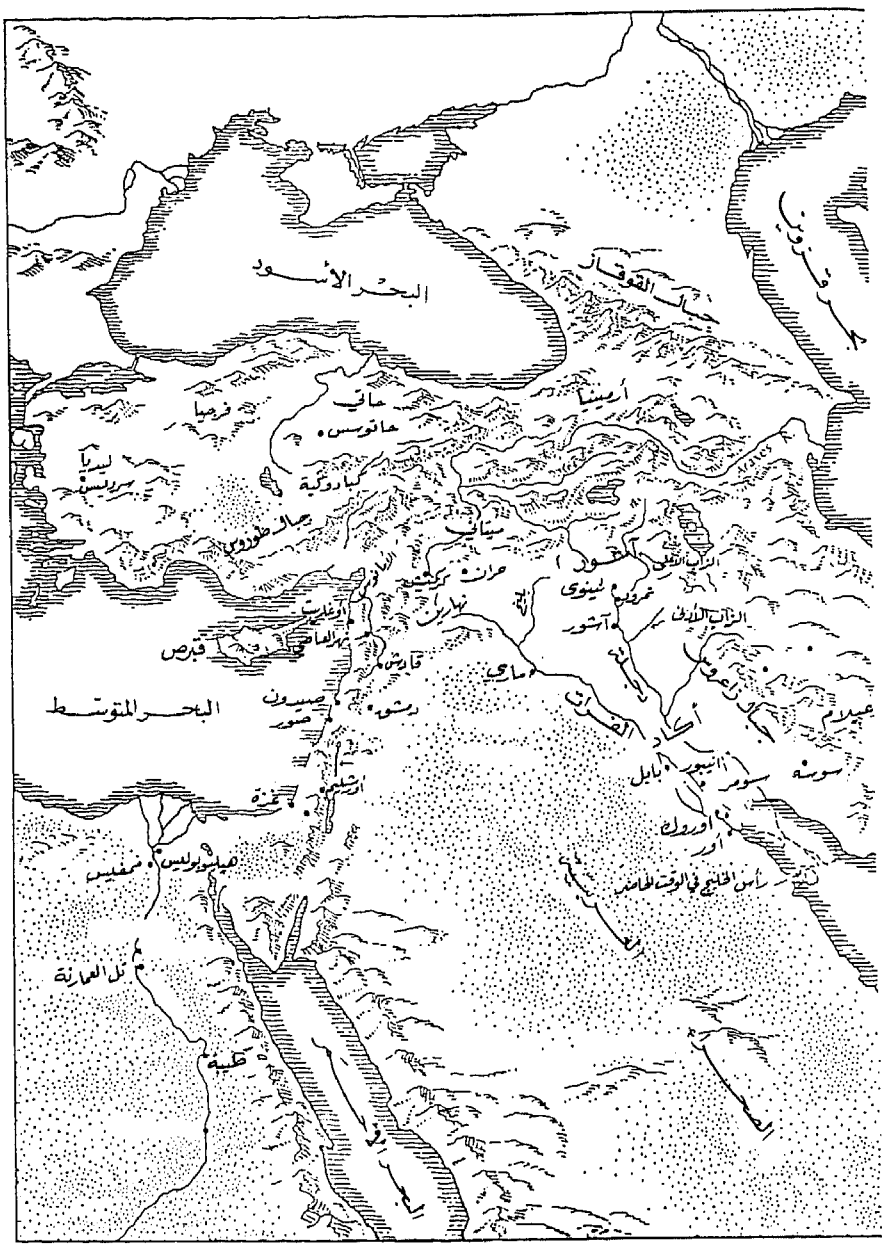

خارطة الشرق الأدنى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثاني

البيئة الآثارية

أركيولوجيا فلسطين «

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثلما يعتقد الصليبي أن سجلات مصر والعراق القديمة قد قرئت على ضوء النصوص التوراتية، وأخذت تلميحاتها الطبوغرافية على أنها تتعلق بفلسطين ومصر والعراق، كذلك يعتقد أن نتائج التنقيبات في فلسطين خلال المائة سنة الأخيرة، قد أجبرت على التلاؤم مع المفهوم التقليدي الذي يأخذ فلسطين، كأمر مسلم به، على أنها بؤرة الحدث التوراتي. ولعله من المستحسن هنا أن نورد المقطع الذي بسط فيه السيد كمال الصليبي فرضيته تلك مستخدمين كلماته ذاتها:

[ان استعراض الدراسات والأبحاث الضخمة التي انتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال السنوات المئة الأخيرة، يلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة. ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فان جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات. والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، دون أن يعثر في أي مكان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي. وأكثر من ذلك فان التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة، وليس بين هذه الأسماء أكثر من قلة قليلة تماثلت لغوياً مع أسماء أمكنة في فلسطين... وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاحـداثيـات المعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في اطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النسبية، لا تنطبق على المواقع الفلسطينية] (ص ٥٠ - ٥١).

هذا المقطع المقتضب، هو المقدمة النظرية الوحيدة التي بسط من خلالها كمال الصليبي المشكلة الأركيـولـوجيـة للتـوراة. وهورغم الطروحات الخطيرة التي يتقـدم بها هنـا، والتي تقـوض عمل أجيال من علماء الآثار خلال أكثر من قرن، فانـه لا يعمـد إلى تدعيم فرضيتـه وفق منهج علم الآثار، إلا من خلال مثالين بسيطين. الأول يتعلق بمدينة «بئر السبع» والثاني بمدينة «جرار»، تاركاً بقية الركام الأركيولوجي إلى منهجه في مقارنة أسماء الأماكن، وهو أبعد المناهج قدرة على التعامل مع أبسط المسائل الآثارية.

هنـاك أمـر يجب الإشـارة اليـه قبـل استعراض بياناتنا الآثارية، وهو أمر نتفق فيـه مع كمال الصليبي، ذلـك أن معظم المـواقع الأثرية التي كشفت عنها التنقيبـات في فلسطـين، وجـرت مطـابقتهـا مع مواقع معروفة سواء في النص التـوراتي أم في سجـلات الشـرق القـديم، لم يعثر بين أنقاضها المدفونة على نصـوص مكتـوبـة، وبـالتـالي لم يكن أمـام المنقبين ما يثبت هوية المدينة سوى احـداثيـاتهـا وحصيلتهـا الأثـريـة. وقـد استنفـذ العلماء في هذا المجال، كل الامكـانيـات المتاحة لعلم الآثار بطرائقه ومناهجه وتقنياته الحديثة، التي وصلت درجـة عاليـة خلال الفـترة التي تلت الحـرب العـالمية الثانية. لذلك فان قول الصليبي بأنـه في الحـالات القليلة التي تماثلت فيهـا أسـماء المـواقـع التـوراتية المكتشفـة مع أسـماء مواقـع توراتيـة فقـد اختلفت احداثياتها مع الاحداثيات المعطاة في التوراة، هوقول مخالف للحقيقة ويحمل الكثير من التجني على علم بكـامله، كما أنـه قول غير مدعم بالأمثلة والاثباتات. فالصليبي لم يأت بحالة واحدة تحمل تناقضاً بين احداثيات الموقع المكتشف واحداثياته التوراتية.

أما قوله بأن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى (ويقصد بلاد الشام) قد مسحت من قبـل أجيـال متـواليـة من علماء الآثار، دون العثور على أثر واحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي ، ففيه الكثير من المبالغة والتغاضي عن حقائق تاريخية وآثارية ثابتة . وإلا كيف يفسر الصليبي العثور على نصب تذكاري محفوظ الآن في متحف حلب تركه «بن حدد الأول» وفيه يقول : [هذا النصب أقامه بن حدد بن ط . . . ملك آرام لسيده ملقارت الذي نذر له فاستجاب][1]، علماً أن بن حدد هذا معروف في أسفار التوراة بحروبه الكثيرة مع مملكة اسرائيل،نقرأ على سبيل المثال ما ورد في سفر الملوك الأول ١٥ : ١٨ [وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده وأرسلهم آسا إلى بنهدد بن طبر يمون بن حزيون ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً ... تعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عني . فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤ ساء الجيوش التي له على مدن اسرائيل] . وكيف يفسر نقش زاكير ملك حماة الذي ذُكر فيه «بن حدد الثالث» ملك دمشق وأبيه حزائيل (انظر الصفحة ١٠٠ سابقاً) وكلاهما معروف في التوراة كملكين لآرام دمشق معاصرين ليهو آخاز وابنه يهوآش من ملوك السامرة؟

نحن مع كمال الصليبي في نقد علم الآثار التوراتي ، ولنا الكثير من التحفظات على العديد من التفسيرات التي بناها التوراتيون على الحقائق الأركيولوجية . إلا أن ذلك لا يعني أن نرفض نتائج علم الآثار في فلسطين جملة وتفصيلاً ، فالحقائق العلمية شيء والتفسيرات غير العلمية شيء آخر، يضاف إلى ذلك أن من عملوا في حقل الآثار في فلسطين ليسوا جميعاً من المدرسة التوراتية ، فهناك الكثيرون ممن قدموا مساهمات جلى في حقل أركيولوجيا فلسطين بعيداً عن التوجهات التوراتية المسبقة .

1- Franze Rosenthal, Canaanite And Aramic Inscription, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texst, Op. Cit) P. 655.

انظر أيضاً علي أبو عساف، الأراميون، المرجع السابق ص ١٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انطلاقاً من هذا الموقع الحذر، الذي يعرف صاحبه كيف يبحث عن المعلومة الموضوعية الصحيحة وأين، سنعرض فيما يلي إلى نقد النتائج القليلة التي توصل اليها الصليبي في مجال علم الآثار، ونزيد على ذلك بتقديم بياناتنا الأثارية التي تظهر الجانب الآخر للمسألة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ـ بئر السبع والبحث عن جرار

لقد اختار كمال الصليبي، كما المحنا سابقاً، لدعم وجهة نظره في علم آثار فلسطين موقعين ثانويين جداً، سواء من منظور الحدث التوراتي، أم من منظور علم الآثار، الأول «بئر السبع» والثاني «جرار».

فيما يتعلق ببئر السبع يقول الصليبي: [. . . وفي حالة بارزة هي حالة بئر السبع الفلسطينية، فان بلدة يظهر اسمها ببر وز في الروايات الآبائية لسفر التكوين، وبالتالي يفترض أن تعود أصولها إلى أواخر العصر البرونزي على الأقل، لم يعثر فيها إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حد. وقد اضطر علماء الآثار في السنين الأخيرة إلى التنقيب على بعد خمسة كيلومترات تقريباً عن بئر السبع للعثور على مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يعثروا على أي برهان قاطع بأن لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بني اسرائيل] (ص ٥١).

وفي الحقيقة، فان بئر السبع لم يكن أبداً من المواقع التوراتية البارزة، ولم يرتبط بأي حدث توراتي هام. ففي عصر الآباء، لم يكن الموقع سوى بئر حفرها ابراهيم، ثم جدد اسحاق حفرها بعد أن ردمت (راجع سفر التكوين ٢١: ١٤ ـ ٣١، ٢٦: ١٨ ـ ٣٥). وقد مر بالموقع بعد ذلك يعقوب في طريقه إلى مصر (التكوين ٤٦: ١ ـ ٥). وفي سفر يشوع الذي يصف الاستيلاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أرض كنعان، يأتي ذكر الموقع عرضاً في جملة ما أعطي لسبط يهوذا (يشوع ١٥ : ٢٨). وفي سفر القضاة وصموئيل الأول والثاني، يذكر الموقع باعتباره الحد الجنوبي لأرض الاسرائيليين، دون أي تفصيلات أخرى حوله (القضاة ٢٠ : ١، صموئيل الأول ٣ : ٣٠، صموئيل الثاني ٣ : ١٠). وكذلك الأمر في بقية الأسفار التي تذكر الموقع دون أن تربطه بأي حدث ذي قيمة (راجع الملوك الأول ٤ : ٣٥ و ١٩ : ٣. الملوك الثاني ١٢ : ١٠ و٢٣ : ٨. اخبار الأيام الأول ٤ : ٢٨ و ٢١ : ٢ أخبار الأيام الثاني ١٩ : ٤ و٢٤ : ١ نحميا ١١ : ٢٧ و ٣٠). فالمكان لم يكن أكثر من تجمع سكني بسيط حول بئر قديمة تقف عندها القوافل في طريقها إلى مصر. ثم تحولت إلى مدينة صغيرة مع تكون المملكة الموحدة ابان القرن العاشر.

أما عن قول الصليبي [بأن المنقبين لم يعثروا في الموقع إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حد، مما اضطرهم إلى التنقيب على بعد خمسة كيلومترات من الموقع للعثور على مواد ترجع في تاريخها إلى زمن التوراة] ، فان ما يعرفه أي مطلع على علم الآثار، هو أن المواقع القديمة كثيراً ما تغير مكانها بمرور الأيام نتيجة هجرانها واعادة بنائها بعد فترة انقطاع قد تدوم بضعة عقود أو بضعة قرون، أو نتيجة لعوامل أخرى متعددة. وموقع بئر السبع في صحراء النقب ليس الوحيد الذي غير موضعه على مر الأزمان. فموقع «جرابلس» اليوم، الذي كان يعرف باسم «جيرابيس» في الفترات السابقة*، قد انزلق مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات عن الموقع الأصلي لمدينة «كركميش» القديمة على الفرات في أقصى الشمال السوري. و«تل بلاطة الذي عثر تحته على مدينة «شكيم» الكنعانية في فلسطين، يقع على بعد ثلاثة كيلو

---

* ـ عرفت جرابلس في الفترتين الهلنسنية والرومانية باسم «أوروبُس» Europos ودعتها النصوص السريانية «آجروبُس»، ثم نجدها في بعض النصوص العربية باسم «جيرابيس».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مترات من مدينة «نابلس» الحديثة. ومدينة «أورشليم» الكنعانية اليبوسية البالغة القدم، لم يعثر عليها المنقبون إلا بعد أن تحولوا عن الموقع الحديث لمدينة القدس، وبدأوا بالتنقيب خارج الأسوار نحو المنطقة الجنوبية. فأي ضير في أن يبعد موقع بئر السبع القديمة مسافة خمسة كيلومترات عن موقع بئر السبع الرومانية وعن موقعها القائم اليوم؟

وأما عن قوله بأن التنقيب على بعد خمسة كيلومترات عن بئر السبع قد أظهر مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يكون لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بين اسرائيل، فاننا نريد أن نوضح أمراً على غاية من الأهمية فيما يتعلق بتاريخ وآثار منطقة فلسطين. ذلك أنه سواء في بئر السبع أو غيرها من المواقع القديمة في فلسطين، لا يمكن التمييز بين ماهو اسرائيلي وما هو كنعاني إلا اعتماداً على تأريخ المادة المكتشفة. ذلك ان الاسرائيليين القدماء خلال فترة حكمهم السياسي القصير في السامرة وأورشليم لم يتركوا بصمة مميزة على أي منحى من مناحي حضارة كنعان التي تضرب في جذورها إلى مطالع التاريخ، بل أنهم تشربوا تلك الحضارة وعاشوا كفئة كنعانية طورت تدريجياً مذهباً دينياً خاصاً انطلاقاً من الديانة الكنعانية ذاتها، فتبنوا الإله «إيل» رئيس مجمع آلهة كنعان وقرنوه بالاله «يهوه» فرفعوه الهاً واحداً لهم، ودفعوا بالاله «بعل» اله الخصب الكنعاني القديم إلى مرتبة الشياطين، فصار «ابليس» الديانة اليهودية التي لم تأخذ ملامحها الثابتة في التوضح إلا بعد تحرير أسفار التوراة بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ بناء هيكل الرب في اورشليم كانت الالهة «عشيرة» زوجة «إيل» تعبد في الهيكل وكان تمثالها المصنوع من جذع شجرة تدعى «السارية» منصوباً في قدس أقداس المعبد*.

---

* ـ وأغلب الظن أن من قدم تمثال عشيرة إلى المعبد كان الملك رحبعام ابن سليمان حوالي عام ٩٣٨ق.م، لأننا نعرف من أخبار «آسا» الذي قام باصلاحه الديني بعد ذلك بحوالي ←

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي الـواقـع، فان المـادة الأثرية التي عثر عليها في بئر السبع تتطابق مع اخبارها التوراتية. فقبل القرن العاشر قبل الميلاد عندما بدأت المملكة الموحدة بالتشكـل، كان المـوقـع عبـارة عن تجمع سكني بسيط، لم يأخذ شكل المدينة المسـورة إلا بدءاً من القـرن العـاشـر قبل الميلاد. وقد أظهرت الأجزاء التي تم كشفهـا من السـور والطرقات والبيوت، تماثلاً في تخطيط المدينة وفي طريقة بناء البيوت وتوضعها، مع مواقع فلسطينية أخرى تعود إلى نفس الفترة مثل موقع «تل بيت مرسيم» و «مجدو» و «حاصور» وغيرها[2].

المـوقـع الثـانـوي الآخر الذي اعتمدت عليه البينة الأركيولوجية لكمال الصليبي هو موقـع «جـرار» الذي خصص له فصلاً كاملاً بعنوان «البحث عن جرار» يقول في بدايته: [قبل بداية البرهان على مدى الدقة في مطابقة جغرافيا التوراة العبرية لجغرافيا غرب شبه الجزيرة العربية، لا بد من ايراد الدليل على مدى الضعف في مطـابقـة تلك الجغرافيا لجغرافية فلسطين. وهذا يتضح تماماً من النظـر في الطـريقـة التي عالج فيها علماء التوراة حتى الآن مسألة «جرار»، وهي بلدة توراتيـة يفـترض أنهـا ازدهـرت في القـدم في جوار غزة بسـاحـل فلسطين، في موقع غير بعيد عن بئر السبع، والتي انجلت عن عدم وجود أي مكان هناك يحمـل هذا الاسم] (ص ٨٥). بعد ذلك يتابع الصليبي اظهار تخبط العلماء التوراتيين في محاولة العثور على جرار، ليجدها لهم أخيراً في أحد مواقـع أربعـة في مرتفعات عسير بين «آل زيدان» (صيدون) و«آل عزة» (غزة)

← ٣٥ سنـة أن الأصنـام كانت قائمـة في الهيكـل وعلى رأسهـا تمثـال عشـيرة (الملوك الأول ١٥ : ٩ ـ ١٨) ويبـدو أن تمثـال عشـيرة قد أعيـد مع الأصنـام في عهد «يوآش» (انظر أخبار الأيام الأول ٢٤ : ١٥ ـ ١٨). ورغم أنها قد أخرجت بعد ذلك أكثر من مرة، إلا أنها كانت قائمـة في آخـر أيـام مملكـة يهوذا عنـدمـا كانت على أبـواب الاجتيـاح البابلي (الملوك الثاني ٢٣ : ٤ ـ ٦).

2- Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, Menthuen, London 1985, PP.279-80, 297.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهي «غُرار» و «الجرار» و «غِرار» و «القرارة» (انظر خريطة الصليبي رقم ٦).

وفي الحقيقة، لم تكن جرار موقعاً هاماً في أخبار التوراة، ولم يرد لها ذكر في سجلات مصر ووادي الرافدين. وقد اوردت أسفار التوراة أخباراً قليلة عنها. ففي سفر التكوين وردت باعتبارها الحد الجنوبي لأرض كنعان قرب مدينة غزة، كما أتى اليها كل من ابراهيم واسحاق بسبب الجوع، وهناك كذب كلاهما على ملكها «أبيمالك» بشأن امرأتيهما. وفي سفر أخبار الأيام الثاني، ساق اليها الملك «آسا» الكوشيين المتقهقرين بعد فشل حملتهم على يهوذا فنهبها جنوده. فأين هذا الموقع الثانوي جداً من مواقع مثل «مجدو» و «حاصور» و «لخيش» و «ترصة» و «السامرة» و «شكيم» و «بيت شان» وغيرها من المواقع الفلسطينية الهامة التي تم اكتشافها والتعرف بدقة على هويتها؟ ولماذا التمسك بمسألة جرار التي لم تكن هماً من هموم علماء الآثار، ولا نعثر لها على ذكر في أمهات الأبحاث التي تستعرض نتائج التنقيب في فلسطين؟. علماً بأن كمال الصليبي لم يستشهد في بحثه عن جرار أو غيرها بأي عالم مرموق في مجال علم الآثار، بل اكتفى بالاشارات الغامضة إلى العلماء التوراتيين» الذين نعرف، ويعرف، كم أساؤوا إلى مسألة آثار فلسطين وجعلوا من علم الأركيولوجيا استمراراً لعلم اللاهوت، وكان جل اقتباساته في المسائل الأثرية مأخوذاً عن «سايمنز» و «كريلنغ» وكلاهما لم يضرب معولاً واحداً في أرض فلسطين.

ومن ناحية أخرى، فان عدم العثور على موقع قديم حدد الأثاريون والمؤرخون مكانه التقريبي اعتماداً على النصوص القديمة، لا يعني سوى مسألة مؤجلة. فمدينة «إيبلا» الوارد ذكرها في أقدم سجلات أكاد، لم تكتشف إلا في سبعينيات هذا القرن، ومدينة «شُباط انليل» عاصمة الملك الأشوري «شمسي حدد» التي تكرر ذكرها في سجلات «ماري» وغيرها، لم يمكن التأكد من هويتها إلا في عام ١٩٨٧ في «تل ليلان» بالجزيرة السورية. ومدينة «أكاد» عاصمة صارغون الأول مؤسس الدولة الأكادية، لم يعثر عليها حتى الآن، ومثلها في ذلك مدينة «أشوكان» عاصمة مملكة «ميتاني». فأي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضير في ألا يتم العثور حتى الآن على موقع صئيل اسمه «جرار» . وأي دليل يقدمه ذلك لمسألة الجغرافيا التوراتية؟

والحقيقة ان مسألة جرار لم تعالج من قبل كمال الصليبي باعتبارها مسألة أركيولوجية بالدرجة الأولى، وكذلك فيما يتعلق ببئر السبع، بل لقد اتخذ من الاشكالات الاركيولوجية لهذين الموقعين مدخلاً للولوج إلى مسألة «أخطر وهي مسألة «أرض كنعان» التوراتية التي نقلها بكاملها إلى بلاد عسير وجاورها هناك مع اسرائيل. وبما أن علم الآثار يعتبر اليوم من أهم العلوم التي تمد علم التاريخ بمادته، فاننا سنعمد فيما تبقى من هذا الباب إلى بسط المسألة الاركيولوجية لفلسطين بالقدر الذي يسمح به حيز هذا الكتاب ومقصده، مقدمين نبذة سريعة عن خلاصة التنقيبات الأثرية في عدد من المواقع الهامة، والنتائج المتفق عليها بين علماء الآثار، ومقاطعة هذه النتائج مع السجلات القديمة بما فيها كتاب التوراة. وسيكون اعتمادنا في هذا الموضوع بشكل رئيسي على عالمة الآثار البريطانية «كاثلين كينيون» التي نقبت في عدد من المواقع الفلسطينية من أهمها موقع «أريحا» وموقع «أورشليم»، والتي خلقت أعمالها التنقيبية ومؤلفاتها العديدة تياراً موضوعياً مقابلاً لتيار المدرسة التوراتية.

اضافة إلى التقارير المتفرقة للسيدة كينيون فقد اعتمدت مادتنا هنا على مؤلفاتها المنشورة التالية:

1- Archaeology In the Holy Land, Menthuen, London 1985.

2- Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London 1974

3- Royal Cities Of The Old Testament, Barrie And Jenkins, London, 1971

4- The Bible and Recent Archaeology, Colonnade Books, London, 1978.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ أورشليم
حاضرة كنعان

ورد اسم اورشليم لأول مرة في نصوص مصرية ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وخصوصاً فيما يدعى «بنصوص اللعنات» وهي نصوص منقوشة على جرار فخارية تذكر أسماء البلاد والحكام من أعداء الفراعنة. وكانت هذه الجرار تحطم في طقس سحري خاص لجلب الأذى على المذكورة أسماؤهم عليها. نقرأ في أحد تلك النصوص[٣]:

١ ـ ايروم، حاكم أي ـ عناق، وجميع بطانته.
٢ ـ ايابوم، حاكم شوتو، وجميع بطانته.
٣ ـ خالوكيم، حاكم عسقانو، وجميع بطانته.
٤ ـ يقرب ـ آمو، حاكم اورشليم، وجميع بطانته.
٥ ـ أبيش ـ حدد، حاكم شكيم، وجميع بطانته.
٦ ـ يابانو، حاكم أكشف، وجميع بطانته.
٧ ـ جتجي، حاكم حاصور، وجميع بطانته.
٨ ـ . . . ، حاكم عشتاروت، وجميع بطانته.
٩ ـ أخو كالكول، حاكم أوبي، وجميع بطانته.

3- John A. Wilson, Egyptian Rituals, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, op. cit) p. 228.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠ ـ . . . . ، حاكم صور، وجميع بطانته.
١١ ـ توري آمو، حاكم عكا، وجميع بطانته.
١٢ ـ ياتيب ايل، حاكم بيت شميش، وجميع بطانته.
١٣ ـ قبيلة عرقاتا.
١٤ ـ قبيلة جبيل.

إلى جانب اورشليم، نتعرف في هذا النص على عدد من المدن الكنعانية القديمة في فلسطين مما ورد في سجلات الشرق القديم، وفي التوراة لاحقاً، مثل شكيم، واكشف وحاصور وعكا وبيت شميش. وعلى عدد من المدن الكنعانية الساحلية مثل صور وعرقاتاوجبيل، وعلى مقاطعات داخلية مثل أوبي. أما الاشارة إل قبيلة عرقاتا وقبيلة جبيل، فهي اشارة إلى القبائل العمورية التي استوطنت أطراف المدن الكبرى في مطلع الألف الثاني بعد أن خربتها. وهذا النص القديم وأمثاله، يثبت أن اسم مدينة أورشليم قديم قدم وجودها، ولا علاقة للاسرائيليين النازحين بتسميتها وتسمية غيرها من مدن كنعان باسماء مواقع عرفوها في غرب العربية كما يرى كمال الصليبي (ص ٣٥). كما ورد ذكر اورشليم بعد ذلك بخمسمائة سنة في رسائل تل العمارنة، مما ذكرناه سابقاً (الصفحة ٥٧ سابقا). وقد بقي اسمها قائماً إلى ما بعد دمارها على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية، دون أن يطغى عليه اسم «إيليا كابيتولينا» التي بناها الرومان على أنقاضها فيما بعد، في أيام الامبراطور «هدريان» حوالي عام ١٣٥ ميلادية(*)

فيما عدا اسم المدينة وموقعها في فلسطين، لا تسعفنا نصوص الشرق القديم بكثير عن المعلومات عن أورشليم ولا عن الكنعانيين اليبوسيين من سكانها ممن كانوا يقيمون فيها قبل وبعد التسرب الاسرائيلي، على ما يخبرنا به

---

* ـ والاسم «ايليا» مأخود من الاسم الأوسط للامبراطور «هدريان» وهو Publius Aelius Hadrianus

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب التوراة. فرغم أن سفر يشوع وسفر القضاة يتحدثان عن احتلال المدينة واحراقها، إلا أننا نرى بعد ذلك أن المهاجمين لم يقدروا على طرد السكان بل حلوا بين ظهرانيهم: [وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى يومنا هذا] يشوع ١٥ : ٦٣. [وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم] القضاة ١ : ٢١. والشيء نفسه ينطبق على معظم المدن الكنعانية الأخرى، حيث يتحدث سفر القضاة ١ : ١٦ ـ ٣٦ عن عجز الاسرائيليين عن طرد بني كنعان فسكنوا بينهم. وعندما نُصب داود ملكاً عمل على احتلال أورشليم، مما يشير إلى أن المدينة بقيت تحت الحكم الكنعاني بعد مائتي عام من التاريخ المفترض لاحتلالها واحراقها على يد يشوع. ومرة أخرى نجد أن داود لم يقدر على طرد اليبوسيين الذين بقوا في أورشليم مشكلين سواد أهلها (راجع صموئيل الثاني ٥ : ٦، ٨، ٩ وأخبار الأيام الأول ١١ : ٤ ـ ٨) وقد بقي اليبوسيون في الأرض إلى ما بعد السبي البابلي (راجع عزرا ٩ : ١ ـ ٢) ومن أسماء المدينة أو القابها في التوراة نجد «يبوس» (القضاة ١٩ : ١٠ ـ ١١) و «أريئيل» (أشعيا ٢٩ : ١) و «المدينة» (مزامير ٧٢ : ١٦) و «القدس» (أشعيا ٤٨ : ٢).

عندما بدأت التنقيبات الأثرية في أورشليم، توجه المنقبون إلى مدينة القدس بموقعها الحالي يبحثون عن حدود أورشليم القديمة. ثم تبين بعد ذلك أن المدينة اليبوسية تقع بكاملها إلى الجنوب من المدينة الحالية على سلسلة تلال القدس الشرقية. وقد تطابقت جغرافية وطبوغرافية المدينة المكتشفة مع وصوفاتها الواردة في التوراة. فالمدينة اليبوسية قد بنيت على الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية. وبني الهيكل على الجزء الأوسط منها أما الجزء الشمالي فلم يكن ضمن المدينة القديمة، وهو يقع حالياً ضمن مدينة القدس. وتحيط التلال بأورشليم من ثلاثة جوانب (مزامير ١٢٥ : ٢)، فإلى الشمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرقي منها جبل «سكوبس» (ويدعى أيضاً جبل المشهد وجبل المشارف)، وإلى الشرق «جبل الزيتون» وإلى الجنوب «جبل المكبر». أما عن الوديان، فالى المشرق منها وادي «قدرون» وهو يقع بين المدينة وجبل الزيتون، ويسمى أيضاً وادي «يهوشافاط» (سفر يوئيل ٣ : ١٢) ويدعى بالعربية «وادي الست مريم، وإلى الغرب منها بين سلسلة التلال الشرقية والغربية هناك وادي «تير وبيون» ويسمى بالعربية بالوادي، وإلى الغرب من سلسلة التلال الغربية هناك وادي «هنوم» ويسمى بالعربية «وادي الربابة».

اثبتت التنقيبات الأثرية أن المدينة ترجع بعهدها إلى عصر البرونز المبكر منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وهي فترة نشوء دويلات المدن في فلسطين. ولكنها كانت في ذلك الحين صغيرة ودون أسوار، ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، تظهر في الموقع دلالات انقطاع سكني وحضاري، حصل على الأغلب نتيجة لاجتياح القبائل العمورية منطقة مصر والهلال الخصيب، وقضائها على معظم المراكز الحضرية فيها. ثم انتعشت اورشليم مجدداً في مطلع عصر البرونز الوسيط، وظهرت المدينة اليبوسية التي تم الكشف عن سورها الذي يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ١٨٠٠ ق.م[1]، وهي الفترة التي ظهر فيها اسم أورشليم لأول مرة في النصوص المصرية.

وقد استطاعت التنقيبات الأثرية الأخيرة (حملة السيدة كاثلين كينيون بين عامي ١٩٦١ - ١٩٦٧) رسم حدود المدينة اليبوسية على السلسلة الشرقية لتلال القدس (انظر الخريطة رقم ٩). أما المدينة نفسها فلم يبق منها شيء يذكر، وذلك بسبب استخدام حجارتها في بناء الطبقات السكنية التالية لها. ويبدو أن موضع السور الشرقي للمدينة كان محكوماً بنبع جيحون في وادي قدرون، الذي كان المصدر الأساسي لماء الشرب. فالسور يجب أن يكون قريباً من النبع لحمايته أثناء الحصار، ولكن يجب ألا يهبط كثيراً إلى الوادي كي

4- Kathlee Kenyon, Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London, 1974, PP 76,83

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يكشف المدينة والمدافعين عنها. وكان الوصول إلى النبع يتم عن طريق نفق حُفر تحت الأرض يمر أسفل السور، تم الكشف عنه خلال التنقيبات[5] وهذا النفق هو القناة المذكورة في الرواية التوراتية، والتي نفذت منها إلى داخل المدينة مجموعة اقتحام الملك داود (راجع سفر صموئيل الثاني ٥ : ٨ و أخبار الأيام الأول ١١ : ٦ - ٧).

وفي عصر البرونز الأخير، وفيما بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر، تم تحديث المدينة الكنعانية باستعمال تقنية انشائية جديدة، حيث اقيمت على المنحدر الشرقي للتل مصاطب متدرجة بنيت من أحجار ضخمة، استخدمت كمساحات مستقرة لبناء البيوت الجديدة، فتم بذلك الافادة من المنحدر بطريقة مجدية، وتعمير بيوت كبيرة خلفت البيوت الوضيعة المبعثرة دون نظام. وهذه التقنية الهندسية كانت بحاجة دائمة إلى الصيانة والا انهارت مع الزمن، ولذلك لم يأل كنعانيو أورشليم جهداً في اصلاحها، وآثار تلك الاصلاحات بادية في تلك البنية الجبارة، وكذلك آثار الانهيارات المتلاحقة غير أن البيوت التي شيدت فوق تلك المصاطب قد زالت تماماً، ولم يعثر المنقبون إلا على انقاض بيت واحد يعود بتاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد[6].

وفي الحقيقة، فان اكتشاف هذه التقنية الانشائية في اورشليم، قد ساعد على فهم كلمة وردت في التوراة واختلف الدارسون والمترجمون في فهمها، وهي كلمة «ملو» العبرية التي تعني الملء أو التكميل. فبعد أن سيطر الملك داود على أورشليم، كان من أعماله الأولى اصلاح المدينة ابتداء من «الملو» إلى ما حولها (أخبار الأيام الأول ١١ : ٨). ومن بين أعمال الملك سليمان الانشائية بناؤه الملو وسور أورشليم (الملوك الأول ٩ : ١٥ و ١١ : ٢٧)، وكذلك فعل حزقيا عندما كان يهيء المدينة للحصار الآشوري (أخبار الأيام

5- Ibid, PP. 84,93.

6- Ibid, PP. 94-97, 98-103.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثاني ٣٢ : ٥). وقد اختلفت ترجمات التوراة إلى العربية في أمر كلمة الملو، فبينما ترك الآباء اليسوعيون الكلمة على حالها فقالوا «ملو»، قامت ترجمات أخرى باستعمال كلمة «القلعة» لاعتقادهم أن المكان كان حصيناً كقلعة، كما ظن البعض أن الملو هو ساحة الهيكل، والبعض الآخر أنه عبارة عن الأحجار التي ردمت لملء الفراغ بين المدينة اليبوسية على التل الجنوبي والهيكل على التل الأوسط واقامة البيوت هناك. أما الآن فمن الواضح أن الملو هو تلك المصاطب الهائلة التي بناها الكنعانيون على المنحدر الشرقي على هيئة سلسلة متتابعة من امتلاءات الحجارة الضخمة تتدرج من أسفل السور صعوداً نحو ذروة التل، وأن في تعبير «إصلاح الملو» أو «بناء الملو» الوارد في التوراة اشارة إلى هذه البنية التي ورثتها المملكة الموحدة عن الكنعانيين. فلقد كشفت التنقيبات[٧] عن آثار واضحة لمصاطب إضافية بنيت في القرن العاشر (فترة داود وسليمان)، وعن اصلاحات واضافات فيما بين القرن العاشر والثامن.

وهنا نود التوقف قليلاً لعرض ما جاء به الصليبي حول كلمة الملو. فرغم وضوح النص التوراتي الذي يجعل من الملو منشأة تقع داخل أورشليم، فان الصليبي، في حديثه عن أورشليم ومدينة داود، يجعل من الملو إسماً لموقع في عسير هو «الهامل»* في مرتفعات «رجال ألمع» قرب «قعوة الصيان» التي هي «حصن صهيون» المختلف عن اورشليم (ص ١٨٠ - ١٨٢). وفي هذا مثال واضح عن مدى خسارة دارس التاريخ للإضاءات التي يلقيها على موضوعه علم الآثار، عندما يسقطه من حسابه.

كان الاستيلاء على اورشليم، وفق الرواية التوراتية، البداية الحقيقية للمملكة الموحدة ابان القرن العاشر قبل الميلاد، لأنها كانت تشكل مع

7- Ibid, P 103.

* - ان قرن كلمة «الملو» هنا بموقع «الهامل» هو مثال واضح على مدى مرونة منهج كمال الصليبي في مقابلة أسماء الأماكن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«جازر» و «عجلون» خطاً كنعانياً يفصل بين القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية. ورغم ذكر التوراة للعديد من الأعمال الانشائية الدفاعية التي قام بها داود (راجع صموئيل الثاني ٥ : ٩ وأخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٥)، إلا أن أياً من هذه الأعمال لم تقم عليه البينة الأثارية. ويبدو أن كل ما فعله داود كان اصلاحات جزئية على السور اليبوسي الذي بقي على حاله حتى القرن الثامن قبل الميلاد[٨].

وعندما خلف الملك سليمان أباه داود، كانت الأمور قد استقرت نسبياً للمملكة الموحدة، داخلياً وخارجياً، فالتفت سليمان إلى أعمال التشييد والبناء ونشاطات الديبلوماسية. فاضافة إلى اعادة بناء ثلاث مدن كنعانية قديمة هي «حاصور» و «مجدو» و «جازر»، فقد التفت إلى أورشليم فبنى هيكل الرب خارج أسوار المدينة الكنعانية، وبنى قصوراً لسكنه وادارته وزوجاته (الملوك الأول ٥ ـ ٦ وأخبار الأيام الثاني ٢ ـ ٤).

وبما أن المدينة السليمانية قد زالت مع المدينة اليبوسية بسبب اقتلاع الحجارة لاستعمالها في اعادة البناء، كما اسلفنا، فان علم الآثار لا يستطيع إعطاء فكرة عن أبنية سليمان وقصوره الفارهة التي أطنب كتاب التوراة في وصفها*. أما معبد سليمان فموقعه مؤكد، وقد بني خارج المدينة اليبوسية على التل الأوسط، ثم تم وصل سور المعبد بسور المدينة، وبذلك اكتسبت أورشليم مساحة جديدة إلى الشمال في المنطقة الواقعة بين الهيكل والمدينة (انظر خريطتنا رقم ١٠). ويعتقد المنقبون أن أبنية سليمان قد أقيمت على هذه المساحة الجديدة، وذلك لاستحالة اضافتها إلى المدينة الكنعانية بسبب ضيقها وازدحامها. وقد استطاعت التنقيبات الأثرية تحديد خط السور الإضافي، وأمكن ارجاع تاريخ بنائه إلى النصف الثاني من القرن العاشر قبل

8- Ibid, P.100

* ـ هذا إذا كانت هذه الأبنية قد وجدت أصلاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الميلاد، أي إلى فترة حكم داود وسليمان[9].

وتتطابق الرواية التوراتية حول موقع المعبد مع نتائج التنقيب الأثري، فالموقع قد تم اختياره وتحديده خارج المدينة من قبل الملك داود. فبعد أن أرسل الرب ملاكه بالأوبئة الفتاكة على اسرائيل فقتلت منهم سبعين الفاً، ندم على اتيانه الشر، وأمر الملاك بالتوقف بعد أن وصل تخوم مدينة أورشليم عند بيدر يملكه رجل كنعاني اسمه «أرنان اليبوسي». ورفع داود عينيه ورأى عند الأفق ملاك الرب واقفاً بين السماء والأرض وسيفه مسلول بيده وممدودة على أورشليم، فسقط هو والشيوخ على وجوههم، واسترحم داود الرب من أجل خلاص المدينة، فأمره الرب أن يقيم مذبحاً في المكان الذي وقف الملاك عنده. فصعد داود إلى ارنان اليبوسي وكان يدرس حنطة في بيدره، واشترى منه المكان وأقام مذبحاً هناك وقال هذا هو بيت الرب الاله، وهذا هو مذبح المحرقة. ثم بدأ بتحضير ما يلزم لبناء الهيكل على أن يكمله من بعده ابنه سليمان (راجع أخبار الأيام الأول ٢١ : ٩ - ٣٠ و٢٢ : ١ - ٥).

لم يبق من هيكل سليمان ولا من أسواره شيء عقب التدمير البابلي للمدينة عام ٥٨٧. ولكن هناك قسم لا بأس به من أساسات سور الهيكل الثاني الذي بناه «زبابل» الذي عينه الفرس والياً على اورشليم، بعد سماحهم بعودة من يرغب إلى أورشليم، وانتهى من بنائه عام ٥١٥ق.م. وقد استمر الهيكل الثاني قائماً إلى عهد «هير ود الكبير» ملك منطقة «اليهودية» الذي حكم بمعونة الرومان في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن صارت سورية اليهم، ثم قام هير ود بتوسيع الهيكل والإضافة إليه حتى بلغت مساحته ضعف المساحة الأصلية تقريباً (انظر المخطط رقم ١). ولكن معبد هير ود قد لقي مصير هيكل سليمان القديم إذ تم تدميره على يد الرومان خلال حملتهم على اورشليم عام ٧٠ ميلادية، ولم يبق منه سوى قسم من

9- Ibid, PP. 110-116

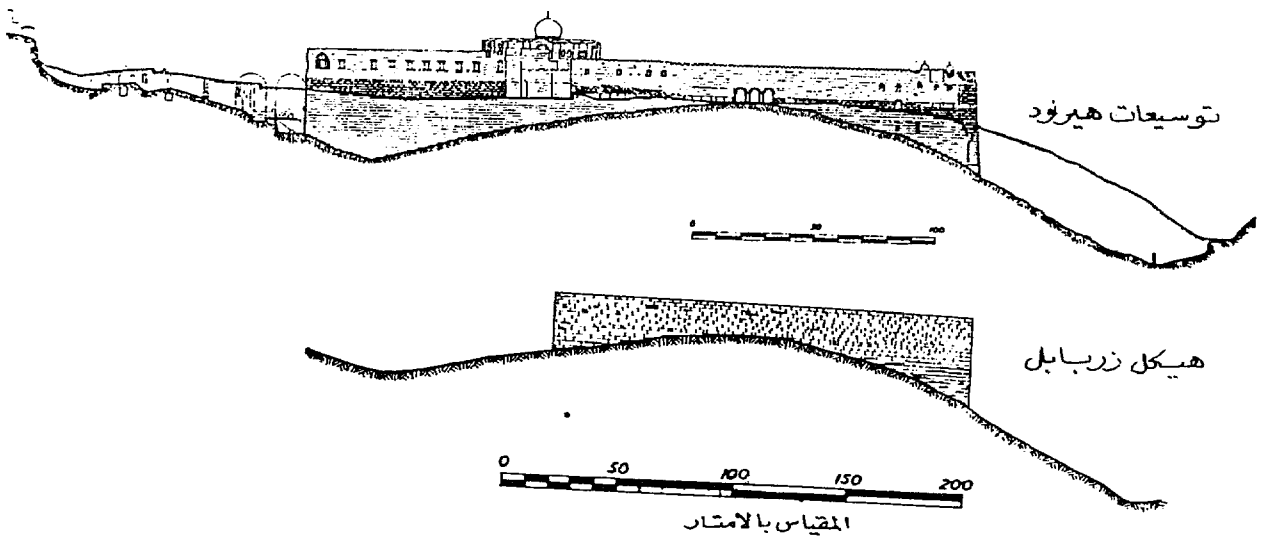

المخطط رقم (١) ـ توسيعات هيرود على هيكل زربابل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أساسات سوره ما زالت واضحة اليوم بعد ازاحة الأتربة عنها، وأرضيته التي أقيم عليها المسجد الحرام وقبة الصخرة. والجزء الباقي من أساسات سور هير ود مؤلف من قسمين، قسم يعود إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وهو ما تبقى من سور هيكل «زربابل» وقسم يعود إلى القرن الأول الميلادي وهو أساس سور هير ود نفسه. ويلتقي الأساسان بشكل واضح عند نقطة تقع على مسافة ٣٣ متراً تقريباً إلى الشمال من الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم الحالي[١٠].

في الفترة التي تلت انهيار المملكة الموحدة وتحول اورشليم إلى عاصمة لمملكة يهوذا الجنوبية، كشفت التنقيبات عن عدة اصلاحات في سور المدينة واضافات إليه، أهمها تلك التي تمت حوالي عام ٧٠٠ق.م، والتي لاحظ المنقبون أن بعضها قد تم على عجل، إلى درجة أن أحد الأسوار قد رفع دون أساسات راسخة مما يدل على أنه قد بني في حالة الاستعداد للحرب واقتراب الحصار[١١]. هذه الاصلاحات العاجلة وتاريخها تنطبق على الاصلاحات التي قام بها الملك حزقيا عندما كان يستعد لمواجهة قوات الملك الآشوري سنحاريب الذي حمل على يهوذا حوالي عام ٧٠٠ ق.م، وحاصرت قواته اورشليم حصاراً طويلاً (انظر الصفحة ١١٦سابقاً). نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٥ [وتشدد ـ حزقيا ـ وبنى كل السور المنهدم وأعلاه إلى الأبراج، وسوراً آخر خارجاً، وحصن القلعة مدينة داود، وعمل سلاحاً بكثرة وأتراساً . .].

على أن أهم أعمال حزقيا الباقية إلى الآن من تلك الفترة، هو جر مياه نبع «جيحون» في قناة تمر تحت مدينة أورشليم إلى الوادي المركزي (تيبر يون) على الميل الغربي للتل لتصب في بركة «سلوام»، في موقع محمي يمكن الدفاع

10- Ibid, PP. 107-112

11- Ibid, P 151

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنه، وذلك لمنع الآشوريين من السيطرة على مصدر المياه الوحيد الذي يغذي المدينة نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٣٠ [وحزقيا هذا، سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود. وأفلح حزقيا في كل عمله. .].

وبركة «سلوام» لا تزال قائمة اليوم في نهاية السفح الغربي للتل الجنوبي الذي كانت اورشليم قائمة عليه، واسمها اليوم بركة «سلوان». أما القناة الواصلة بين نبع جيحون على السفح الشرقي (واسمه اليوم نبع العذراء) وبركة سلوان على السفح الغربي، فقد تم اكتشافها عام ١٨٦٧ من قبل المنقب «وارن» Warren، ونظفت من قبل المنقب «باركر» Parker عام ١٩١١. ثم اعادت حملة السيدة كاثلين كينيون ١٩٦١ - ١٩٦٧ تنظيفها واعادتها إلى ما كانت عليه منذ ٢٧٠٠ عاماً. هذا ويتطابق مجرى هذه القناة المكتشفة مع الوصف الذي أعطاه سفر أخبار الأيام الثاني (انظر خريطتنا رقم ١١). ويستطيع أي زائر اليوم أن يسير خلالها منتصب القامة أو منحنياً مستعملاً الأنوار الكشافة[١٢].

وقد عثر في نفق القناة على نقش حجري يصف لحظة انتهاء حفر القناة بالتقاء فريقي الحفر الذين انطلقا كل من اتجاه. تقول ترجمة النقش: [بينما النحاتون يرفعون فأس الحفر، كل تجاه رفيقه، وبينما بقي ثلاثة أذرع للنحت، سُمع صوت رجل ينادي أخاه لأنه وجد ثقباً في الصخر من ناحية اليمين. وفي يوم انثقابه، ضرب النحاتون رجل أمام رجل، فأس على فأس. وسالت المياه من النبع إلى البركة مسافة مائتين وألف ذراع ومائة ذراع. وكانت قمة الجبل فوق رأس النحاتين][١٣].

وهنا سنتوقف قليلاً لعرض وجهة نظر الصليبي في موضوع قناة سلوام

12- Ibid, PP.151-158

13- إ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت ١٩٨٠. ص ٨٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث يقول في الصفحة ١٠٧ من كتابه : [عثر على نقش صخري في سلوان، قرب القدس، يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هناك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معـاً. ولـو قال النقش ان هذا النفق حفـر في عهـد حزقيـا الملك، لكان فيه تأكيد واضح لنصي سفر الملوك الثاني ٢٠ : ٢٠ وأخبار الأيام الثـاني ٣٢ : ٣٠ اللذين يتحـدثـان عن بركـة وقناة أنشأهما الملك حزقيا، ملك يهوذا. لكن الـواقـع هو أن النقش المذكور لا يشير إلى أية أسماء، سواء كانت أسـماء أشخـاص أم أسـماء أمكنة، ولذلك لا تجوز نسبته إلى عهد حزقيا، كما فعـل البـاحثـون التـوراتيـون زيفـاً. ويبـدو أن هؤلاء البـاحثين لم يأخذوا في اعتبارهم أن الأقنية المائية كانت تحفر في كل الأزمنة، أينما كان، ومتى ظهرت الحـاجـة اليها. والواقع أن نقش السلوان لا يشير حتى إلى أن القدس الحالية هي فعلاً أورشليم التوراتية، لأنه لا يذكر إسم الموقع].

في المقطـع أعـلاه، مثـال على طريقـة الصليبي في تقـديم نصف المعلومات اللازمة للقاريء غير المتخصص من أجل الحكم على قضية بالغة التخصص. فهـو يركـز على (النقش الـذي يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هنـاك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معـاً). ولا يذكـر أن القنـاة المـائيـة التي يتحـدث عنهـا النقش قد تم اكتشـافهـا، وأنهـا تجري تحت مدينة أورشليم القـديمـة من نبـع جيحـون في الوادي الغربي الى طرف المدينة في الوادي الشرقي تماماً كما هو مذكور في النص التوراتي، وهو يقول إن النقش قد عثر عليه (في «سلوان» قرب القدس)، ولا يقول إن النقش قد عثر عليه داخل قنـاة السلوان التي تقـع بكـاملهـا ضمن مدينة القدس اليوم. ثم يلصق التهم بالباحثين التوراتيين ممن لا ناقة لهم ولا جمل في هذه القضية التاريخية الآثارية، ويتغاضى عن جهد المنقبين الأوائل الذين استكشفوا القناة من أولها إلى آخرها زحفـاً على البطـون، لأنهـا كانت مليئـة بالأتـربة والنفايات التي تراكمت عبر العصور، دون أن يكونوا متأكدين من خروجهم سالمين من الجهة الأخرى. ثم يقول (بأن الأقنية المائية كانت تحفر في كل الأزمنة أينما كان ومتى دعت الحاجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى ذلك)، وهذا صحيح تماماً ولكن قناة السلوان متفردة في تقنيتها وطريقة حفرها ولا نظير لها في مدن الشرق القديم طراً، وان وصف قناة أورشليم الوارد في النص التوراتي لا ينطبق إلا على القناة المكتشفة تحت موقع اورشليم القديمة. وهو يقول أخيراً بان (نقش السلوان لا يشير إلى أن القدس الحالية هي فعلاً أورشليم التوراتية لأنه لا يذكر اسم الموقع). ونحن مستعدون للموافقة جدلاً على هذه النقطة، لو أن نقش السلوان لم يعثر عليه داخل القناة، ولو ان البينة الأركيولوجية لم تقم على وجود هكذا قناة.

بعد نجاة اورشليم من الحصار الآشوري عام ٧٠٠ ق.م قيض لها أن تستمر قرابة قرن آخر من الزمان كعاصمة لمملكة صغيرة شبه مستقلة، خصوصاً بعد زوال آشور وصعود المملكة البابلية الجديدة. غير أن نبوخذ نصر حمل على مملكة يهوذا عام ٥٨٨ ق.م وأخذ اورشليم، ثم حمل عليها كرة أخرى وهدم اورشليم والهيكل عام ٥٨٧ق.م(انظر الصفحة ١٢١ سابقاً). وهنا تأتي البينة الأركيولوجية لتثبت ما ورد من تفاصيل عن دمار أورشليم. فقد أظهرت التنقيبات الأثرية الأخيرة خراب سور اورشليم في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وانهيار المصاطب (الملو) التي لم تستعمل بعد ذلك قط. وفي بقية مدن يهوذا ظهرت آثار واضحة على الانقطاع الحضاري دامت قرابة قرن ونصف من الزمان[14].

أما فيما يتعلق باعادة بناء الهيكل والمدينة بعد العودة من السبي البابلي، فقد تم العثور على سور المدينة الجديد الذي بناه «نحميا» والذي يرجع بتاريخه إلى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك على جزء لا بأس به من سور الهيكل الذي بناه زربابل، وكذلك على أسوار وتحصينات المكابيين وفيها

14- Katheen Kenyon, Digging up Jerusalem op cit. PP. 166-172

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البرج الذي يدعى اليوم خطأ ببرج داود، وعلى جدران معبد هيرود الموسع[١٥].

في عهد هيرود الذي عينه الرومان ملكاً على «اليهودية» اكتمل تقريباً انزياح أورشليم نحو مدينة القدس الحالية. وقد أظهرت التنقيبات آثار أسوار هيرود الجديدة، واستطاعت رسم صورة أقرب إلى الدقة لأورشليم في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. كما تم العثور على العديد من البيوت والأبنية التي ترجع إلى تلك الفترة، ومن بينها جزء من قصر هيرود نفسه. مدينة هيرود هذه هي مدينة الأناجيل، وهي المدينة التي تعرضت للدمار الأخير على يد القائد الروماني «تيتوس» الذي هدم الهيكل وسوى أبنية أورشليم بالتراب. وقد كشفت التنقيبات عن آثار الدمار الكبير الذي حل بالمدينة أواخر القرن الأول الميلادي، واستعمال حجارتها لبناء المدينة الرومانية «ايليا كابيتولينا» فوق الخرائب عام ١٣٥ ميلادية. وأسوار هذه الأخيرة تتطابق إلى حد كبير مع الأسوار التي بناها للقدس السلطان سليمان القانوني، وهي الأسوار التي ما تزال قائمة إلى اليوم[١٦].

وبعد، هذه لمحة عن اركيولوجيا أورشليم لا يتسع كتابنا لأطول منها، وهي تختصر ألوف الصفحات ومئات التقارير الأثرية وجهد أجيال متعاقبة من علماء الآثار، ولعلنا نشعر الآن أن نقل موقع أورشليم إلى موقع «آل شريم» في سراة عسير أو موقع القريتين التوأمين «أروي» و«آل سلام» في غرب العربية يتطلب أكثر مما يستطيع منهج مقارنة أسماء المواقع تقديمه.

15- Ibid, PP 172-204

16- Ibid PP 236-255

- K. Kenyon, the Bible And Recent Archaeology, Colonnade Books, London 1978, ch.6

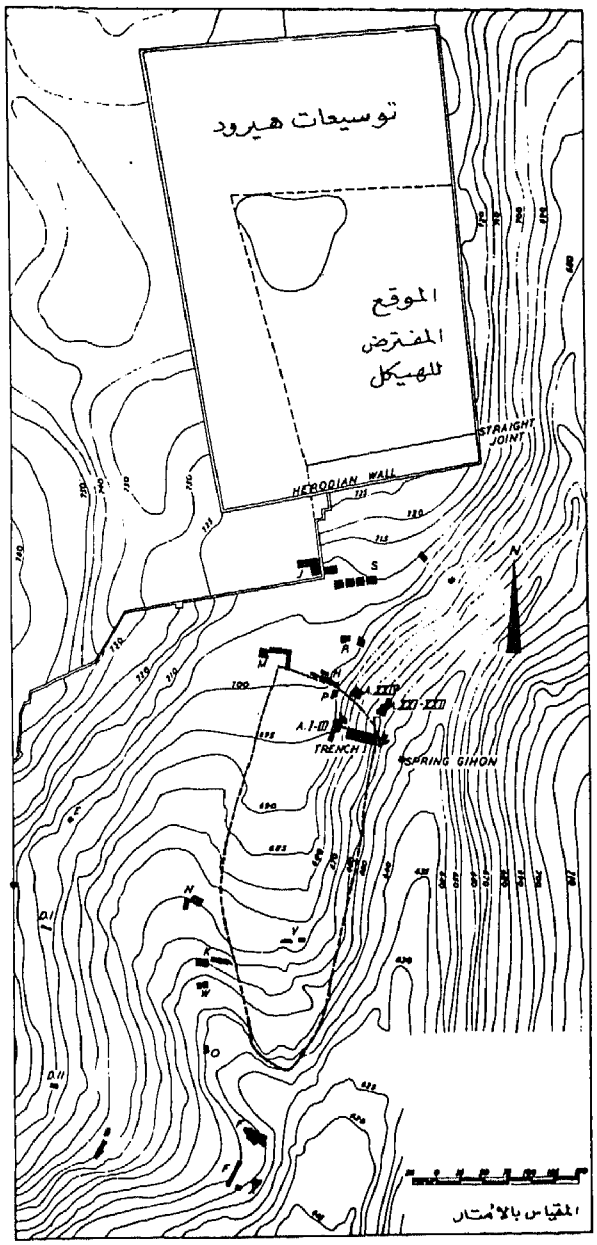

الخارطة رقم (٩) - أورشليم اليبوسية

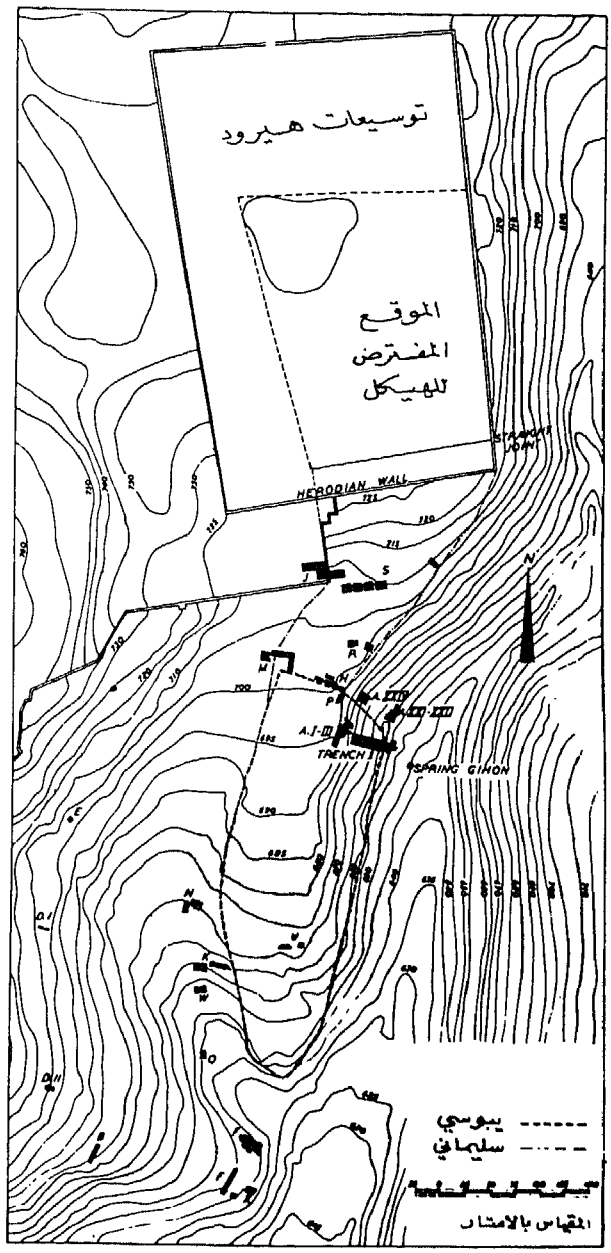

الخارطة رقم (١٠) - إضافات سليمان

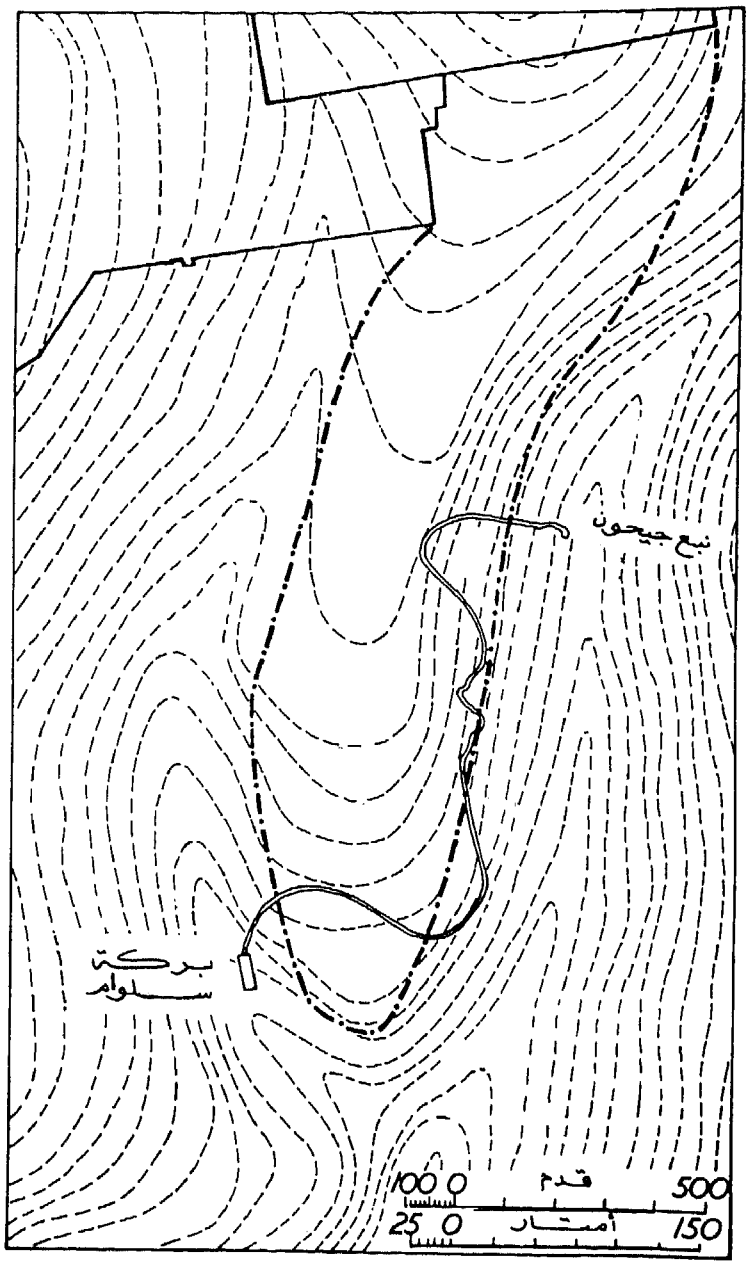

الخارطة رقم (١١) - قناة سلوام

٥ - السامرة
كوزموبوليستانية كنعان

السامرة، هي المدينة الوحيدة التي يعزو كتاب التوراة بناءها للاسرائيليين. أما المدن الأخرى فجميعها مدن كنعانية مغرقة في القدم سكن فيها الاسرائيليون إلى جانب أهلها القدماء دون أن يقدروا على طردهم منها. ورغم فتوحات يشوع المزعومة، ورغم قوة دولة داود وسليمان التي لا نملك عنها معلومات تاريخية مؤكدة، فان مدناً كنعانية مثل مدينة «جازر» قد بقيت خارج نطاق المملكة الموحدة حتى صعد اليها فرعون مصر فأخذها وقدمها هدية إلى سليمان. نقرأ في سفر الملوك الأول ٩ : ١٦ [صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان].

وقد بنيت السامرة لتكون عاصمة لمملكة اسرائيل بعد أن تنقل ملوك المملكة الشمالية بين عدد من العواصم المؤقتة. فعقب موت الملك سليمان واستقلال الأسباط العشرة عن أورشليم والهيكل، استقر الملك «يربعام» أول ملوك اسرائيل في مدينة «شكيم». ولكنه بعد عدة سنوات تركها إلى مدينة «فنوئيل»، ثم عاد واستقر في مدينة «ترصه» التي بقيت عاصمة لمملكة اسرائيل مدة أربعين سنة. وفي ترصه بدأ الملك «عمري» حكمه عام ٨٧٨ق.م، بعد أن اغتصب السلطة من «زمري». ويعتبر عمري بمثابة المؤسس الثاني لمملكة اسرائيل، فهو الذي أمن لها الاستقرار والازدهار وكرس ارتباطها حضارياً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالعالمين الآرامي والفينقي، وبنى لها عاصمة جديدة على تل اشتراه من رجل يدعى «شامر» وأسماها «السامرة» (الملوك الأول ١٦ : ٢٤).

ورغم أن بناء مدينة جديدة هو، من حيث المبدأ، فرصة من أجل اظهار الطابع الحضاري الخاص لمن بنوها، إلا أننا نفاجأ في موقع السامرة بمدينة لا ترتبط فقط بأرضيتها الكنعانية الفلسطينية فحسب، بل وبالعالم الكنعاني الأوسع وبالعالم الآرامي الزاخر، مما يجعلها بحق «كوزوموليتانية» كنعان (Cosmopolitan)*. ذلك أن الخيار الديني للأسباط العشرة التي شكلت مملكة اسرائيل الشمالية، كان يحمل في الوقت نفسه خياراً حضارياً متكاملاً. ومنذ أن انفصلت مملكة اسرائيل عن هيكل أورشليم، حيث كانت الديانة اليهودية آخذة بالتشكل، وتبنت بشكل كامل ديانة كنعان، فقد تبنت أيضاً جميع مظاهر الحضارة الكنعانية العميقة الجذور، وعاشت في إطارها طيلة حياتها القصيرة حتى دمارها الأخير وسبي الأسباط العشرة دون رجعة عام ٧٢٠ق.م.

ولقد تم تكريس الانفصال الديني عن أورشليم منذ الأيام الأولى لتشكيل مملكة اسرائيل، عندما قام «يربعام» أول ملوكها ببناء معبدين كنعانيين لشعبه وضع فيهما تمثالاً على هيئة العجل، وهو رمز الاله بعل، وصرف من خدمته كهنة اللاويين الذين كانوا مكرسين للخدمة الدينية في أورشليم. نقرأ في سفر الملوك الأول ١٢ : ٢٨ - ٣١ [فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم. كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من مصر. ووضع واحداً في بيت إيل وجعل الآخر في دان.. وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي]. وبعد يربعام سار جميع ملوك بني اسرائيل في طريقه خلا واحداً هو

---

* - الكوزموبوليتاني، هو العالمي غير المحلي الذي يحمل خصائص شمولية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملك «ياهو» الذي قضى على بيت آخاب وقام باصلاح ديني لم يقيض له الاستمرار. ولم يكن موقف عامة الناس في الدولة مغايراً لموقف ملوكهم، مما استجر عليهم وعلى حكامهم اللعنات التي امتلأت بها أسفار التوراة. ولم يكن الدمار الأخير لدولتهم إلا عقاباً: [وسلك بنو اسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل. لم يحيدوا عنها. حتى نحى الرب اسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء، فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى اليوم] الملوك الثاني ١٧ : ٢٢.

وقد جاءت نتائج التنقيب الأثري في موقع السامرة في اتفاق مع الرواية التوراتية. فمدينة السامرة، هي الموقع الوحيد في فلسطين الذي بني على التربة العذراء دون طبقات آثارية سابقة عليه. كما أثبتت أساليب التأريخ الحديثة في علم الأركيولوجية أن المدينة قد بنيت في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد، وهو تاريخ بنائها الفعلي من قبل الملك عمري الذي حكم اثنتي عشر سنة منذ عام ٨٧٨ ق. م. ومن ناحية أخرى، فقد أمكن التعرف على عاصمة عمري السابقة ترصه في موقع «تل الفرح» على مسافة ستة أميال شمال شرقي شكيم (نابلس). واتضح من التنقيبات أن مدينة ترصة قد هجرت في نفس الوقت تقريباً الذي بنيت فيه مدينة السامرة، وأن العديد من أبنيتها التي كانت قيد التشييد قد أوقف العمل بها وتركت على حالها. ويبدو أن الملك عمري قد بدأ بتحضير ترصة لتكون عاصمته، ثم تحول عنها إلى موقع السامرة الذي يقدم فرصاً أوفر للاتصال مع فينيقيا وآرام[١٧].

يقع تل السامرة قرب الممر الرئيسي الذي يصل شمال فلسطين بجنوبها، على مسافة عشرة أميال شمال غرب الممر الفاصل بين جبل جرزيم وجبل عيبال، ويشرف على واد عريض يتجه نحو البحر مما يؤمن للموقع اتصالاً

17- Katheen kenyon, Royal Cities Of The Old Testament, Barrie And Jenkins, London 1971 PP. 71-89.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سهـلاً مع فينقيـا، بينما يؤمن مرج ابن عامر في الشمال الاتصال مع آرام، وقد بدأت أولى التنقيبات في التل من قبل البر وفسور G.R.Reisner لحساب جامعة هارفـارد بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٠، ثم تابـع التنقيب السيد J. W. Crowfoot لحساب هارفارد وصندوق التنقيب في فلسطين والأكاديمية البريطانية ومدرسة علم الآثار البريطانية في القدس، وذلك بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥. وأخيراً الدكتور J.B.Hennessy عام ١٩٦٧[١٨].

ولقـد تم الكشف في المنطقـة المتـوضعـة على قمـة التـل، عن القطاع الملكي الذي يضم القصور والأبنية الادارية، وكلها ذات طابع كنعاني واضح سواء في المخطـط أم في طريقـة البنـاء والحجارة المنحوتة المستخدمة فيه. وتكاد طريقة نحت الحجارة المستعملة في سور القطاع الملكي أن تكون نسخة مطابقة للحجـارة المستخـدمـة في مدن كنعـانيـة أخـرى، وخصوصاً أوغاريت القرن الثـالث عشـر قبـل الميـلاد. وقـد تمكن المنقبـون في المنطقـة من الكشف عن مرحلتين في البناء، الأولى تعود إلى الملك عمري مؤسس المدينة، والثانية إلى ابنـه آخـاب الذي تابع عمل أبيه[١٩]. وآخاب هذا معروف في التوراة بعلاقاته الـوثيقـة مع فينيقيـا التي أدت أخيراً إلى زواجه من «ايزابيل» ابنة ملك صور، التي كرست بشكـل نهائي عبـادة الآلهة الكنعانية في اسرائيل (انظر سفر الملوك الأول ١٦ : ٣١ ـ ٣٣ و١٨ : ٤ و١٩).

ولعل أهم ما عثر عليه في خرائب القصر المعزو لآخاب، كمية كبيرة من المنحوتات العاجية البارزة، مما تزين به قطع الأثاث والجدران. وبذلك توضح المقصود «بقصر العاج» الذي يورد سفر الملوك الأول ٢٢ : ٣٩ أن الملك آخاب قد بنـاه في السـامـرة، فالبنـاء المقصـود ليس بيتـاً حجـارتـه من عاج، وهو أمر

18- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, PP 340-41

19- K Kenyon, Royal Cities , op. cit, ch.7

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستحيل من الناحية العملية، بل هو قصر رصعت كل مفروشاته الخشبية وأجزاء لا بأس بها من جدرانه بمنحوتات عاجية. وقد عثر على الجزء الأعظم من هذه المنحوتات العاجية في طبقة الحرائق التي يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثامن، أي إلى التدمير الأشوري لمدينة السامرة عام ٧٢١ ق.م ومعظمها قد نالت منه النيران وتركت قطعاً متشظية وفي حالة هشة. وقد تبين من الدراسة الفنية لعاجيات السامرة أنها تنتمي إلى المدرسة الفينيقية وتربطها صلات قربى واضحة مع منحوتات مماثلة عثر عليها في أنحاء متفرقة من سورية، وخصوصاً في موقع «ارسلان طاش»، أي «حداتو» القديمة في الشمال السوري[٢٠].

وعاجيات السامرة، تستحق أن نتوقف عندها وقفة قصيرة، لأنها تنتمي إلى تقليد فني سوري مغرق في القدم كان شائعاً في كل المراكز الحضرية في بلاد الشام، وأقدم أمثلة عليه جاءتنا من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من «جبيل» ومن «ايبلا» ومن «ألالاخ». وفيما بعد أفاضت تنقيبات «أوغاريت» بمجموعة ضخمة من هذه العاجيات التي تنتمي إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، كما نعرف من نص أوغاريتي أن دوطة الملكة «أخات ميلكو» كانت تضم أسرة وكراسي ومساند قدمين مطعمة بالأشكال العاجية. ومن الألف الأول قبل الميلاد وصلتنا عدة مجموعات من المنحوتات العاجية، أهمها مجموعة «أرسلان طاش»، كماتوفر من الأدلة ما يشير إلى وجود مراكز متعددة في بلاد الشام لانتاج هذه المنحوتات أهمها «كركميش» و«شمأل» و«تل حلف» و«أرفاد» و«حماة» و«دمشق». ورغم أن هذه العاجيات تحمل تأثيرات واضحة من مصر وبلاد الأناضول، حيث تأثرت المناطق الساحلية بالفن المصري والشمالية بالفن الحثي، إلا أنها جميعاً تنتمي إلى مدرسة سورية واضحة ذات اتجاهات ثلاثة، فمدرسة شمالية وأخرى جنوبية وثالثة ساحلية.

20- Ibid, ch.7

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تم العثور على قطع من هذه المنحوتات العاجية السورية في مناطق بعيدة عن منشئها مثل ايران والأناضول والبر اليوناني ، مما يشير إلى مدى تأثير الفن السوري في الثقافات المجاورة، ومدى نشاط التجارة السورية في ذلك الوقت أما مجموعة المنحوتات الكبيرة التي عثر عليها في موقع «نمرود» عاصمة آشور، فقد تبين أنها تنتمي جميعها إلى المدرسة السورية وأن معظمها قد جاء إلى آشور كأسلاب حرب، وهو ما تؤكده النصوص الآشورية التي تتحدث عن أسلاب العاجيات التي أتت بها الحملات الآشورية من بلاد الشام[٢١].

لم تدم حياة السامرة، وفق الرواية التوراتية، أكثر من قرنين من الزمان. فبعد الهجوم الواسع الذي شنه تغلات فلاصر الثالث على مملكة اسرائيل، تلبية لاستغاثة «آحاز» ملك يهوذا الذي كان يتعرض لحملة مشتركة من دمشق والسامرة، جاء شلمنصر الخامس فحاصر السامرة عام ٧٢٤ق.م، ولكنها لم تسقط إلا في عهد خليفته صارغون الثاني عام ٧٢١ق.م، وتأتي نتائج التنقيبات الأثرية في اتفاق مع الرواية التوراتية، إذ تم العثور على طبقة سميكة من الأنقاض والحرائق تعود إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد حجبت مدينة آخاب التي لم يبق منها جدار واحد فوق الأرض. ويبدو أن الذين استوطنوا في الموقع، من الشعوب التي أحلها الآشوريون محل المسبيين، لم يُسمح لهم بالتوطن في الموقع المدمر، بل في أسفل التل، لأن الموقع قد بقي خالياً من آثار الاستيطان البشري مدة طويلة بعد ذلك[٢٢].

وبعد، إن التعرف على مدينة السامرة والكشف عن قصورها وأبنيتها الرسمية وأعمالها الفنية، هو فصل من أمتع فصول علم الآثار في فلسطين، غير أن مقاصد كتابنا هذا لا تسمح بتقديم أكثر مما قدمناه من لمحة موجزة ووافية.

21- Irene Winter, Ivory Carving, (in From Ebla To Damascus Smisthonian Ins, Washington, 1985) PP 339-346

22- K Kenyon, Royal Cities, Op Cit, ch. 10

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي الحقيقة فان موقع السامرة هو مثال ميداني واضح عما يمكن لعلم الآثار الحديث تقديمه في مجال التعرف على موقع قديم بثقة مطلقة. ومع ذلك فان كمال الصليبي لم يتوقف أبداً عند المسألة الآثارية لموقع السامرة، بل ترك التعرف عليه كلياً لمنهجه في مقارنة أسماء الأماكن، إذ يقول: [وقد أقام ملوك اسرائيل الذين خلفوا يربعام عواصم لأنفسهم أولاً في ترصة ثم في يزرعيل ثم في السامرة. وكانت هذه الأخيرة مدينة قام ملوك اسرائيل أنفسهم ببنائها على هضبة قريبة من يزرعيل اشتروها من «شمر». ومن هنا جاء الاسم الذي أعطوها، وهو بالعبرية «شمرون»... والأكثر احتمالاً هو أن «شمر» المالك الأصلي للهضبة التي بنيت فوقها السامرة (شمرون) لم يكن شخصاً بل قبيلة «شمران». وقد استمر وجود اسمها في غرب شبه الجزيرة العربية إلى يومنا هذا. والأرض الحالية لشمران تضم الأراضي الداخلية من منطق القنفذة وما يليها شرقاً، وتمتد بلاد شمران هذه عبر الجرف والشق المائي إلى وادي بيشه. وكانت السامرة بلا شك، ما هو اليوم قرية شمران في منطقة القنفذة، على مسافة ما صعوداً من «آل الزرعي» أو «يزرعيل». وللحقيقة فان شمران الحالية تقوم مميزة على هضبة وحدها، تماماً كما هي موصوفة في التوراة، وقد عانيتها بنفسي] (ص ٢٠٠ - ٢٠١).

وهكذا، ومقابل كل نتائج التنقيب الأثري في تل السامرة، فان ما يقدمه لنا الصليبي من وصف اركيولوجي لموقع «شمران» في منطقة عسير هو أنها «تقوم مميزة على هضبة وحدها، تماماً كما هي موصوفة في التوراة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ - مجدو والمدن الملكية

بعد عاصمتي الشمال والجنوب، نأتي إلى ثلاث مدن ملكية أخرى أخبر عنها كتاب التوراة، وهي مدن «مجدو» و«حاصور» و«جازر»، وهذه تشترك في كونها مدناً كنعانية قديمة أعاد الملك سليمان بناءها بعد أن كانت مهجورة، وحولها إلى مراكز ادارية تابعة له مباشرة، بعيداً عن الولاءات القبلية (سفر الملوك الأول ٩: ١٥).

مجدو:

تم التعرف على مجدو في «تل المتسلم» الذي يقع على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مدينة «حيفا» الساحلية، في الطرف الجنوبي من سلسلة الجبال التي تنتهي بجبل الكرمل. وقد بدأت التنقيبات في الموقع من قبل المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو باشراف عالم الآثار الكبير جيمس بريستد، وذلك فيما بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٩، واستمرت من بعده إلى خمسينيات هذا القرن[٢٣]. وقد دلت التنقيبات في الطبقات السفلى لموقع تل المتسلم على أن استيطان الموقع قد بدأ مع عصر البرونز الأول حوالي ٣٠٠٠

23- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, P. 335

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ق . م ، ثم توسعت مجدو تدريجياً لتغدو احدى مدن فلسطين الكبرى خلال عصر البر ونز الثاني والثالث[24] . وقد ورد أول ذكر تاريخي لها في مراسلات مدينة «ماري» ابان القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم تواتر ذكرها بعد ذلك في سجلات الشرق القديم ، مما قدمناه في الباب السابق .

في طبقات الموقع العائدة لنهاية عصر البر ونز وبداية عصر الحديد ، تتطابق نتائج التنقيب الأثري مع الرواية التوراتية . فمدينة مجدو قد تهدمت وهجرت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وحدث في الموقع فراغ استمر إلى القرن العاشر قبل الميلاد، أي إلى الفترة السليمانية ، حيث أعيد بناء المدينة . وقد أمكن ارجاع سور المدينة الجديد وتحصيناتها وبواباتها وعدد من قصورها إلى تلك الفترة . وفيما يتعلق بالبوابة والأبراج الدفاعية المتصلة بها ، وجد المنقبون تماثلاً تاماً بينها وبين بوابات وأبراج المدينتين الملكيتين الأخريين حاصور وجازر، وتطابقاً في تاريخ بنائها ، مما يشير إلى أن المدن الثلاث قد بنيت من قبل سلطة مركزية واحدة ولغرض واحد . أما أسلوب البناء فكنعاني واضح ، يتماثل مع ما نراه بشكل خاص في مدن فينيقيا الساحلية . وتظهر القصور الجديدة التي بنيت في القرن العاشر تماثلاً واضحاً في التصميم وأسلوب البناء مع القصور التي كشف عنها في مناطق متفرقة من سورية الداخلية[25] .

وقد بنيت المدينة لتكون مركزاً إدارياً ملكياً، ذلك أن الأبنية التي تم الكشف عنها داخل السور كانت عبارة عن قصور ذات طابع رسمي إداري لا سكني . ورغم أن بعض الأبنية السكنية القليلة كانت قائمة داخل السور خلال الفترة السليمانية ، إلا أنها اختفت خلال القرن التاسع بعد أن صارت

24- Ibid, pp. 66-76

25- K. Kenyon, Royal Cities, op cit, PP 53-66

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجدو إلى المملكة الشمالية عقب الانقسام، وتم تشييد قصور جديدة تحمل نفس الطابع ابان فترة حكم الملك آخاب[٢٦].

خلال النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، تم بناء سور جديد للمدينة، وذلك خلال فتره تزايد النشاط العسكري الآشوري في بلاد الشام والحملات المتوالية على المنطقة التي أدت إلى دمار مجدو عام ٧٣٢ق.م، على ما تخبرنا به السجلات الآشورية. وهنا تتطابق تماماً في موقع مجدو البينة التاريخية مع البينة الأركيولوجية، فالطبقة الآثارية الرابعة تدمر تماماً وتغطيها طبقة من ركام الانهيارات ترجع إلى تاريخ دمار المدينة في السجلات التاريخية، ثم يعقب ذلك فترة فراغ في الموقع تستمر قرابة ثلاثة عقود ينقطع خلالها الاستيطان ويخلو التل من سكانه. وعندما يعاد بناء المدينة في الطبقة الآثارية الثالثة، نجد أن المنطقة الملكية قد زالت نهائياً وحلت محلها الأبنية السكينة العادية، كما نجد تغيراً جذرياً في تخطيط المدينة ونظمها المعمارية، مما يخالف ما كان معمولاً به في فلسطين خلال العصر الحديدي، ويقترب إلى حد كبير من تخطيط ونظم العمارة الآشورية، مما يشير إلى الحاقها بآشور. إلا أن بقايا الفخار واللقى الأخرى العائدة للطبقة نفسها تشير إلى استمرار الثقافة الكنعانية التي كانت سائدة في فلسطين[٢٧]، فالأقوام التي أحلها الآشوريون محل الأسباط العشرة التي لم تعد قط إلى فلسطين، لم تفرض على المدينة نمطاً ثقافياً جديداً، بل استوعبت بسرعة معطيات الثقافة الكنعانية وعملت على تطويرها في الاتجاه نفسه.

مجدو، هذه المدينة الكنعانية المغرقة في القدم، والتي وقع عندها الكثير من الأحداث التوراتية، لم يشر اليها الصليبي إلا في مقطعين اثنين مقتضبين لا أثر فيهما لأية معلومات اركيولوجية، ناهيك عن المعلومات التاريخية، يقول في

26- Ibid, PP 93-101

27- Ibid, PP. 126-27, 130-32

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولهما: [مجدو هذه بالذات، الواردة في رسائل تل العمارنة، هي «مقدي» (مقد بدون تصويت) الحالية في منطقة القنفذة]. وفي الثاني يأتي ذكر مجدو عرضاً من خلال التعرض لموقع لخيش: [لخيش ليست بالتأكيد تل الدوير الفلسطينية. وترابط المكان مع جبعون ومجدو وحبرون وعجلون التي هي اليوم آل جبعان و قدي والخربان وعجلان في منطقة القنفذة وجوارها العام، يشير بشكل مميز إلى أن لخيش هي آل قياس، أو قياسة، أو بني قيس في الجوار ذاته] (ص ١١٩ و ٢٠٣).

حاصور:

تقع حاصور، ثاني المدن الملكية، في وادي الأردن بين بحيرة الحولة وبحيرة طبريا. وقد كشفت حملة التنقيب الأخيرة التي جرت بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ عن الجزء الأكبر من المدينة (تحت تل القدح)، وتبين أنها تعود إلى عصر البرونز المبكر حوالي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، واستمرت قائمة مع بعض الفجوات والانقطاعات حتى العصر الهلنستي[٢٨]، وقد ورد اسم المدينة في سجلات مدينة ماري منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك في رسائل تل العمارنة والسجلات المصرية اللاحقة مما بيناه في الباب الأول آنفاً.

وقد دلت نتائج التنقيب في الموقع على أن المدينة قد دمرت خلال القرن الثالث عشر، وبقيت مهجورة حتى القرن العاشر قبل الميلاد. ولكنها انتعشت بشكل فجائي أواسط القرن العاشر حيث أعيد بناؤها وتحصينها بطريقة مشابهة لمدينة مجدو. ولم تكن تضم سوى منطقة ملكية ذات أبنية ادارية كبيرة. وعندما انتقلت المدينة إلى المملكة الشمالية، حافظت على طابعها العام كمقر

28- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, P 329

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اداري ملكي، وأضاف إليها حكام السامرة أبنية ادارية فخمة ومعظمها يعود إلى فترة حكم آخاب، ابن عمري. غير أن الطابع الملكي الاداري قد أخذ بالاختفاء في أواسط القرن الثامن، حيث حلت البيوت السكنية والحوانيت محل عدد من الأبنية الادارية السابقة. الأمر الذي يشير إلى ضعف السلطة المركزية القائمة في السامرة[٢٩].

وكما هو الحال في مجدو، فقد بني في حاصور سور جديد أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، يشابه في تصميمه وطريقة بنائه سور مجدو الذي أقيم في حوالي التاريخ نفسه تقريباً للدفاع ضد الاجتياحات الأشورية. وقد كانت حاصور من أوائل المدن الساقطة حيث دمرت عام ٧٣٣. وقد كشفت التنقيبات في الطبقة الآثارية الثامنة عن دمار شبه كامل للمدينة يرجع إلى التاريخ نفسه، تلتها فترة تراجع سكني وعمراني طويلة[٣٠].

ومن الجدير بالذكر، أن كمال الصليبي لم يأت على ذكر هذا الموقع الفلسطيني الهام في كتابه، ولم يعثر له على مقابل في غرب العربية.

جازر:

تم التعرف على جازر في تل أبو شوشة الذي يقع على مسافة ١٨ ميلاً إلى الشمال الغربي من القدس. وقد بدأ التنقيب في الموقع، لحساب «صندوق اكتشاف فلسطين» ببريطانيا، البر وفيسور Macalister عام ١٩٠٢، فقام بحملتين تنقيبيتين الأولى من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٥، والثانية من عام ١٩٠٧ إلى ١٩٠٩. تلى ذلك حملة ثالثة عام ١٩٣٤ باشراف السيد Alan Rowe، ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٦٤ حيث قاد الدكتور

29- K. Konyon, The Royal Cites, op. cit, PP. 53-58, 69, 105-10, 127

30- Ibid, PP 128, 132

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

W.G. Dever الحملة الأخيرة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٣ . وقد دلت نتائج التنقيب على وجود تجمع سكني بسيط منذ العصر النحاسي ، استمر إلى عصر البرونز المبكر، ثم تحول الموقع مع مطلع عصر البرونز الوسيط إلى مدينة كبيرة محصنة أواسط القرن السابع عشر قبل الميلاد. غير أن هذه المدينة قد دمرت وهجرت قرابة نصف قرن، ويتوافق تاريخ التدمير مع حملة تحوتمس الثالث على فلسطين عام ١٤٨١ ، مما يرجح مسؤولية هذه الحملة عن تدمير جازر. ثم بنيت المدينة مجدداً خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واستمرت مزدهرة إلى القرن العاشر حيث دمرت مجدداً[٣١].

يتطابق دمار القرن العاشر في جازر مع التاريخ التوراتي لتدمير المدينة على يد فرعون مصر الذي صعد إلى فلسطين ودمر جازر وقدمها مهراً لابنته التي زوجها إلى الملك سليمان. وقد أعاد سليمان بناء المدينة وضمها إلى مملكته، على ما نقرأ في سفر الملوك الأول ٩ : ١٦ - ١٧ [صعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان] وتدل نتائج التنقيب الأثري على أن المدينة المدمرة قد أعيد بناؤها عقب خرابها، وأقيمت لها بوابات وتحصينات مشابهة في التصميم وأسلوب العمارة لما هو موجود في المدينتين الملكيتين الأخريين مجدو وحاصور. وقد استمرت المدينة في حالة ازدهار حتى الاجتياح الآشوري في آخر القرن الثامن الذي ترك آثاراً تدميرية واضحة في المدينة. وهناك آثار تدمير أخرى تعود إلى مطلع القرن السادس تتطابق مع اجتياح نبوخذ نصر لمملكة يهوذا[٣٢].

هذا الموقع الكنعاني الهام الذي يضرب بجذوره إلى ما وراء بدايات التاريخ المكتوب، لم يشر اليه الصليبي إلا عرضاً وفي موضع واحد من كتابه،

31- K. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, op.cit, PP. 326-27

32 - Ibid p 327

- K. Kenyon, Royal Cities, op. cit, p. 69.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث وجد له ثلاثة أمكنة محتملة في غرب العربية، فهو إما «الغَزَر» في وادي أضم، أو «الغَزَرَه» في منطقة جيزان، أو «غزير» في مرتفعات غامد (ص ١١٨). وبذلك ينتقل الصليبي من وادي أضم ومرتفعات غامد في أقصى شمال عسير إلى جيزان في أقصى الجنوب عند حدود اليمن، بحثاً عن جازر التوراتية، وهو الذي قال في مقدمته النظرية المقتضبة عن المسألة الأركيولوجية للتوراة: [وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فان الاحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في إطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النسبية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية] (ص ٥٠ ـ ٥١).

قبل أن نغادر مدينة جازر، نود أن نلفت النظر إلى مسألة هامة تتعلق بمنهجنا في اعتماد الرواية التوراتية. فلقد انطلقنا منذ البداية من موقف شكوك بالخبر التوراتي، إلى أن يتقاطع مع الحدث التاريخي الثابت أو مع نتائج علم الآثار الحديث. وحتى في حال حدوث مثل هذا التقاطع، فانه يتوجب على الباحث أن يفرز المعلومة التاريخية التي يحملها الخبر التوراتي عن أرضيتها الملحمية والأسطورية، وعن شبكة المعلومات المتضاربة التي قد تقدم ضمنها هذه المعلومة التاريخية. ولنا في خبر تدمير فرعون مصر لجازر وتقديمها مهراً لابنته زوجة سليمان خير مثال على ذلك.

ففي هذه الرواية التوراتية هناك معلومة أمكن لعلم الآثار التثبت منها، وهي تدمير جازر في القرن العاشر واعادة بنائها باسلوب مشابه لمدن سليمان الملكية الأخرى. ولما كان من غير المعقول أن يقوم سليمان بتدمير مدينة تابعة له ويعيد بناءها بعد ذلك، فان من الممكن جداً أن يكون فرعون مصر قد أخذها وتنازل عنها لسليمان الذي لم يكن قادراً حتى ذلك الوقت على اكتساب أطراف أرض كنعان بقواه الذاتية. ومن الممكن أكثر أن يكون سليمان هو الذي أعاد بناءها، لأن تاريخ خراب المدينة وتاريخ اعادة بنائها يقعان حوالي النصف الثاني من القرن العاشر أي إبان حكم الملك سليمان. إلا أن هذه الرواية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحتوي على عنصر ملحمي وعلى تناقض إخباري. أما العنصر الملحمي فهو زواج الملك سليمان من ابنة فرعون مصر. وتجشم هذا الفرعون مشاق الصعود إلى كنعان وتدمير مدينة من أجل مهر ابنته. فمن المعروف تاريخياً أن فراعنة مصر لم يزوجوا أبداً اميرة مصرية إلى أحد من ملوك الدول الكبرى التي عاصرتهم، وذلك انطلاقاً من تقليد راسخ وموقف متعال على بقية الشعوب التي ينعتونها بالبربرية، فكيف يخرجون على هذا التقليد من أجل ملك يحكم بقعة صغيرة واقعة تحت النفوذ المصري. وهناك قصة ذات دلالة كبيرة في هذا المجال يرويها المؤرخ الاغريقي «هير ودوتس» عن سبب اجتياح «قمبيز» خليفة «قورش» الفارسي مصر في القرن السادس قبل الميلاد، أي إبان فترة انحلال الحضارة المصرية وتقلص نفوذ المملكة السياسي إلى حده الأدنى، فيقول ان قمبيز طلب الزواج من ابنة فرعون مصر، ولكن الفرعون ارسل اليه من بنات البلاط أكثرهن جمالاً مدعياً أنها ابنته. وعندما عرف قمبيز الحقيقة شن حملته الشهيرة على مصر واحتلها من أقصاها إلى أقصاها[٣٢].

وأما التناقض الإخباري في مسألة جازر وفرعون مصر، فيكمن في أن الروايات التوراتية السابقة قد قدمت معلومات متضاربة حول هذه المدينة. ففي سفر يشوع ٢١ : ٢٢ وأخبار الأيام الأول ٦ : ٦٧، يرد أن مدينة جازر قد أعطيت لبني قهات من اللاويين. وفي يشوع ١٦ : ١٠ يرد أن الاسرائيليين لم يقدروا على طرد الكنعانيين منها فسكنوا معهم. وفي القضاة ١ : ٢٩، نجد أن الكنعانيين كانوا فيها عبيداً تحت الجزية. وأخيراً نجدها مدينة كنعانية مستقلة لم تقدر قوة المملكة الموحدة المزعومة وضعها تحت سيطر السلطة المركزية في أورشليم إلا بمعونة جيش أجنبي، وهو الخبر الأصح عن جازر، لأنه لو كان

32- تاريخ هير ودوتس، ترجمة حبيب أفندي بسترس، مطبعة القديس جاورجيوس بيروت ١٨٨٦، ص ص ١٩٤ - ١٩٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها اسرائيليون يعيشون إلى جانب الكنعانيين لما سمح سليمان بتدميرها، ولما تجشم الفرعون مشقة الصعود اليها ومساعدة الملك سليمان على أهلها.

من هنا فان الخبر التاريخي المؤكد الذي تقدمه الرواية التوراتية بعد اختبارها على محك البينة الأركيولوجية، هو أن فرعون مصر، في فترة انحسار النفوذ المصري عن بلاد الشام وصعود قوة آشور، قد حاول تقوية دولة صغيرة قامت على حدوده، لتكون خطاً دفاعياً متقدماً له في وجه القوات الآشورية التي كانت قد بدأت حملاتها المتفرقة على بلاد الشام. ومما يؤكد نجاح هذه الاستراتيجية المصرية، هو ما رأيناه من استنجاد ملوك يهوذا الذين خلفوا سليمان، بمصر، كلما حاق بهم الخطر الآشوري، واستعداد مصر الدائم لقتال الآشوريين في أرض فلسطين. وقد دمر الفرعون مدينة جازر وجوارها وأعطاها لسليمان الذي أعاد بناءها وضمها إلى مملكته.

هذا وسيكون لنا وقفة أطول في فصل قادم مستقل يعالج مسألة تاريخية الرواية التوراتية.

* * *

بعد السامرة وأورشليم والمدن الملكية الثلاث، نتابع بسط البينة الأركيولوجية من خلال عدد آخر من المواقع الكنعانية.

بيت شان:

تم التعرف على «بيت شان» قرب مدينة «بيسان» الحالية في فلسطين، وذلك في الحملة التنقيبية التي نظمتها جامعةٌ بنسلفانيا في ثلاثينيات هذا القرن باشراف السيد A. Rowe. وقد بينت التنقيبات أن الموقع كان مسكوناً منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ثم ظهرت المدينة المسورة التي بلغت أوج ازدهارها إبان القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ولعل أكثر مكتشفات بيت شان إثارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للانتباه، سلسلة من المعابد الكنعانية المتوضعة فوق بعضها في طبقات آثارية متتالية. يرجع المعبد الأول في تاريخه إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يليه آخر يرجع إلى الفترة ما بين ١٣٠٠ و ١١٥٠ ق.م ويظهر في تصميمه وعمارته تأثراً بالمعابد المصرية الصغيرة من فترة تل العمارنة. وقد عثر في حرم المعبد على تماثيل لآلهة كنعانية ومصرية، مما يشير إلى عبادة مختلطة مصرية كنعانية وإلى نفوذ مصري واضح، ولربما إلى وجود حاميات مصرية كانت تقيم بشكل دائم هناك منذ عهد سيتي الأول. يلي هذا معبد ثالث يرجع إلى الفترة الاسرائيلية، ورابع إلى الفترة الهلنستية، وأخيراً كنيسة بيزنطية[٣٣].

ويؤكد قوة النفوذ المصري في بيت شان (كما فصلنا اثناء دراستنا للسجلات المصرية) العثور على نصب تذكاري تركه الفرعون سيتي الأول (١٣٠٢ - ١٢٩٠ق.م) في الموقع، يذكر فيه أنه قد صد عن بيت شان جحافل الأعداء وأجبرهم على التراجع، وتمثال لرمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ق.م) مع نص تركه أحد قادة هذا الفرعون، يذكر أنه قد وصل بقواته إلى شمال فلسطين وهو يطارد فلول شعوب البحر. يضاف إلى ذلك عدد من النقوش الهيروغليفية الأبكر ترجع إلى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م).

في الطبقة الآثارية الخامسة التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد تظهر مجموعة من الأبنية الجديدة بعضها ذو طابع رسمي، تشابه في أسلوب البناء ونوع الحجارة المنحوتة المستخدمة أبنية المدن الملكية الثلاث، مما يشير إلى أن السلطة المركزية قد أولت هذه المدينة عناية خاصة. وفي عهد المملكة المنقسمة تتبع بيت شان إلى المملكة الشمالية، ويتزايد فيها عدد الأبنية ذات الطابع الاداري[٣٤]. ويبدو أن بيت شان قد نجت بطريقة ما من التدمير

33- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, PP. 197,320-21

34- Ibid, PP. 227-229, 251-252,273

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأشوري الذي نال من معظم المراكز الحضرية للمملكة الشمالية، إذ لا تظهر التنقيبات في الموقع آثار دمار يرجع إلى تاريخ الاجتياح الآشوري.

وهكذا تجتمع في موقع بيت شان كل البينات المعاكسة لنظرية كمال الصليبي. فاسم الموقع قديم قدم سكناه، وقد وجد مكتوباً في الوثائق التي عثر عليها بين انقاض المدينة، ولا علاقة لليهود النازحين إلى فلسطين بتسميته تيمناً بموقع قديم في غرب العربية كما يرى الصليبي، واللقى المصرية التي وجدت في الموقع من نصب وتماثيل ونقوش تثبت أن مسرح السجلات التاريخية المصرية هو بلاد الشام لا غرب العربية، ونتائج التنقيب الأركيولوجي تتفق مع الروايات المصرية والآشورية. ومع ذلك ودون توقف عند هذه الحقائق، ينقل الصليبي بيت شان إلى منطقة الطائف فيجدها في قرية «الشنية»، وذلك في حاشية صغيرة مقتضبة (ص ٢٠٩ الحاشية ٣).

بيت شمس:

تم التعرف على «بيت شمس» في تل «عين شمس» إلى الغرب من مدينة القدس، وفي منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط. وقد تم التنقيب في الموقع لأول مرة من قبل «صندوق اكتشاف فلسطين» ببريطانيا وذلك بين عامي ١٩١١ و١٩١٢. ثم قامت المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية بالقدس بالحملة التنقيبية الثانية وذلك بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣١. وقد تبين أن المدينة قد تأسست في عصر البرونز الوسيط، أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، واستمرت إلى عصر الحديد الثاني أواسط الألف الأول قبل الميلاد[٣٥].

ورغم أن النص التوراتي قد اعتبرها الحد الغربي لبني اسرائيل في مواجهة الفلستيين مع سكان الساحل، فإن الطبقة الآثارية العائدة إلى القرن

35- Ibid, P. 321

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثاني عشر قبل الميلاد تظهر أن المدينة كانت تحت سيطرة الفلستيين، وذلك لشيوع الخزف الفلستي فيها. وقد دمرت المدينة في أواخر القرن الحادي عشر، وهي الفترة التي عرفت الحروب الطاحنة بين الفلستيين وشاول أول ملوك بني اسرائيل، وبعد اعادة بناء المدينة تم تدميرها مجدداً حوالي عام ١٠٠٠ ق.م، وهي فترة الصراع بين الملك داود الذي خلف شاول والفلستيين. وعندما أعيد بناء المدينة، غاب عنها الطابع الفلستي وساد الطابع الكنعاني المميز لمدن فلسطين في تلك الفترة، وبعد انقسام السلطة السياسية في اورشليم على نفسها، استمرت بيت شمس كجزء من مملكة يهوذا الجنوبية[٣٦].

بعد الاجتياح الأشوري الكبير لفلسطين وسقوط مملكة اسرائيل بكاملها في يد الأشوريين فيما بين ٧٣٤ و٧٢٠ق.م، بقيت مملكة يهوذا، التي حرضت الأشوريين على جيرانها الشماليين، في حالة استقلال شكلي حتى عام ٧٠٥ ق.م عندما توجه اليها سنحاريب لتأديب ملكها حزقيا الذي توقف عن دفع الجزية بوعود وتحريض من مصر. فاجتاح سنحاريب كل مدن يهوذا ودمر وأحرق معظمها وحاصر اورشليم طويلاً ثم ارتد عنها قانعاً بالأتاوة الباهظة التي قدمها حزقيا. وكانت بيت شمس من المدن التي تلقت ضربات سنحاريب الأليمة، حيث أظهرت التنقيبات في الطبقة العائدة إلى ذلك التاريخ دماراً كاملاً للمدينة وحرائق شاملة. ثم أعيد بناء المدينة مجدداً ولكنها لم تكمل قرناً آخر من حياتها حيث دمرت مجدداً في مطلع القرن السادس قبل الميلاد، في تاريخ يتطابق وحملة نبوخذ نصر الذي قضى على أورشليم ومملكة يهوذا عام ٥٨٧ق.م[٣٧].

لم ترد مدينة بيت شمس في كتاب الصليبي، ولم يقترح موقعاً لها في غرب العربية.

36- Ibid, PP. 231-32, 252

37- Ibid, PP. 289-299

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شكيم :

تم التعرف على شكيم في «تل بلاطة» قرب نابلس الحديثة، وذلك في الحملة التنقيبية الأولى التي جرت بين عامي ١٩١٣ و١٩٣٤ باشراف الدكتور E. Sellin والدكتور G.Walter . وبعد فترة من التوقف، تابع التنقيب الدكتور G.E.Wright بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٤ . وقد بينت النتائج أن الموقع كان مسكوناً منذ العصر الحجري الحديث، إلا أن المدينة المسورة لم تظهر إلا في عصر البرونز الوسيط، في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.وقد دمرت المدينة في نهاية عصر البرونز الوسيط أواسط القرن السادس عشر قَبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها في عصر البرونز الأخير، وكانت ذات شأن في فترة تل العمارنة، حيث ظهر اسمها واسم ملكها «لابايو» في المراسلات بين حكام فلسطين وفينيقيا من جهة، وفرعون مصر من جهة أخرى. وقد دمرت المدينة مجدداً في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولم يعد بناؤها إلا في القرن العاشر قبل الميلاد. وقد استمرت جزءاً من مملكة اسرائيل الشمالية إلى حين الاجتياح الآشوري، حيث دمرت هذه الطبقة الأثارية تماماً حوالي عام ٧٢٠ق.م، أي حوالي التاريخ الذي دمرت فيه مدينة السامرة عاصمة المملكة. وقد أعقب ذلك فترة فراغ في الاستيطان استمر إلى عام ٣٣١ حيث نهضت المدينة مجدداً وصارت مركزاً للفئة الدينية اليهودية المنشقة المعروفة بالسامريين[٣٨] وعندما أعاد الرومان بناء المدينة بعد خرابها أثناء القضاء على الفتن اليهودية، أسموها «فلافيا نيابوليس»[*] أي المدينة الجديدة، ومنه جاء اسم نابلس.

38- Ibid, PP. 341-42

* ـ «فلافيا نيابوليس» . Flavia Neupolis ، أي المدينة الفلافية الجديدة، نسبة الى الامبراطور، «فسباسيان» مؤسس السلالة الفلافية التي ضمت ثلاثة أباطرة هم فسباسيان، تيتوس، دوميتان، وحكمت من عام ٧١ الى عام ٩٦ ميلادية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقترح الصليبي مكانين محتملين لشكيم. فهي إما «سقامة» الحالية في وادي سقامة على المنحدرات الجنوبية الغربية من بلاد زهران، أو «القاسم» الحالية في منطقة القنفذة، ويبعد الموقعين عن بعضهما حوالي ٢٠٠ كم.

لخيش:

تم التعرف على «لخيش» في «تل الدوير» غرب مدينة «الخليل» في منتصف المسافة تقريباً بينها وبين البحر. بدأت الحملة التنقيبية الأولى بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٧ باشراف السير H.Wellcome والسير Ch. Marston. ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٧٣ حيث بدأ مجدداً باشراف الدكتور D.ussishkin. وقد بينت نتائج التنقيب أن الاستيطان في الموقع قد ابتدأ في العصر النحاسي، واستمر بشكله البسيط إلى عصر البرونز الوسيط حيث ظهرت المدينة المسّورة مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وقد تم تدمير هذه المدينة في أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الثاني عشر. وربما كان المسؤول عن ذلك شعوب البحر أثناء تقدمهم نحو مصر، أو الفرعون رمسيس الثالث الذي صد هجومهم وطاردهم إلى أرض فلسطين. وقد بنيت المدينة مجدداً بعد ذلك، وهناك آثار سور جديد يعود إلى أواخر القرن العاشر. وربما كان هو السور الذي بناه رحبعام أثناء تحصينه للمدينة في وجه حملة شيشانق الأول (انظر أخبار الأيام الثاني ١١ : ٥ ـ ١١). وقد بقي هذا السور قائماً حتى دمار المدينة على يد الآشوريين[٣٩].

في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، تظهر في الطبقة الآثارية العائدة إلى هذا التاريخ آثار حرائق ودمار شامل، وقد كان هذا من فعل سنحاريب الذي غزا مدن يهوذا عام ٧٠٥. فالنصوص الآشورية تتحدث عن حصار لخيش

39- Ibid, PP. 331-32, 206-227, 281

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقضاء عليها من قبل سنحاريب، كما تصور احدى المنحوتات البارزة التي عثر عليها في مدينة نمرود بآشور حصار مدينة لخيش. وتتقاطع الأخبار الآشورية مع الروايات التوراتية حول حصار المدينة مما يمكن مراجعته في سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٤ و١٧. وأخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٩. وأشعيا ٣٦ : ٢ و ٣٧ : ٨. وقد عثر المنقبون بين أنقاض هذه الطبقة الآثارية على أسلحة آشورية كانت مستخدمة في تلك الفترة، وعلى خوذات حربية مماثلة للخوذات التي يضعها الجنود في نحت النمرود الذي يصور حصار لخيش[40].

ثم بنيت المدينة مجدداً واستمرت جزءاً من مملكة يهوذا، بعد تراجع سنحاريب. ولكنها دمرت بعد قرابة قرن من الزمان إبان حملتي نبوخذ نصر على يهوذا بين عامي ٥٩٨ و٥٨٧ق.م (انظر سفر الملوك الثاني ٢٤ و٢٥ وارميا ٣٤، والنص البابلي في الصفحة ١٢١ سابقاً). وتظهر التنقيبات في الطبقة العائدة لهذه الفترة، آثار دمار كبير وحرائق هائلة، وجثث نالت منها النيران قد دفنت بالآلاف في مقابر جماعية وفي الكثير منها آثار الاصابات الحربية. وتتشابه هذه البينات الآثارية في لخيش مع ما تم اكتشافه في مدن يهوذا الأخرى التي دمر معظمها وأكثرها لم يعد سيرته الأولى[41].

وقد عثر المنقبون في غرفة الحراسة المتصلة ببوابة سور لخيش على مجموعة من الرسائل موجهة من قائد قوة عسكرية إلى سيده. والنصوص في حالة سيئة جداً بسبب الانهيارات والحرائق التي حلت ببوابة السور حيث حفظت إلى قرننا هذا، مما جعل قراءتها وتفسيرها موضع خلاف بين العلماء. وقد ورد في الرسالة الرابعة ذكر لمدينة لخيش ومدينة عزيقة وهما المدينتان الحصينتان اللتان صمدتا حتى النهاية أمام جيوش نبوخذ نصر وكانتا آخر ما

40- Ibid, P.290

41- Ibid, PP. 299-231, 305-06

W.F. Albright, Palistenian Inscriptions (in:Ancient Near Eastern Texts, op. cit) P.322

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سقط . فنقرأ في إرميا ٣٤ : ٦ ـ ٧ [فكلم ارميا النبي ، صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام في أورشليم ، إذ كان جيش ملك بابل يحارب أورشليم وكل مدن يهوذا الباقية : لخيش وعزيقة ، لأن هاتين بقيتا في مدن يهوذا مدينتين محصنتين] .

وقد ورد في نهاية الرسالة الرابعة المنوه عنها أعلاه ما يلي : [. . وليعلم سيدي أننا نترقب إشارات لخيش ، وفق كل المؤشرات التي أعطاها سيدي ، لأننا لا نرى عزيقة][42] . والجو العام لهذا النص يوحي بأن قائد القوة العسكرية ينتظر اشارات من جهة مدينة لخيش لأن مدينة عزيقة قد سقطت . غير أن لكمال الصليبي وجهة نظر أخرى في هذا النص الواضح إلى درجة معقولة ، فهو يرى أن كلمة «لخيش» يجب أن تجزأ إلى «ل» باعتبارها حرف جر و«كيش» كاسم مشتق من «كشه» أي امتلأ أو شبع بالطعام . وأن كلمة اشارات ـ التي هي بالكنعانية« مس ء ت» وتعني في الأصل «ارتفاعات أو صعودات» وفسرها مترجمو النص على أنها اشارات ناجمة عن صعود الدخان ـ يجب أن تفسر على أنها حمولات لأن الفعل «نس ء» يعني أيضاً «حَمَلَ» وعليه فالأقرب أن تكون كلمة «مس ء ء» هي اسم الفعل من «نس ء» وتعني «حموله» وليس صعوداً أو ارتفاعاً . أما كلمة «مؤشرات» بالكنعانية «ء ت ت» من الفعل «ء ته» الذي يجب أن يقارن برأيه بالفعل العربي «أتا» ومنه أتت الشجرة أي طلع ثمرها وكثر حملها ، لتغدو الكلمة «أتاوات» بدل «المؤشرات» أو «الدلالات» . أما كلمة «عزيقة» التي لم يستطع شطرها إلى قسمين كما فعل في «لـ ـ كيش» فيرى فيها اسم رجل لا اسم مدينة . وعليه تصبح ترجمة النص بعد كل هذه الاجتهادات المتطرفة وتشطير الكلمات والاستعانة باللغة العربية كما يلي : [ليعرف مولاي أننا ننتظر حمولات الطعام وكذلك كل الأتاوات التي

42- W. F. Albright, Palestenian Inscriptions (In: Ancient Near Eastern Texts, op. cit) p. 322.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعطـاهـا مولاي، لأننـا لا نستطيـع رؤيـة (السيـد) عزيقـة]. (ص ١٠٩ ـ ١١٠). بعد ذلك يغفل عن اعطائنا مكاناً للخيش في غرب العربية.

* * *

نكتفي بهذا القـدر من المسـح الأركيـولوجي للمواقع الكنعانية، فقائمة المـواقـع طويلة، وغـرض هذا الكتـاب لا يسمـح بأكثـر مما جرى عرضـه من بينات. وسننتقل في الفصل التالي إلى ساحل فلسطين الذي استقبل موجة من شعـوب البحـر استـوطنتـه وعاصرت الفترة المؤقتة والعابرة للسيطرة السياسية الاسرائيلية على أرض كنعان، ثم ذابت تدريجياً في بحر كنعان، عرقياً وحضارياً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ ـ ماذا عن الفلستيين

في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، تعرضت الحضارة المسّينية(*) على البر اليوناني إلى سلسلة من الهجمات البربرية دمرت كل مراكزها الحضرية الهامة، وأدت إلى تشتت أهلها في الأصقاع المجاورة، وكمون المد الحضاري في اليونان وفي جزر بحر ايجة التي تعرضت للخطر ذاته. ويبدو أن ضغط البرابرة على اليونان وحضارة بحر ايجه، قد أدى إلى سلسلة من تحركات الشعوب الغالبة منها والمغلوبة، بحثاً عن مواطن جديدة للاستقرار بعيداً عن عالم قد تم تهديمه تماماً، وعمته الفوضى والاضطراب والفقر المدقع. وقد وصلت طلائع هذه الفئات الهائمة إلى شمالي أفريقيا وتعاونت مع الليبيين الذين كانوا يتربصون منذ زمن للانقضاض على مصر، فتقدموا جميعاً نحو الدلتا في محاولة للاستقرار فيها. ولكن الفرعون «مرنفتاح» استطاع القضاء عليهم وردهم عن حدود مصر البرية والبحرية عام ١٢٢٠ق.م.

وفي الوقت نفسه تقدمت حملة أخرى من نقطة ما من الأرخبيل الإيجي فحطت على شواطيء آسيا الصغرى ودمرت المملكة الحثية التي لم يقم لها قائمة بعد ذلك، ثم توجهت نحو بلاد الشام فسقطت أمامها ممالك سورية

---

* ـ نستعمل هنا كلمة «مسّيني»، و«مسّينية» كترجمة لكلمة «Mycenaen» المنسوبة الى مدينة «Mycenae»، وذلك جرياً على المصطلح الشائع في المراجع العربية الى وقت قريب. إلا أننا نود التنبيه الى أن مصطلح «موكيني» و«موكينيه» قد بدأ يحل في العربية محل الأول، وهو الأصح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشمالية من أوغاريت إلى كركميش. بعد ذلك تقدمت هذه الشعوب نحو أواسط سورية حيث أقامت لها محطة مستقرة في مملكة «آمورو» تحفزاً للانقضاض مرة أخرى على مصر، أسمن الطرائد في ذلك العصر. وفي طريقها إلى مصر اشاعت الدمار في ممالك الدويلات الفلسطينية، ولكن المصريين استطاعوا ردهم للمرة الثانية عن حدودهم، إذ قام الفرعون رمسيس الثالث بتشتيتهم والقضاء عليهم نهائياً كقوة ضاربة قادرة على التحرك العسكري، وذلك حوالي عام ١١٩١ق.م. ومنذ ذلك الوقت اختفى ذكرهم من التاريخ.

وقد دعيت هذه الموجات التي غزت بلاد الشرق الأدنى القديم بشعوب البحر، لأن مصدر انطلاقها كان من جزر بحر ايجة على ما تذكره السجلات المصرية. فمن سجل حملة رمسيس الثالث، نعرف أن خمسة شعوب انطلقت من جزرها الشمالية هي: «التجاكر» و«الوشوش» و«الشيكليش» و «البيلست» و«الدينيان»، فقضت على «حاتي» و«كود» و«كركميش» ثم تقدمت إلى مصر من امورو. ولكن الفرعون بادرها بالتحرك نحو بلاد «زاهي» حيث شتتهم واستأصل شأفتهم إلى الأبد[42]. وقد أمكن لعلم الآثار تتبع تحركات شعوب البحر، من خرائب الحضارة الميسينية في اليونان إلى الدمار الفاجع للملكة الحثية في آسيا الصغرى إلى اوغاريت وكركميش وبقية دويلات ممالك بلاد الشام. ونظراً لعدم اهتمام مصر بمناطق نفوذها السابقة في بلاد الشام، فقد قامت بعض الفئات التي شتتها رمسيس الثالث بالتوطن في مناطق الساحل السوري، ومنهم البيلست الذين أسسوا لهم خمس مدن على

42- J.A. Wilson, Egyptian Historical Texts (In Ancient Near Estern Texs, Op. c't PP 262-263

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ساحل فلسطين. وهم المعروفون في التوراة باسم «الفيليست» أو «الفلستيين»*.

هذه باختصار أخبار شعوب البحر التي أتت بالفلستيين التوراتيين إلى بلاد كنعان. فماذا قال كمال الصليبي في أمر الفلستيين؟ أفرد الصليبي لهذه المسألة فصلاً خاصاً بعنوان: ماذا عن الفلستيين، يقول في مقدمته، وقبل الدخول في مقارناته اللغوية، ما يلي:

[الفلستيون، بين شعوب العهد القديم، هم الأكثر وضوحاً والأكثر اثارة للحيرة في آن معاً. وإثارتهم للحيرة لا تبدو مبعث دهشة، إذ أن الباحثين دأبوا على البحث عن موطنهم التوراتي في المكان الخطأ. ولأنه أشير إلى الفلستيين في بعض الفقرات على أنهم «كريتيون» (كرتي، نسبة إلى كرت)، فقد ساد الإعتقاد بأنهم كانوا في الأصل «شعب بحر» من أصل عرقي غامض توطن أصلاً في جزيرة كريت في البحر المتوسط، ثم انتقل إلى هناك واستقر في ساحل فلسطين. والأمر المؤكد هو أن الفلستيين الذين تتحدث عنهم التوراة العبرية لم يكونوا فلستيو فلسطين، ولا هم أتوا على كل حال من جزيرة كريت. ولا بد أن كرت التوراتية (صموئيل الأول ٣٠: ١٤، صفنيا ٢: ٤ - ٥، حزقيا ٢٥: ١٥ - ١٦) كانت وادي «كريت» (كرث)، وهو رافد لوادي «تيّه» في مرتفعات رجال ألمع، وهناك واحة تسمى «الكراث» (كرث) في وادي بيشه، حيث هناك أيضاً قرية تسمى «الفلسة» (قارن مع العبرية فلشت التي يكون جمع النسبة اليها فلشتيم أي فلستيين)] (ص ٢٤٥ - ٢٤٦).

وبعد أن يجد لكل مدينة من مدن الفلستيين الخمس مكانها في غرب العربية، ينتهي إلى القول: [ومهما كانت الأماكن الأخرى التي وجد فيها الفلستيون التوراتيون، فقد كانت لهم مدنهم الرئيسية في الجانب البحري من

---

* - الفلسطينيون في الترجمات العربية للتوراة، كلمة غير دقيقة الترجمة ومتأثرة بالاسم الحالي لفلسطين باللغة العربية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عسير وجنوب الحجاز. . . وذلك حتى زمن ملوك اسرائيل الأوائل الذين قضوا عليهم أو على وجودهم المستقل في تلك المناطق. (وربما كان في ذلك ما يفسر هجرة الفلستيين إلى الشام حيث أعطوا اسمهم لأرض فلسطين)، وقد كانت أراضيهم هناك متداخلة مع أراضي بني اسرائيل والشعوب المحلية الأخرى. وليس في التوراة العبرية ما يفيد بأنهم كانوا في الأصل مستوطنين غرباء في البلاد، وصلوا إليها كأهل بحر من الخارج. وهذا الرأي ما هو إلا من تصور الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يسنده إطلاقاً. .] (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

والحقيقة، فان السند الذي لا يتصور الصليبي وجوده اطلاقاً، يأتي من النصوص التوراتية ذاتها، ومن مقاطع أغفل الصليبي الاشارة إليها تماماً. فاضافة إلى وصف التوراة للفلستيين بأنهم كريتيون كما هو الأمر في سفر صفنيا ٢ : ٤ ـ ٥ وحزقيا ٢٥ : ١٥ ـ ١٦، فانه ينسبهم إلى جزيرة «كفتور» وهو الاسم التبادلي، في التوراة، لجزيرة كريت المعروفة في البحر المتوسط. نقرأ في سفر إرميا ٤٧ : ٤ [بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين، لينقرض من صور وصيدون كل بقية تُعين، لأن الرب يهلك الفلسطينيين، بقية جزيرة كفتور]، فهم إذن أهل بحر أتوا من جزيرة. وكذلك هم غرباء عن كنعان أتوا اليها من الخارج شأنهم في ذلك شأن الاسرائيليين، نقرأ في سفر عاموس ٩ : ٧ [ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر؟ والفلسطينيين من كفتور؟]. وفي سفر التثنية ٢ : ٢٣ [. . والعويون الساكنون في القرى إلى غزة، أبادهم الكفتوريون الذين خرجوا من كفتور وسكنوا مكانهم].

وكفتور هذه، لم ترد في التوراة فقط بل في العديد من نصوص الشرق القديم. ففي اسطورة بعل وعناة الأوغاريتية تبعث الإلهة «عشيرة» برسولها إلى كفتور، التي هي كريت في نصوص أوغاريت، لاحضار اله الحرف والصناعة من هناك ليبني بيتاً للإله بعل[٤٣]. كما ترد كفتور في النصوص المصرية

43- H.L. Ginsberg, Ugaritic Myths (in, Ancient Near Eastern Texts, op.cit, P.138

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بصيغة «كيفتو» للدلالة على كريت وجزر بحر إيجه، وحذف الراء من الاسم في الهيروغليفية وارد، لأن الراء في كفتور هي لاحقة وليست من أصل الكلمة[44].

أما السند الآخر الذي لا يتصور الصليبي وجوده، فيأتينا من علم الآثار. فلقد أعطت نتائج التنقيب الأركيولوجي على الساحل الفلسطيني معلومات وافرة عن بدايات الاستيطان الفلستي ونشوء مدن الفلستيين الخمسة: غزة وجت وأشقلون وأشدود وعقرن، التي تم التعرف عليها جميعاً. فمع بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، يظهر بشكل مفاجيء في المنطقة الساحلية الفلسطينية، نمط من الخزف غير معروف في كنعان قبل ذلك. وهذه الخزفيات التي اكتشفت على وجه الخصوص في المواقع الخمسة المذكورة أعلاه، تشبه الخزفيات السائدة في بحر ايجة في تلك الفترة، دون أن تكون نسخاً مطابقة لها، مما يدل على أنها قد صنعت محلياً من قبل مهاجرين أتوا من تلك المنطقة، ولم تجلب معهم من موطنهم الأصلي. وبعد فترة قصيرة تغدو هذه الخزفيات النمط السائد في مواقع الفلستيين التاريخية، مع تواجد عرضي في بعض المناطق المتاخمة لهم، ولكنها تنعدم كلياً في المناطق الداخلية من فلسطين. ومن الملفت للنظر أن الخزف الفلستي يظهر في معظم المواقع الفلستية بعد طبقة من الخرائب والحرائق التي تحجب طبقات كنعانية أسبق، مما يدل على أن شعوب البحر قد عادت إلى سكن المواقع التي دمرتها إبان اجتياحها الأول[45]. وسنعمد فيما يلي إلى تقديم مثالين يفيان بالغرض، الأول من موقع «أشقلون» والثاني من موقع «أشدود».

أشقلون، مدينة كنعانية قديمة على ساحل فلسطين، ورد ذكرها في سجلات الفرعون رمسيس الثاني الذي حكم منذ عام ١٢٩٠ق.م، أي قبل

44- C.H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, NewYork, 1965, P.293

45- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op .cit, PP. 214-15, 224-25

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فترة لا بأس بها من توطن الفلستيين في فلسطين، كما ورد ذكرها في سجلات الملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد[٤٦]. وق تم التعرف عليها في موقع عسقلان الحديثة، منذ الحملة التنقيبية الأولى من قبل صندوق اكتشاف فلسطين ببر يطانيا، وذلك بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١. وقد بينت التنقيبات أن الطبقة الآثارية العائدة لعصر البر ونز الأخير، وقد دمرت تماماً وتغطت بطبقة من الرماد سمكها ٥٠سم، تحجب تحتها مدينة نموذجية كنعانية. وفي الطبقة الآثارية التي تلتها مباشرة، تظهر الخزفيات الفلستية الغريبة عن أرض كنعان[٤٧].

وعلى مسافة ١٥ كم تقريباً إلى الشمال الغربي من عسقلان، تم التعرف على مدينة «أشدود» قرب بلدة «أسدود» الحالية، حيث جرت الحملة التنقيبية الرئيسية بين عامي ١٩٦٢ و١٩٧٢ باشراف البر وفيسور M.Dothan. وقد تبين أن الموقع كان مسكوناً منذ العصر النحاسي، إلا أن المدينة المسورة تعود إلى عصر البر ونز الوسيط حوالي عام ١٧٠٠ق.م، واستمرت مزدهرة إلى عصر البر ونز الأخير، حيث ورد ذكرها في سجلات أوغاريت كمدينة مشهورة بتصنيع النسيج. وقد دمرت هذه المدينة في نهاية القرن الثالث عشر واختفت تحت طبقة سميكة من الرماد. وعندما أعيد بناؤ ها في الطبقة التالية، تأخر ظهور الخزفيات الفلستية قليلاً ثم سادت الموقع بشكل كامل. وظهر إلى جانب الفخاريات الفلستية أختام أسطوانية عليها كتابات تنتمي إلى الزمرة القبرصية الإيجيّة، كما عثر على تماثيل للإلهة الأم، مصنوعة وفق الأسلوب الكريتي المعروف. إلا أنه في أشدود بشكل خاص، يظهر بشكل تدريجي وواضح كيفية ذوبان الشخصية الحضارية الفلستية في الشخصية الكنعانية. فمنذ القرن العاشر، يبدأ النمط الخزفي الفلستي في الاختفاء ليحل

46- James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, op. cit, PP.214-15-224-25

47- K. Kenyon, op. cit, P.215

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محله النمط الكنعاني المعروف في عصر الحديد، وتختفي تماثيل الإلهة الكريتية ليتحول الفلستيون إلى الآلهة المحلية[48] التي نجد اسماءها في التوراة، مثل الاله «داجون» الاله السوري القديم المعروف في نصوص اوغاريت وإيبلا. وفي الحقيقة، لم يكن هذا التحول صعباً بسبب قرب العبادة الكريتية من العبادة الكنعانية وتماثل آلهتها، ولربما قام الفلستيون منذ البداية بمطابقة اسماء آلهتهم الايجية على أسماء الآلهة الكنعانية وعبدوها تحت أسمائها الجديدة، وهو أمر معروف في التاريخ والأمثلة عليه كثيرة.

نكتفي بهذا القدر من البينات النصية والأركيولوجية التي أشاح عنها كمال الصليبي، لنتابعه في بحثه عن مدن الفلستيين الخمس في غرب العربية، ونجده يعثر على «غزة» في موقع «العزة» الحالي في وادي أضم، و«أشدود» في «السدود» في منطقة رجال ألمع، و«أشقلون» في «شقلة» بجوار مدينة «القنفذة»، و«جت» في «الغاط» بمنطقة جيزان، و«عقرون» في «عرقين» بوادي عتود الفاصل بين رجال ألمع ومنطقة جيزان (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣). ولكن نظرة سريعة على خارطة الصليبي رقم ٣، تظهر أمراً غاية في الغرابة، فالمدن الخمس التي عثر عليها في غرب العربية، تتوزع على مسافات شاسعة جداً عبر بلاد عسير من أقصاها إلى أقصاها، وتتباعد عن بعضها مئات الكيلومترات عبر مساحات مليئة بمدن الشعوب الأخرى التي تعرف عليها الصليبي هناك، مثل أهل يهوذا وأهل اسرائيل والكنعانيين والآراميين. فالعزة (غزة) الواقعة في منطقة الليث، والغاط (جت) الواقعة في منطقة جيزان، تبعدان عن بعضهما حوالي ٧٠٠ كم. والسدود (أشدود) تبعد عن شقلة (اشقلون) أكثر من ٢٠٠ كم. وعرقين (عقرون) تبعد عن شقلة حوالي ٥٠٠ كم. فكيف تسنى لشعب واحد، كان عبر أسفار التوراة عدواً تقليدياً للاسرائيليين، أن يبني مدنه الخمس على هذه الأرض الواسعة، وفي مواقع

48- Ibid, PP. 215-217

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متبعثرة عبر أراضي الأعداء؟ حقاً، لقد ذكر الصليبي مسألة التداخل بين أراضي الفلستيين والاسرائيليين، عندما عرج مطولاً على قصة شمشون في التوراة (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥). ولكن التداخل شيء والتبعثر شيء آخر. ولقد كانت أراضي الفلستيين عند حدودهم الشرقية متداخلة مع أراضي غيرهم، مما أثبته توزع الفخاريات الفلستية، إلا أن الأرض التي شغلوها على الساحل الفلسطيني كانت أرضاً متصلة، بمدنها التي يسهل التواصل بينها والانتقال والتنسيق وتجهيز الجيوش التي كانت تواجه الاسرائيليين تحت راية فلستية موحدة.

وإذا عدنا إلى البينة النصية مرة أخرى وجدنا كل الشواهد المؤيدة لوجود أرض واحدة متصلة للفلستيين، قائمة على وجه التحديد في المنطقة الساحلية، لا في المناطق الداخلية حيث عثر كمال الصليبي على معظم مدن الفلستيين، والتي تتوزع بعيداً عن ساحل البحر بمئات الأميال. نقرأ في حزقيال ٢٥ : ١٦ [فلذلك هكذا قال السيد الرب. هأنذا أمد يدي على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين وأهلك بقية ساحل البحر] وفي صفنيا ٢ : ٤ ـ ٥ [لأن غزة تكون متروكة، وأشقلون للخراب. أشدود عند الظهيرة يطردونها، وعقرون تستأصل. ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين].

هذه أسانيد الرأي الذي يقول عنه الصليبي [ما هو إلا من تصور الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يسنده اطلاقاً] (ص ٢٥٤).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨- علم الآثار وتاريخية التوراة

يقوم المحور الرئيسي في نظرية الصليبي ونهجه، على القبول بالرواية التوراتية باعتبارها تاريخاً مؤكداً مسلماً بصحته، والشك في جغرافيتها. فهو يقول في فصله الأول: [في الدراسة الراهنة، ستقلب الأمور رأساً على عقب. وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة، ومناقشة صحتها التاريخية، سآخذ تاريخيتها كمسلمة وأناقش جغرافيتها. وبين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بني اسرائيل كانوا وحدهم المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ. أو هم على الأقل الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخياً وعبروا عن ذلك بطريقة واضحة منسجمة مكتملة. وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً، وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره] (ص ٥٣).

وفي الحقيقة، فانه منذ ظهور النقد المنهجي للتوراة اعتباراً من مطلع القرن الثامن عشر، لم تقم مدرسة واحدة على القبول المطلق للرواية التاريخية باعتبارها تاريخاً حقيقياً غير خاضع للمناقشة أو النقد، نستثني من ذلك الاتجاه اللاهوتي الذي يؤمن بأن الكتاب في صيغته الحالية، هو كلمة الإله الموحاة إلى الأنبياء. ثم جاء عصر الاكتشافات الاركيولوجية الكبرى في آشور وبابل عند منقلب القرن التاسع عشر، وفي سورية مع مطلع القرن العشرين، ليضع بين أيدي الباحثين التوراتيين معلومات تاريخية ونصية وأركيولوجية، لم يسقطها من حسابه أحد قبل كمال الصليبي، قط.

والتسليم بتاريخية التوراة عند كمال الصليبي، هو نتيجة منطقية لنقله جغرافيتها ومسرح أحداثها إلى غرب العربية، حيث نفتقد إلى أي محك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضوعي يمكن اختبار روايات التوراة إزاءه، فالمنطقة لم تستكشف آثارياً حتى الآن. ولم يأتنا عنها بنبأ واضح أي شعب من شعوب الشرق القديم. وهو بعد أن شككنا بكثير من معلوماتنا حول تاريخ بلاد الرافدين والشام ومصر، ورفض السجلات التاريخية كوثيقة يمكن الاعتماد عليها (إلا إذا قرئت على طريقته)، فانه لم يترك أمامنا من معيار آثاري ونصي وتاريخي يمكن الاعتماد عليه في نقد التوراة، لتبقى وحدها الوثيقة المعتمدة، شاهدة على نفسها وشاهدة على أحداث عصرها. وهذه نتيجة لم يضعها في حسبانه قطعاً عندما [شعر بأن من الواجب عليه أن لا يبقي ما توصلت اليه معرفته بشأن التوراة سراً] (ص ١٩).

أما بعد أن أوقفنا على قدميها الأمور التي قلبها الصليبي، على حد قوله، رأساً على عقب، وأوضحنا المسلمات التاريخية والأركيولوجية التي لم توضع قبل ذلك في متناول جمهرة القراء من غير المتخصصين، فاننا نستطيع الآن أن ندلف إلى امتحان تاريخية التوراة استناداً إلى البينة الأركيولوجية المدعومة بالبينة التاريخية. ولسوف نقسم الفترة التي تغطيها أحداث التوراة إلى المراحل التالية، باحثين عن تاريخية الأحداث في كل منها: ١ ـ عصر الآباء ٢ ـ الخروج من مصر ودخول بلاد كنعان ٣ ـ عصر القضاة ٤ ـ المملكة الموحدة ٥ ـ المملكة المنقسمة والانهيار.

١ ـ عصر الآباء:

هناك اتفاق بين المؤرخين على أن تحركات الآباء الواردة في سفر التكوين، قد جاءت في فترة الاضطرابات التي أحدثها ظهور العموريين في الهلال الخصيب بين نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. تلك الفترة التي تميزت بتعطل تام للمراكز الحضرية في المنطقة، وتدمير للمدن